صفحات من تاريخ
المغرب الإسلامي

الأستاذ الدكتور
حسن خضيري أحمد

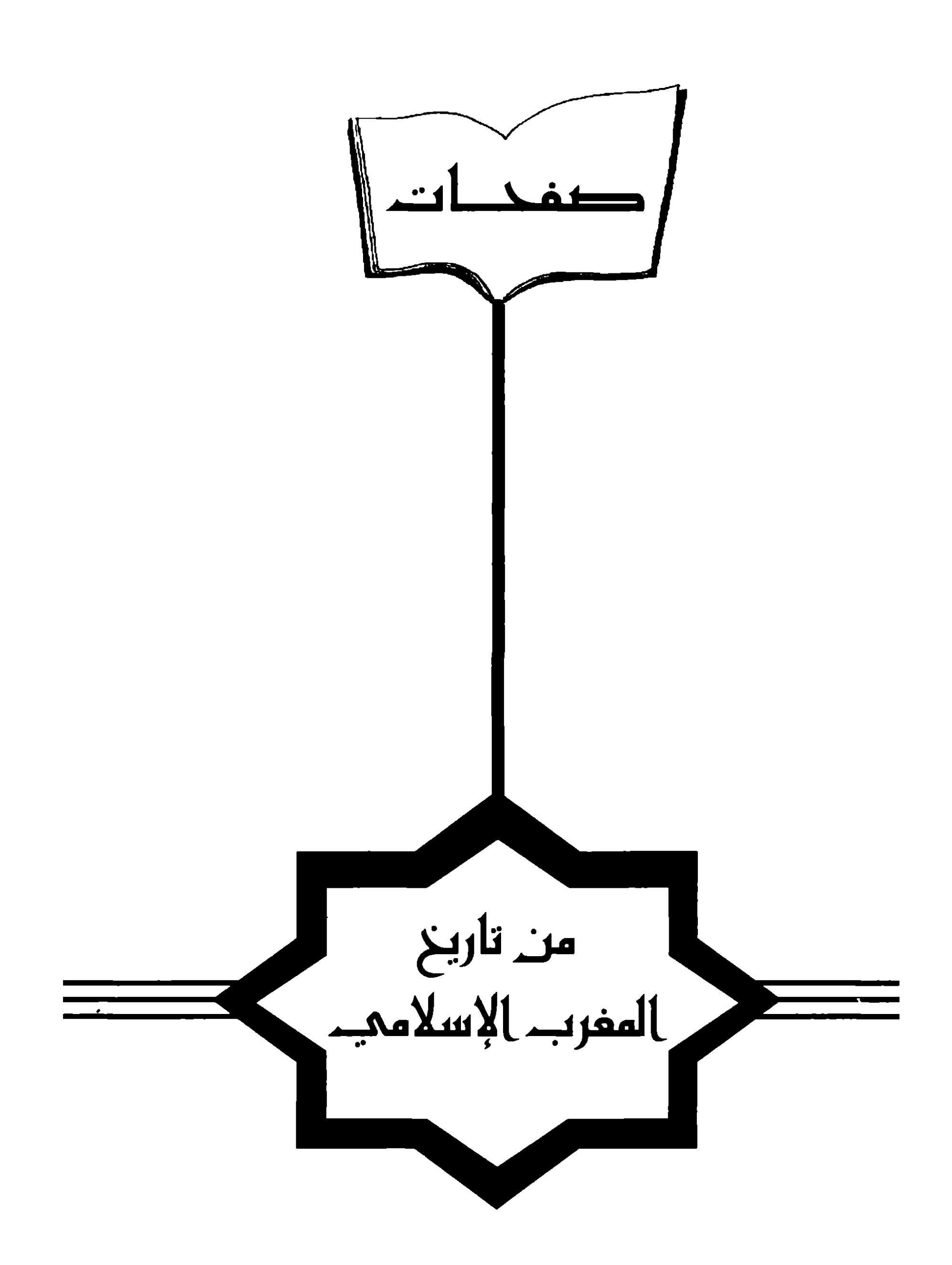
صفحات
من تاريخ
المغرب الإسلامي

تأليف

الأستاذ الدكتور

حسن خضيري أحمد

أستاذ التاريخ الإسلامي
ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بقنا (جامعة جنوب الوادي)
أستاذ زائر بجامعتي بتسبرج وأوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية
والأستاذ بكلية الآداب للبنات بالدمام


صفحات
من تاريخ
المغرب الإسلامي

مكتبة المتنبي
المملكة العربية السعودية
الدمام شارع المستشفي المركزي
هاتف / ٨٤١٣٠٠٠ / ٨٤١١٣٩٥
فاكس / ٨٤٣٢٧٩٤
ص.ب / ٦١٠ الدمام ٣١٤٢١

الطبعة الأولى
٢٠٠٥ م — ١٤٢٦هـ

رقم الإيداع

٢٠٠٥/١٠٢٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

" قَالُواْ سُبْحَانَكَ
لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "

البقرة (٣٢)

صدق الله العظيم


محتويات الكتاب

مقدمه

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين والمبعوث رحمة للعالمين ... وبعد :

هذا الكتاب يتضمن صفحات من تاريخ المغرب الإسلامي ، والتاريخ ذاكرة الشعوب ، وحاستها المنبهة ، ومن ثم فهو أهم عوامل تحريك الشعوب نحو غاياتها ، والإدراك الواعي بالتاريخ ليس عملية سهلة أو بسيطة ، لكنه أقسي من آلام الميلاد نفسها ، إن لم يشكل هذا الإدراك ، وهذا الوعي جديدا بكل ما يصاحبه من آلام وتمخضات ، وربما كان هذا هو السبب في سعي القوي الاستعمارية ومدارس الاستشراق إلي التعتيم علي تاريخ الأمة العربية الإسلامية بصفة عامة ، وتاريخ المغرب الإسلامي بصفة خاصة ، والي العمل علي طمس هذا التاريخ وتزييفه ، ،وأهمية التاريخ الحقيقية تكمن في دراسته واستيعاب أحداثه ، حتى نتمكن من الاستفادة من تجاربه

. ودراسة تاريخ المغرب الإسلامي له أهمية خاصة ، فالفتح العربي للمغرب لم يكن مجرد موجة عابرة طافت بهذا الإقليم، ثم انحسرت عنه ، وإنما كان فتحا استغرق قرابة سبعين سنة ونيف، ولا غرو أن طول مدة الفتح وصعوبته تعزي بالمؤرخ محاولة استقصاء هذه الظواهر التي جعلت تلك البلاد تستعصي على العرب الفاتحين، هذا فضلا أن الدراسة تميط اللثام عن الاستراتيجية العسكرية التي اتبعها القادة العرب في حملاتهم وأساليب معاملتهم

لأهالي هذه البلاد ، ونشر الإسلام بينهم، حتى أصبحوا من أشهر جند الإسلام إخلاصا وأوفرهم تحمسا لخدمة هذا الدين، ورفع لوائه والذود عنه ،ومن هنا فقد بسطوا ظل الإسلام حتى تخطى الصحراء الكبرى، التي لم تكن حاجزا بين عالمين ، وبواسطة هؤلاء الفاتحين تحولت إلى همزة وصل وسراج نور ومنارة علم لنشر الإسلام في ربوع القارة الأفريقية، كما أسهمت مدارس المغرب ومساجدها في بناء صرح الحضارة الإسلامية، ورغم ذلك كله لم يظفر تاريخ المغرب بما يستحقه من عناية واهتمام الباحثين العرب، وما كتب عن المغرب الإسلامي لا يمكن مقارنته بما كتب عن المشرق الإسلامي وخلا الميدان أمام المستشرقين فبعثوا تراب المغرب ، وأرخوا لشعوبه وكشفوا النقاب عن جوانب من حضارته ونشروا كثيرا من المخطوطات التي ظلت حينا من الدهر حبيسة المكتبات، ولكن للأسف أن كتاباتهم كانت في معظمها طافحة بالمغالطات، والإسقاطات التي تقفز عن الواقع مما يستدعي بداهة تصحيح بعضها ودحض منطلقاتها المحبوكة، وتعديل البعض تأسيسا على نصوص جديدة مع استخدام أحدث المناهج للرد على مزاعمهم ودحض أباطيلهم .،فالتاريخ لا يحتاج إلي فلسفة بقدر ما يحتاج إلي تفسير يلقي الضوء علي الأحداث.

وفي هذا الكتاب حاولت أن ألقي الضوء على بلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي فعرضت لجغرافية المغرب من حيث الموقع وأهميته، والعنصر البشري، وخصائصه ثم تناولت الفتح العربي لبلاد المغرب ، وعصر الولاة وتبعية بلاد المغرب لدولة الخلافة الإسلامية ، والصراع بين العرب والبربر في بلا المغرب في العصر الأموي، والخوارج والشيعة في بلاد المغرب ، وقدمت صورا للدويلات المستقلة بالمغرب فألقيت الضوء على الدولة الرستمية الخارجية في تاهرت بالمغرب الأوسط ، ودولة بني مدرا ر (بني واسول) في سجلماسة ، ودولة الأدارسة في المغرب، الأقصى ، ودولة الأغالبة في القيروان، والدولة الفاطمية ثم دولة بني زيري الصنهاجية في المغرب الأدنى ، ودولة بني حماد في المغرب الأوسط، ثم انتقلت إلى

الحديث عن الدول البربرية في المغرب فعرضت لدولة المرابطين من حيث قيام هذه الدولة ، وضمها لبلاد المغرب ، والدور البطولي الذي اضطلع به المرابطون في الأندلس ، والعوامل التي أدت إلي سقوط هذه الدولة ،ثم تناولت دولة الموحدين من حيث قيامها علي أنقاض دولة المرابطين ، ثم توحيدهم لبلاد المغرب والأندلس ، واستعانتهم بعرب بني هلال ،ولم أغفل بطبيعة الحال العوامل التي أدت إلي تقويض صرح هذه الدولة وسقوطها ، كما عرضت لمراكز الثقافة في بلاد المغرب ، ودورها في تكوين الشخصية الثقافية للمغرب الإسلامي ، لأنه لايمكن دراسة تاريخ المغرب بمعزل عن هويته الثقافية ، التي انعكس عليها تاريخه الطويل ، والتي لم تتضح معالمها إلا بعد دخول أهله في الإسلام ، وانتشار اللغة العربية بين شعوبه ،فقد أدي انتشار القبائل العربية في ربوع المغرب إلي اختلاطهم بالبربر ، عن طريق علاقات الحياة اليومية ، والاحتكاك المباشر ، والمنفعة المتبادلة ، ومن ثم امتزج البربر بالعرب امتزاجا عميقا ، ذابت فيه خصائصهم الخشنة ، وأسهم العرب في تعريب المغرب ، وتحولوا إلي خلايا حية في كيان المجتمع المغربي ،الذي ارتبط بهم علي مر العصور، فقد فتح العرب المغرب وهم يحملون بين جوانحهم وفي عقولهم تراثاً حضارياً وثقافياً ، سرعان ما دارت به بلاد المغرب في فلك الإسلام، الذي أثر تأثيرا مباشرا في كيانها كله، وتناول شتى مناحي الحياة فيها ، وهكذا لم يكن فتح العرب للمغرب فتحا فرض على الناس رهبة السلاح ، بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مناحي الحياة نلمسها بوضوح متجسدة في الحضارة المغربية الآن.

وحسبي أن أؤكد أن هذا العمل الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم ليس سوى مساهمة متواضعة فإن أصبت فذلك غاية المراد ، وإلا فأجر الاجتهاد والله ولي التوفيق .

المؤلف

حسن خضيري أحمد

حرر بمدينة نصر يناير ٢٠٠٥ م

الفصل الأول

بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي

- الموقع وأهميته
- حدوده وأقسامه وطبيعته
- العنصر البشري وخصائصه
- بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي

بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي

الموقع وأهميته ، حدوده وأقسامه وطبيعته، العنصر البشري وخصائصه

لبلاد المغرب طابعها الخاص منذ القدم فهي ترتبط بأقسامها الجغرافية ارتباطا وثيقا ، لوجود جبال الأطلس التي تخترقها من الغرب إلى الشرق، كما ترتبط من الناحية السكانية بفضل وحدة العناصر البشرية التي يتألف منها السكان الأصليون ، ولذا نجد لبلاد المغرب طابعها الحضاري الخاص الذي تميزت به قبل الفتح الإسلامي وبعده .

ولفظ المغرب في أصل وضعه لفظ إضافي، يدل على مكان بإضافته إلى جهة الشرق، وفي اللغة أيضا أن لفظ المغرب قد يعني البعد والتنائي في البلاد[1] ويبدو أن العرب قد قصدوا شيئا من هذا المعني في اسم المغرب لبعد هذا الإقليم عن جزيرتهم العربية ، وزاد مدلول المغرب إتساعا في عصر الدولة العباسية فصارت الشام ضمن المغرب، فقد قلد الخليفة المهدي (١٥٨ -١٦٩ هـ/٧٧٤ -٧٨٦م) إبنه هارون المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية ، ثم ولي هارون الرشيد جعفر بن يحي البرمكي المغرب كله من الأنبار إلى افريقية[2]، واعتبر العباسيون المشرق الذي يشمل بلاد فارس وما يليها شرقا ، وعلى هذا الأساس قسم هارون الرشيد مملكته على أبنائه الأمين والمأمون والمؤتمن[3] وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا التقسيم على فكر الجغرافيين المسلمين حيث اعتبر اليعقوبي (ت٢٨٤ هـ/٨٩٧مـ) العراق وسط

---

[1] ابن منظور : لسان العرب، مادة المغرب

[2] الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ١٥٠

[3] المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١ ، ص ٣٨ -٤٠

الدنيا وسرة الأرض، وإن كان مفهوم المغرب[1] امتد في رأيه من برقة إلى الأقصى، مرورا بتاهرت التي عدها عراق المغرب، وقد رسخ هذا المفهوم عند السلاوي [2] إذ يقول: "لفظ المغرب يطلق في عرف أهله على ناحية من الأرض معروفة بعينها، حدها من جهة المغرب البحر المحيط . ومن جهة مشرق الشمس بلاد برقة" والمغرب عند الجغرافيين قطر واحد مميز بين الأقطار، والمعروف أننا نستخدم عند دراستنا للجناح الغربي للعالم الإسلامي مصطلحين أحدهما قديم، وهو المغرب والثاني حديث وهو الغرب الإسلامي، وهذا المصطلح حديث حيث ابتكره الفرنسيون فقالوا :
(L'occident Musulman) وقد شاع استعماله مترجما في لغات أوربية شتى في الإنجليزية (The Islamic West) وفي الألمانية (Islamische Westen) [3] وهكذا ، ويشمل الغرب الإسلامي خمس وحدات جغرافية تاريخية وهي :

١ - بلاد المغرب
٢ - الأندلس وهو شبه الجزيرة الايبيرية
٣ - صقلية
٤ - جزر البليار المعروفة عند المسلمين باسم الجزائر الشرقية
٥ - الصحراء الكبرى

---

1 اليعقوبي : كتاب البدان ص ٣٤٣

2 السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصي ج ١ ، ص ٧١

3 حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب ولاندلس ، ص ٢٠

وهكذا نرى أن مدلول لفظ المغرب في العصور الوسطي كان أوسع من مدلوله اليوم، خصوصا بعد أن خرج منه الأندلس، وأصبح قاصرا الآن على بلاد شمال أفريقيا فقط، أو ما يسمي بالمغرب العربي الكبير [١]

على أن بلاد المغرب ، عرفت منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة فكانت تسمي في القديم "ليبيا"، وكانت معروفة عند الأمم القديمة بهذا الاسم يطلقونه على كل أجزائها، ثم اطلق عليها الجغرافيون من الإغريق واللاتين خمسة أسماء : "ليبيا" وتشمل طرابلس وبرقة، ثم إفريقية وتطلق علي الاقليم الذي يشمل تونس الحالية، ونوميديا وتشمل غرب تونس الحالية، وقسنطينة من أعمال الجزائر ، وموريطانية الشرقية وتشمل الجزائر وجزء من مراكش، وموريطانية الغربية وتشمل مراكش الحالية إلا جزء من شرقها، وتنتهي غربا حتى المحيط الأطلسي، ثم أطلق الرومان لفظ إفريقية على الإقليم الذي يقابل اليوم الشمال الشرقي لتونس الحالية ،ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا، وكان يعرف باسم إفريقية القنصلية [٢] ،ولفظ افريقية مشتق من كلمة أفري (Aphri) التي أطلقها الفينيقيون على سكان قرطاجنة وأوتيكا (Utica) ثم عممه بعدهم اليونان، وأطلقوه على سكان المغرب الكبير من برقة حتى ساحل المحيط الأطلسي[٣]، ومن الجدير بالذكر أن العرب نقلوا هذا الاسم من الأصل الروماني والبيزنطي وهو أفريكا (Africa) بعد أن عربوه إلى (إفريقية) .

---

[1] أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٠

[2] جوليان : تاريخ أفريقيا، ص ٥

[3] جوليان:: تاريخ أفريقيا ص٥ ، وما بعدها

ويذكر ابن عبد الحكم أن إفريقية نسبة إلى الأفارقة، وهو بذلك يتفق مع التفسير اليوناني الروماني، بيد أنه في موضع آخر من كتابه "فتوح مصروالمغرب" نسب الأفارقة إلى فارق بن بيصر الذي حاز لنفسه الأرض ما بين برقة إلى إفريقية [١]، بينما أرجع الحميري اسم إفريقية إلى رجل عمرها يدعي إفريقس بن صيفي الحميري[٢]، وقيل أفريقس بن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثانية قطورا، وقيل فارق بن مصرايم [٣]، وكيفما كان الأمر فإن العرب وجدوا عند فتحهم للمغرب اسم إفريقية قائما واستخدموه بنفس دلالته البيزنطية .

وقد اصطلح على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام كبيرة بحسب قربها أو بعدها عن مركز الخلافة في المشرق وهي :

١ - **المغرب الأدني :** ويطلق عليه "إفريقية" وذهب المراكشي أن حده الشرقي مدينة "انطابلس" التي تسمي برقة ، وحده الغربي مدينة قسنطينة[4] ويشمل تونس الحالية، وكانت عاصمته مدينة القيروان في عصر دولة الأغالبة، ثم المهدية في عصر الفاطميين، وتونس منذ عصر الحفصيين وحتى اليوم[5] .

٢ - **المغرب الأوسط :** ويمتد من بجاية إلى تلمسان، ويشتمل على الجزائر الحالية، وجزء من شرق المغرب، ويمتد من مجري شلف إلى مجري الملوية، وجبال تازا غربا، ويسمي أيضا نوميديا "Numedia"

---

[1] ابن عبد الحكم : فتوع مصر والمغرب ص٢١٢، البلاذري : فتوح البلدان ، ص٣١٤ -٣١٥

[2] محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار، مادة إفريقية

[3] ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة إفريقية

[4] المراكشي : المعجب ، ص٤٣١ -٤٣٣

[5] السلاوي : الاستقصا، ج١ ، ص٧١ وراجع : حسن خضيرى : علاقات الفطميين بدول المغرب ، ص٧٤

وقاعدته تلمسان، وكانت قاعدته مدينة تاهرت في عصر الدولة الرستمية ثم مدينة أشير في عصر بني زيري وبني حماد[1] .

٣ - **المغرب الأقصي :** ويشمل ما بقي من بلاد المغرب ويعتبر إمتداداً للمغرب الأوسط، ولذا نجدهما في معظم العصور التاريخية يكونان دولة واحدة، ويعتبر نهر الملوية هو الحد الفاصل بينهما، وأما في الغرب فحده المحيط الأطلسي، وفي الجنوب وادي أم الربيع، وقاعدته فاس ومراكش[2]، وما وراء ذلك تمتد صحاري المغرب، والمغرب الأقصى يعرف اليوم باسم المملكة المغربية، ويطلق عليه البعض خطأ اسم مراكش علي غرار التسمية الأوربية [3] "Maroc" بيد أن مراكش اسم مدينة كبيرة في المغرب الأقصى، وقد كانت قاعدته في عصرى المرابطين والموحدين، بينما كانت أول حواضره "فاس" على عهد الأدارسة العلويين[4] .

وعلى الرغم من هذه التقسيمات السالف ذكرها لبلاد المغرب، والتي بدأت اعتبارية، وانتهت إدارية وسياسية فإن بلاد المغرب تؤلف شكلا رباعيا فسيحا يمثل وحدة طبيعية متجانسة، ولعل ذلك يدحض ماذهب إليه بعض المستشرقين[5] أن بلاد المغرب تفتقر إلى الوحدة الجغرافية، وهدفهم في ذلك تجزئة المغرب واستبعاد فكرة الوحدة المغربية التي تحد من النفوذ الأوربي

---

[1] الادريسي : صفة المغرب، ص٨١ ، الحميري : الروض المعطار ، ص١٣٥

[2] المراكشي : المعجب، ص ١٥٦، الحميري : الروض المعطار ، س٥٤٠

[3] أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص١١

[4] المراكش : المعجب، ص١٥٦

[5] الفردبل : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، ص٤١ ، جورج مارسيه::بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي، ص١٨١

في المغرب، ويحد بلاد المغرب البحر المتوسط من الشمال والمحيط الأطلسي من الغرب، ورمال الصحراء المترامية من الجنوب، ويطلق عليها الصحراء الكبرى ويفصلها عن "مصر" برقة.، وتربط بلاد المغرب سلسلتان متوازيتان من الجبال العالية تمتدان من غرب البلاد إلى شرقها، وتعرفان باسم جبال أطلس، والسلسلة الشمالية من هذه الجبال يطلق عليها أطلس التل، وهي فرعان يتجه أحدهما من طنجة إلى مليلة، والأخر يمتد من المحيط الأطلسي إلى شمال وادي السوس، والجنوبية تسمي أطلس الصحراء، وتمتد من المحيط الأطلسي حتى تونس الحالية. وبين سلسلة الجبال الشمالية والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي يقع شريط ساحلي ضيق، ويضيق هذا الشريط الساحلي كلما اتجهنا شرقا، حتى يكاد ينعدم في المغرب الأدني، وهكذا تظهر بلاد المغرب كوحدة جغرافية واحدة، ولعل اختراق جبال الأطلس لها من أقصاها الغربي إلى أقصاها الشرقي جعلتها ترتبط جغرافيا واثنولوجيا، وتتسم بطابع خاص ميزها عنْ سائر الشعوب المجاورة رغم تتابع موجات الفاتحين.

والواقع أن بلاد المغرب جبلية في جملتها ، فقلما نجد أرضا منخفضة باستثناء الجزء الغربي من مراكش والشرقي من تونس، مما جعل الدفاع عنها ميسورا بينما يتطلب الهجوم مشقات كبيرة ، ولعل هذا هو السبب الذي يكمن في أن العرب ظلوا ولفترات طويلة ، وبموجات متتابعة من الحملات يحاولون السيطرة على هذا الأقليم.

سكان المغرب قبل الفتح الإسلامي :

سكن بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي عدة عناصر بشرية قسمها المؤرخون المسلمون إلى ثلاثة عناصر :

١- البربر:

وهو سواد سكان البلاد والعنصر البشري الغالب، ولفظ بربر لا علاقة له هنا بلون البشرة وإنما هو لفظ إغريقي "Barbaros" كان اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم الإغريقية، فقد كانو يسمونهم بارباروي، أما العرب فعلي عادتهم يحاولون ان يجدوا أصلا عربيا لكل لفظ أو علم جغرافي[1]، ومما يجدر ذكره أن البربر أنفسهم ينفرون من هذه التسمية ويرون أن إسمهم الأصلي أما زيغ، وهو يعني في لغتهم الأمازيغية الأحرار الشرفاء أو السادة، ويبدو أن كلمة بربر إسم صوت جاء من أن البربر يحدثون أصواتا غير مفهومة تغلب عليها الراء والباء حينما يتكلمون، أي بمعني أنهم يبربرون في كلامهم، وقد عبر عن ذلك أحد القدماء بقوله: "ما أكثر بربرتهم"[2] ، والبربر في لغة العرب اختلاط الأصوات غير المفهومة [3]، وقد قيل أيضا أن كلمة بربر تكرار لمقطع "بر" المقطع الأول بمعني البرية أي الصحراء، والمقطع الآخر اسم شخص يدعي "بر" استوطن البرية، ويكون

---

1 حسين مؤنس: معلم تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٣

2 أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص١٣

3 ابن خلدون:العبر ،ج٦،ص٨٩ ومايليها

أبناؤه البربر بمعني ساكني الصحراء، وقيل أن البربر من أولاد مهاجر عربي من حمير يسمي "بر بن قيس" ، ويقال أن هذا الرجل عندما هاجر إلى المغرب لم يفهم لهجة هؤلاء الناس فسماها بربرة، وسمي الناس الذين يتكلمون بها البربر[١] .

ونخرج من هذا أن هذه التفسيرات كلها مجرد اجتهادات لا يمكن الجزم بأحدها، أما الحقيقة فهي أن البربر شعب افريقي سكن هذه البلاد من أقدم العصور، واليونان هم الذين سموه بالبربر، وعنهم أخذ الرومان ثم العرب هذه التسمية، يدعم هذا القول أن البربر أنفسهم كما أسلفنا ينفرون من هذه التسمية، ويعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم فالصحراء الكبرى بضفتيها لم تكن حاجزا مانعا أمام الهجرات البشرية التي وفدت إلى بلاد المغرب، كما كانت بلاد المغرب على اتصال بالساحل المقابل للبحر المتوسط فجاءت إليها الهجرات من هنا وهناك واستوطنتها، واختلطوا وانصهروا على بلاد المغرب ليكونوا هذا الشعب المسمي بالبربر[٢] .

وينقسم البربر إلى قسمين كبيرين بحسب أسلوب الحياة والطابع الحضاري:

١ - البربر البدو، ويسمون بالبتر.

٢ - البربر الحضر، ويسمون بالبرانس.

ولكن يلاحظ أن هذا التقسيم ليس مطلقا، فالحضارة والبداوة متبادلة في كل من الجماعتين ، ويذكر بعض المؤرخين من العرب والبربر أن البرانس ينحدرون من نسل رجل عربي يسمي "برنس بن بر بن قيس بن عيلان،" وأن البتر ينحدرون من سلالة أخية مادغيس بن بر بن قيس بن عيلان، الذي

---

[1] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج٢،ص٤٠ ،دائرة المعارف الاسلامية،مادة بربر

[2] حسن خضيري: أهم مراكز تجارة الصحراء،ص٤ -٧

كان يعرف بالأبتر، ويفسرون سبب هجرتهم إلى المغرب لنزاع دب بينه وبين أبيه وإخوته، فقال الناس بربر أي توحش في البراري فسمي نسله بربرا.

بينما يرجع بعض الباحثين[1] تسمية البرانس والبتر إلى نوع الثياب المعروفة في المغرب، فالزى الوطني المشهور كان البرنس، يضاف إليه غطاء الرأس، فمنهم من كان يرتدي هذا الزي كاملا بغطاء الرأس فسموا "البرانس" ومنهم من كان يلبس هذا الرداء قصيرا أو بدون غطاء الرأس، فأطلق العرب عليهم اسم "البتر" بمعني الناقص او المقطوع، لكن "جوتيه" يتحفظ على هذا التفسير إذ لاحظ أن كثيراً من البرانس لا يرتدون البرنس في الوقت الحاضر، وإنما يرتديه حفدة البتر ، ويعتبرونه زي الفرسان[2] ، ويري البعض أن البربر كانوا ينقسمون إلى طائفتين متباينتين حضاريا : الحضر الذين يسكنون السواحل والتلال الشمالية الحصينة ويعتمدون على الزراعة بحكم استقرارهم وهم البرانس، والبربر الرحل سكان البادية الذين ينتشرون في الصحاري وهم البتر[3] .

ويبدو أن الاختلاف بين هاتين الطائفتين اختلاف جنسي ولغوي معا ، كل كتلة تكون أمة قائمة بذاتها ، تحس برغم تفرقها وانتشارها برابطة الدم والقرابة ، أما الخلافات الاجتماعية فهي اعتبارية إذ من الممكن أن يستقر البدو ويتبدي المستقرون، فقد كان لسائر القبائل البربرية الكبرى مثل

---

[1] Marcais, G. Les Arabes en Berberie du xi au xiv siecles, paris 1913. pp 48-50
- Dozy : Dictionnaire detallie des noms des vetements chez les Arbes Amesterdam 1854, p75

[2] Gautier : le passé de l'afrique du Nord, paris 1937, pp 241-242

[3] حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين، ص١٥٧ -١٥٩، حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٤،السيد عبد العزيزسالم::تاريخ المسلمين وآثارهم،ص١٩

صنهاجة وزناتة ومصمودة وكتامة وهوارة مواطن أصلية ، لكن بطونها كانت تنتشر في نواح متعددة من بلاد المغرب، وتختلط بعضها ببعض دون حواجز، فقبيلة زناتة البترية كانت علي حد قول ابن خلدون، "أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا" ، مما يجعل تقسيم القبائل البربرية إلى بتر وبرانس حسب مواطنها في الشمال أو الجنوب، أو حسب تبديها وتحضرها أمرا صعب المنال.

ومهما يكن من أمر هذا التقسيم، فإنه أكثر دلالة على أحوال البلاد ، وأكثر اتفاقا مع طبيعة نظام أهلها الاجتماعي، وان التزامه ينير لنا السبل لنفهم تاريخ البربر في القرون الوسطي، ذلك أن النزاع بين البرانس والبتر شكّل تاريخ الإسلام في المغرب، وأثر فيه تأثيرا بعيد المدى، بل امتد أثره إلى الأندلس، واحتدم النزاع بعد سقوط الخلافة الأموية بين زناتة وبين صنهاجة، أما في بلاد المغرب فقد وضح ذلك الخلاف إبان الفتح الإسلامي فقد حالفت زناتة البترية الفاتحين منذ البداية، وحمل البرانس عبء المقاومة.

على أن من أهم قبائل البتر : قبيلة زناتة، التي خصص لها ابن خلدون جزءا خاصا من تاريخه المسمي بالعبر، لكثرتها البالغة ،لذلك يجعلها فرعا مستقلا عن سائر قبائل البربر[1]، ومن قبائلها جراوة ومغراوة، وبني يفرن ، وبني مرين ،وبني زيان ، وبني وطاس . .

وأشهر قبائل البرانس: هوارة وازداجة ومصمودة، وأوربة وكتامة وعجيسة، وصنهاجة ولمطة وهسكورة وجزولة٢ [2].

---

[1] ابن خلدون:العبر،ج ٦ ،ص٨٩

[2] حسن احمد محمد : قيام دولة المرابطين ، ص٣٦، أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص١٣

وللبربر لغة خاصة بهم وهي لغة حامية قريبة كل القرب من لغة قدماء المصريين التي لا تزال في بلاد النوبة وهي اللغة الأمازيغية وتشتمل على لهجات عديدة مثل لهجة مصمودة ويتحدث بها سكان جبال الأطلس الكبير وبلاد السوس، ولهجة صنهاجة في المغرب الأوسط ثم لهجة زناتة ويتحدث بها أهل ليبيا وتونس .

٣- الروم (البيزنطيون) :

يشكل الروم عنصرا من عناصر السكان فقد دخل الروم بلاد المغرب سنة ٥٣٣م، ونجحوا في انتزاعها من الواندال، ورفعوها إلى مصاف ولايات الامبراطورية الكبرى ، وعاشوا في المناطق الساحلية، وبنوا الحصون والمعاقل التي تحميهم من خطر المقاومة الداخلية، وكانت الإمدادات تصل إليهم عن طريق البحر، ويبدو أنهم لم يمتزجوا كثيرا بالسكان، وإن نجحوا في نشر الديانة المسيحية بين بعض عناصر السكان،
واستمروا يحكمون المغرب حتى طردهم العرب منها ، وإن كانوا لم يختفوا تماما ، إذ بقيت طوائف منهم في بعض النواحي مثل بلاد الجريد خاصة توزر التي قال عنها التجاني[١] "أهل توزر من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامي، وكذلك أكثر بلاد الجريد"، كما أشار ابن عبد الحكم في أكثر من موضع في كتابه فتوح مصر والمغرب عن وجود عنصر الروم من بين شرائح السكان في بلاد المغرب[٢] .

---

[1] التجاني : رحلة التجاني ، ص١٥٩

[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ٦١ ،٦٥، ٧٤، ٧٨

٣- الأفارقة :

وهم سكان الأقاليم الساحلية المحيطة بافريقية ، وهم أخلاط من شعوب سبقت الوجود الروماني وعاصرته من القرطاجيين ، واليونانيين ، ومن البربر الوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية، والأكثرية منهم كانت من بقايا شعب قرطاجنة، وكانوا يدينون بالطاعة والولاء للبيزنطيين[1] .أما اليهود فتضن علينا المصادر، وليست لدينا معلومات وافرة عنهم ، ومن المرجح أن بعضهم توافد مع الفينيقيين، ثم انتشرت ديانتهم بين بعض القبائل البربرية في المغرب الأقصى، وبعض بلدان المغرب الأوسط..

---

1 Gatuier, OP. CIT, PP. 100-101

بلاد المغرب العربي قبيل الفتح الإسلامي

تعرضت بلاد المغرب وسواحلها الممتدة على البحر المتوسط، والمحيط الأطلسي منذ العصور القديمة لموجات متتابعة من الغزاة، لعل من أهم تلك الموجات "الفينيقيون" الذين اشتهروا بثرائهم التجاري، وأسطولهم البحري العظيم، ونزلوا شواطئ المغرب وأسسوا كثيرا من المستعمرات التجارية مثل أوتيكا وسوسة وبنزرت وعنابة، وطنجة ويقترن اسم الفينيقيين بمستعمرة قرطاجنة، عاصمتهم بشمال أفريقيا[1] التي لعبت دورا حضاريا هاما، ساعدهم على ذلك أهمية موقعها الجغرافي والعسكري، ووطدوا نفوذهم فيها بعد سقوط دولتهم في الشام على أيدي الأشوريين، وغدت قرطاجنة امبراطورية قوية، تسعى لاكتساب مناطق النفوذ في جزر البحر المتوسط، وغيرها من الأقاليم التابعة لليونانيين والرومان، وخاضت قرطاجنة الحروب المشهورة في التاريخ، والمعروفة بالحروب البونية Bellum Punicum ، والتي امتدت فترة طويلة منذ سنة ٢٦٤ق.م حتى نهايتها في سنة ١٤٦ق.م، ودخلت في صراع طويل مع اليونانيين والرومان حتى أنهكتها الحروب المتواصلة، وزاد الأمر سوءا قيام البربر بالثورات ضدها، وأظهروا روحا من حب الاستقلال، صارت سمة البربر، وسيقابلها كل غاز لهذه البلاد بعد ذلك.

وأخيرا سقطت قرطاجنة في أيدي الرومان، وأصبح لروما المكان الأول في حوض البحر المتوسط، ويسجل سقوط قرطاجنة بداية عهد الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، ومن الجدير بالذكر أن الرومان لم يسيطروا إلا

---

[1] Mas Latrie : Relations et Commerce de L'Afrique Septentrionale ou Magreb avec les nations chretiennes, paris 1886 pp, 14-16

على مناطق متواضعة من الساحل تشتمل على الثلث الشمالي الشرقي من تونس الحالية، وعهدت روما بحكم إفريقية إلى سلسلة من الحكام القساة، واقتصرت مهمتهم على الدفاع عن الحدود ضد غارات النوميديين والقراصنة، واستتباب الأمن ، وامداد روما بكل حاجياتهم من الغلال، وما لبث أن أدرك الرومان أهمية بلاد المغرب، فبسطوا سلطانهم عليها، وجعلوها مستعمرة.رومانية، وظلت كذلك حتى غزاها الوندال سنة ٤٢٩م[1] .

والوندال "Vandalism" : قبائل جرمانية همجية كانت تعيش أصلا على سواحل بحر البلطيق، ثم هاجرت نحو الجنوب ودخلوا في صراع مسلح مع الأمبراطورية الرومانية، ومزقوا شمل الأمبراطورية، ثم مالبثوا أن انتزعوا معظم مستعمراتها، وخاصة قرطاجنة التي استولوا عليها في ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩م[2] ونجحت قبائل الوندال في تمزيق الأمبراطورية الرومانية، وانقسمت تحت تأثير ضرباتهم إلى قسمين : الدولة الرومانية الغربية والدولة الرومانية الشرقية، والتي عرفت فيما بعد بالدولة البيزنطية، وأطلق عليها العرب دولة الروم.

لما تولي الأمبراطور جستنيان حكم بيزنطة، عول على الانتقام من الوندال الذين اغتصبوا بلاد المغرب من الامبراطورية الرومانية الغربية، ووجهوا إليها كثيرا من الضربات حتى أسقطوها، وتمكن القائد البيزنطي بلزاريوس من دخول المغرب واستعادتها سنة٥٣٣م، وظلت بلاد المغرب تابعة للإمبراطورية البيزنطية حتى دخول القوات الإسلامية الفاتحة لتلك البلاد.

---

[1] ناعمي مصطفي : الصحرء من خلال بلاد تكنة ، الرباط ١٩٨٨، ص ١٠٠٠٧

[2] سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطي، القاهرة ١٩٦١، ج١ ، ص١٣٤ -١٣٥

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن مجموعة من العوامل تضافرت معا ومهدت للفتح الإسلامي، وفي الوقت نفسه خلقت مناخا ملائما للقضاء على بقايا الروم في الساحل نوجزها في الآتي :

١ - معاناة السكان الأصليين من الضرائب الباهظة التي فرضها الروم المحتلون

٢ - وحشية الولاة والقادة البيزنطيون واضطهادهم للبربر.

٣ - سوء الإدارة البيزنطية وكثرة الاضطرابات والقلاقل، الأمر الذي أدي إلى انعدام عنصر الأمن في ظل دولة الروم.

٤ - نظام الاحتكار الذي فرض على الأراضي الزراعية ، وتحويل ملاك الأراضي والمزارعين إلى أجراء .

٥ - ضعف الدولة البيزنطية وضياع هيبتها بموت جستيان سنة ٥٦٥م، هذا فضلا عن دخول الدولة في حروب متصلة مع الفرس وقبائل الهون، وانتصار الفرس عليها.

٦ - الصراع المذهبي ومحاولة فرض مذهب السلطة الحاكمة بالقوة، حيث اعتنق سكان إفريقية المذهب الأريوسي، الذي يعتقد بوجود إرادة بشرية للمسيح، واعتنقت السلطة المذهب الكاثوليكي الذي يري أن للمسيح إرادة واحدة إلهية بشرية في أن واحد ، وهكذا فقد أصاب المسيحية في المغرب ما أصابها في غيرها من البلدان من خلاف مذهبي .

الفصل الثاني

مراحل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

- أولاً: دور الاستطلاع
- ثانيا: دور الاعداد والاهتمام بالفتح
- ثالثا: دورالفتح ومحاولات الاستقرار
  - عقبة بن نافع وتأسيس القيروان
- رابعا :اتمام فتح المغرب والقضاء علي مقاومة الروم والبربر

مراحل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

أولاً: دور الاستطلاع

كان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ضرورة أملتها البواعث الدينية، واقتضتها الضرورات الأمنية والاستراتيجية، هذا فضلاً عن رغبة المسلمين في إبلاغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة، والجهاد في سبيل نشر دين الله في الآفاق، أضف إلى ذلك حماية جبهة الفتوحات في مصر من الخطر البيزنطي المحدق بها من جهة الغرب، حيث يسيطر البيزنطيون على سواحل شمال أفريقيا، وتشكل أساطيلهم التي يمكن أن تنطلق من موانيها تهديدًا مباشرًا للمسلمين، ولذا بعد أن أتم المسلمون فتح مصر بموجب معاهدة الأسكندرية في ١٦ شوال سنة ٢١هـ/ ١٤ سبتمبر سنة ٦٤٢م، واستقر عمرو بن العاص في عاصمته الجديدة الفسطاط، نجده ينهض للاستيلاء على برقة في أواخر سنة ٢٢ هـ / أوائل سنة ٦٤٣م، حيث سار بنفسه عليها، ووقع بينه وبين قبا ئل لواتة، وهوارة قتال قصير، وما لبثت هذه القبائل أن استسلمت للمسلمين، وعقدت مع عمرو بن العاص اتفاقًا على أن يؤدوا له مبلغًا قدره ثلاثة عشر ألف دينار في السنة بصفة جزية، ويضيف ابن عبد الحكم[1] : «أن عمرو بن العاص كتب على لواتة من البربر في شرطه عليهم، أن عليكم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية».

على أن هذا القول مردود عليه ولا يمكن قبوله، فليس من المعقول أن يقبل الفاتح العظيم من لواتة بيع بناتها مقابل الجزية، لأن رواية ابن عبد الحكم هذه

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٩٧ ، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، ص٤٢

على أن هذا القول مردود عليه ولا يمكن قبوله، فليس من المعقول أن يقبل الفاتح العظيم من لواتة بيع بناتها مقابل الجزية،لأن رواية ابن عبد الحكم هذه ينقل فيها عن الليث بن سعد -أحدفقهاء مصر وقضاتها -،والليث نفسه في رواية أخري ذكرها البلاذري في فتوح البلدان يستغرب ذلك قائلا :"فلو كانوا عبيدا ما حل ذلك منهم"[1] ،أضف الي ذلك أن الفتح العربي لبلاد المغرب كما ترويه المصادر العربية في هذه الفترة الباكرة يقوم علي مجموع من الروايات والأخبار التي تنقصها الدقة،ويكتنفها الغموض في أغلب الأحيان ،لان معظمها منقولة ، وأقدمها يرجع الي عصر متأخر من الفتح.

عاد عمرو بن العاص إلى مصر بعد أن صالح أهل برقة وفرض عليهم الجزية، ولعل عودته إلى مصر دون أن يمكن لجيشه في برقة يثير تساؤلات عديدة: - لماذا لم يترك بعضًا من قواته في برقة وخاصة بعد أن استسلمت له؟ هل خشي على قواته القليلة العدد من انقضاض قوات الروم عليها، وخاصة أنه لم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في فتحة لأقليم برقة، أم أن الأوضاع الأمنية في مصر لم تستقر بعد؟

ويبدو أن عمرو بن العاص رأى بثاقب بصره، أن ترك أية قوة من قواته في هذا الأقليم قد يعرضها لمغبة الدخول في مغامرة غير محمودة العواقب مع قوات الروم والبربر كثيرة العدد والعدة، هذا فضلا أن أوضاع الفتح الإسلامي لمصر لم تستقر بعد، وربما توجس خيفة من غارات الروم على الاسكندرية، والخطر المحدق من النوبة المسيحية في جنوب مصر، وخاصة بعد أن عول ملك النوبة على تجهيز جيش لمحاربة المسلمين الفاتحين في مصر، هذا فضلاً أن برقة

---

[1] البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣١٦

كانت جزءًا من أرض أو ولاية مصر، فكان فتحها استكمالاً لفتح مصر، ولا يستوجب الحصول على إذن من الخليفة، كما هي العادة عند كل فتح جديد.

لم يمض وقت غير طويل حتى خرج عمرو بن العاص في العام التالي ٢٣هـ/٦٤٤م متجاوزاً برقة إلى طرابلس، وبعد قتال عنيف وحصار للمدينة دام شهرًا، تمكن عمرو بن العاص من فتحها والاستيلاء على قاعدتها التي استعصت عليه لحصانتها ،واستعانة حاميتها البيزنطية ببربر نفوسة الذين كانوا على النصرانية، وتمكن عمر بن العاص من إرسال قواته إلى الداخل والاستيلاء على فزان وودان وزويلة كخطوة تمهيدية للدخول إلي إفريقية، ثم قفل أدراجه عائدا إلى مصر سنة ٢٥هـ/٦٤٥م، بعد أن ترك عقبة بن نافع ببرقة يدعو للإسلام.

ويبدو أن حملات عمرو بن العاص كانت تمهيدية أو استطلاعية لسبر أغوار الميدان المرتقب للفتوح الإسلامية في بلاد المغرب، وأن هناك عوامل كثيرة منعت الجيش الإسلامي من مواصلة الفتح لعل من أهمها خوف الخليفة عمر بن الخطاب على جيش المسلمين من الروم، وتشير الروايات التاريخية أن عمرو بن العاص كتب بعد استيلائه على طرابلس يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في أن يتوجه بجيوشه غربًا ليفتح ما وراءها، بيد أن الخليفة خاف على جيش المسلمين من التوغل في أراض ليست معروفة تمامًا لديهم، وتضيف الرواية أن عمر ابن الخطاب عندما عرض عليه فتح إفريقية قال: «إن إفريقية باب من أبواب جهنم، وأنها ليست بافريقية، ولكنها غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت»[1].

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٩٨، ابن أبي دينار، المؤنس، ص٤٣.

ثانياً: دور الاعداد والاهتمام بالفتح

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح أخا لعثمان بن عفان من الرضاعة، فوصله هذا النسب بعثمان، وعرف كفاءته، ولما عزل عثمان عمرو بن العاص عن ولاية مصر في سنة ٢٥هـ/٦٤٥م ولى مكانه عبد الله بن سعد، وأراد ابن سعد أن يسير على سياسة سلفه وأن يثبت أنه لا يقل كفاءة عنه، فاستأذن الخليفة عثمان بن عفان في فتح إفريقية[١]، ووجد عثمان أن الوقت أصبح ملائما لفتح إفريقية، وأعلن الخليفة بعد اجتماع هام عقده في المدينة سنة ٢٧هـ/٦٤٨م موافقته على الفتح، وفتح باب الجهاد، وتكون لديه جيش عظيم أرسله إلى مصر، ليكون تحت قيادة واليها عبد الله بن سعد.

توجه عبد الله بن سعد إلى إفريقية على راس جيش قوامه عشرين ألفا فيه كثير من شيوخ الصحابة، كأبي ذر الغفاري وغيره،وكثير من شبابهم، وقد سمي هذا الجيش بجيش العبادلة، لكثرة من كانوا فيه يسمون باسم عبد الله مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن أبي بكر، وعبدالله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن زيد بن الخطاب،وعبدالله بن مسعود،وعبدالله بن نافع بن عبدالقيس، وعبادلة آخرون، وكانوا جميعًا شبابًا في السن الباكرة.

ولما وصل هذا الجيش إلى مصر أضاف إليه عبد الله بن سعد ما معه من الجيش كان من بينه عدد من المصريين القبط الذين دخلوا في الإسلام، وكانوا على خبرة ودراية، حتى أن عبد الله بن سعد كان يأخذ برأيهم[٢] ، ولما وصلت طلائع جيش العبادلة إلى برقة أنضم إليه عقبة بن نافع بحامية برقة

---

(1) المالكي: رياض النفوس ، حـ١، ص١٤، وراجع: ابن أبي دينار: المؤنس،ص٤٤.

(2) نفس المصدر، ج١ ص١٧ -١٨.

اسم جرجير، فاستعد للقاء الجيش الاسلامي، ونلاحظ من ذلك التاريخ الباكر أن كثيرين من البربر، وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة قد انضموا للعرب، وأسلموا للتقارب الاجتماعي بين الحيين، ومن المعروف أن البربر مثلهم في ذلك مثل الفرس وأهل الشام، كانوا من أوائل الشعوب أسلامًا (١).

كان جرجير قد اتخذ من مدينة سبيطلة عاصمة له بعد خروجه عن طاعة بيزنطة سنة ٦٠٨م، ليكون في مأمن من إغارة الأساطيل الرومية عليه، كما نجح في ضم بعض قبائل البربر والروم الذين اعتنقوا المسيحية، وجمع جرجير جيشًا من البربر والروم بلغ مائة وعشرين ألف جندي، والتقى الجيشان في منطقة تسمى عقوبة بظاهر سبيطلة بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة، وكانت الغلبة لجيش المسلمين الذين أحرزوا انتصارًا حاسمًا وقتل جرجير، ولاحق المسلمون بعد مقتل جرجير فلول جيشه المنهزمة، واستولوا على حصن عقوبة، وتقدموا إلى سبيطلة، التي ما لبثت أن سقطت في أيديهم، وغنم المسلمون غنائم كثيرة بالغ المؤرخون كثيرًا في تقديرها وأسر المسلمون وسبوا كثيراً من البيزنطيين من بينهم إبنة جرجير(٢).

وهكذا أصبح الطريق أمام المسلمين مفتوحًا إلى قرطاجنة أكبر المدن البيزنطية وأهمها في إفريقية، وبدلاً من أن يعقد عبد الله بن سعد اتفاقًا، أو يضم هذه الناحية إلى دولة الإسلام، فيقيم فيها واليًا، ويترك حامية كما كانت عادة المسلمين، نجده يقدم على أمر غير متوقع، ويتفق مع أهل البلاد على جزية قدرها ٢٠٠٠٠ دينار ثم يعود إلى مصر، ولقد أثار هذا الانسحاب المفاجئ كثيرا من التساؤلات حول السبب الذي دفع ابن أبي السرح إلى ترك هذه

---

(1) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٢.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، حـ١،ص٢٦٧، ابن عذاري: البيان المغرب، حـ١،ص١٣ -١٤.

الفرصة السانحة بعد مقتل حاكم إفريقية وهلاك معظم جيشه، والرجوع عن إفريقية متخليًّا عن كل ما حققه بعد قتال عنيف دام زهاء خمسة عشر شهرًا.

ويعلل أحد المؤرخين المحدثين(١) تراجع عبد الله بن سعد عن إفريقية لأسباب منها:

أن الحصون والمسالح والمحارس التي كانت على الشريط الساحلي، كان، يمكنها مقاومة المسلمين مقاومة عنيفة، إذا اتجه المسلمون شمالاً لفتح هذه الحصون في الوقت الذي يطوقهم البربر من الجنوب فيقع المسلمون بذلك بين نارين، وكان الجيش الإسلامي قد جمع غنائم وفيرة يحرص عليها الجند المشتاقون للعودة بغنائمهم إلى أهلهم بعد طول غياب، أضف إلى ذلك أن خلافًا حادًا نشب بين عبد الله بن سعد وغيره من كبار أبناء الصحابة الذين كانوا معه،وخاصة عبد الله بن الزبير، الذي تزعم الروايات أنه البطل الحقيقي لمعركة سبيطلة وهو أمر غير صحيح، فوجد عبد الله بن سعد أن خير ما يفعله هو أن يعود مسرعًا إلى مصردون أن يترك حامية، أو يقوم بأي عمل سياسي أو عسكري أو ينشئ أو يثبت شيئًا من السلطان للعرب على هذه الناحية، وإنما اكتفى بجزية سنوية مقابل إخلاء إفريقية، أضف إلى ذلك تناقص عدد الجيش الإسلامي تناقصًا شديدًا بعد المعارك الضارية التي خاضتها دون أن تصله مزيد من الإمدادات، ولذلك اجترأت الحصون والمحارس البيزنطية على مقاومته، حيث يذكرالمالكي أن أهل الحصون تفاهموا وكاتب بعضهم بعضًا في حرب ابن أبي السرح، الذي خاف على غنائم الجيش الإسلامي، فطلب سفنًا من مصر لحمل هذه الغنائم، وظن البربر أنه يتجهز لقتالهم فخافوا مغبة

---

(1) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص٩٩ -١١٠، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٣.راجع:

Andre Julien, Histoire de l'Afrique du Nord,p.14

حيث يعلل جوليان عودة ابن سعد إلى مصر، خشية أن يقوم الروم بشن هجوم مضاد عليه من القلاع الشمالية التي لم ينجح في محاصرتها

ذلك، وفاوضوه على الخروج عن إفريقية مقابل الجزية فقبل ذلك منهم ورجع عنهم[١].

وعلى الرغم من وجاهة هذه المبررات إلا أنها لم تعد كافيةلأقامة الدليل على تراجع ابن سعد عن إفريقية واكتفائه بالجزية، حيث يسوق المؤرخ الطبري[٢] سببا آخر في تفسير عودة ابن أبي السرح إلى مصر، وهو أن وفدًا وفد على الخليفة عثمان بن عفان يشكو ابن أبي السرح فيما أخذ من الغنائم، وطالبوا بعزله فكتب إليه الخليفة عثمان بن عفان أن «استخلف على إفريقية رجلاً ترضاه ويرضونه».. ففعل ذلك ابن أبي السرح ورجع إلى مصر، يدعم هذا القول ما ذكره ابن عذاري[٣] أن عبد الله بن سعد حاصر قرطاجنة مدينة إفريقية العظمى وفتحها، ووجه السرايا والغارات من سبيطلة، فبلغت جيوشه قصر قفصة، مما يدل على عزمه على فتح إفريقية، بيد أنه اضطر للعودة إلى مصر، استجابة لطلب أمير المؤمنين، وأما ما حدث بين أبي السرح وابن الزبير، فلا يعد خلافًا، فقد عاد عبد الله بن الزبير إلى المدينة حاملاً بشارة فتح إفريقية قبل عودة ابن أبي السرح منها[٤].

ومن المرجح أن عبد الله بن سعد أدرك أن فتح إفريقية لا يتم بمعركة واحدة، ولا بهذا العدد القليل من الجيش، لا سيما وهو يلتقي بجيوش متحالفة كثيفة العدد والعدة، وفي منطقة جغرافية ذات طبيعة وتضاريس قاسية، فاكتفى بفرض الجزية وعاد أدراجه إلى مصر، وعلى الرغم من أن المصادر

---

[1] المالكي : رياض النفوس ، ج١، ص٢٧

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، حـ٤، ص٢٥٤.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب ، حـ١،ص١٤.

(4) المالكي: رياض النفوس، حـ١، ص٢٧، وراجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢١٣.

العربية[١] لم تهتم كثيرا بما حققته هذه الحملة من نتائج واكتفت بذكر غنائم المسلمين، الأمر الذي دفع بالعديد من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن هذه الحملة كانت من أجل الغنائم، فإن الشرط الذي ورد ضمن الاتفاقية التي عقدها عبد الله بن سعد مع بعض وجهاء إفريقية يقول: «أن في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم»[٢].

وهذا الشرط يؤكد أن خطة فتح إفريقية وبقية بلاد المغرب كانت خطة متكاملة، وأنها لم تكن قرارات عفوية ومرتجلة يصدرها هذا القائد أو ذاك، كما أن ورود هذا الشرط يعكس دراية القيادة الإسلامية بطبيعة العلاقة التي كانت تربط برقة بإفريقية، يقول البلاذري[٣]: «كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة» ، وفي الوقت نفسه ضمن هذا الشرط للجيوش الفاتحة ولاء منطقتي طرابلس وجنوب إفريقية، وهو ما ستكشف عنه الأحداث التي شهدتها المنطقة بعد أن غادر ابن أبي السرح إفريقية.

وبعودة ابن أبي السرح إلى مصر، انشغلت الخلافة الإسلامية بأحداث الفتنة الكبرى التي نجمت عن مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، وأغفل تبعاً لذلك أمر فتح بقية إفريقية وبلاد المغرب طيلة الصراع بين علي ومعاوية، ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد استقرار الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٤٠هـ/٦٦٠م، حيث أرسل معاوية بن حديج السكوني - أحد كبار العثمانية - فلما وصل إلى إفريقية وجد أن الروم قد نزلوا البلاد في ميناء

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢١٠ -٢١١، المالكي: رياض النفوس، حـ١،ص١٦، ابن الأثير، الكامل، حـ٣، ص٦٧.

(2) ابن عذاري : البيان، حـ١، ص١٢.

(3) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣١٤ -٣١٥.

سوسة يقودهم قائد يسمى نقفور، فلما سمع الروم بمجئ العرب أسرعوا إلى سفنهم، واستولى ابن حديج على بعض المراكز الرومية القوية،ثم وجه ابن حديج أسطوله في البحر الي صقليةسنة٤٦هـ/٦٦٧م،فأقام بها شهرا ،وغنم غنائم كبيرة ،ثم عاد الي افريقية ، ويمضي ابن حديج في فتوحاته غربا فيفتح بنزرت ،ويفتتح جزيرة جربة[١] بيد أن المسلمين في هذه المرة أيضًا لم يتركوا عاملاً على إفريقية، بل انسحبوا إلى مصر، وتعتبر حملة معاوية بن حديج غزوة من الغزوات التمهيدية التي قام بها العرب في المغرب قبل أن يتخذوا قرارًا نهائيًا بفتح هذه البلاد فتحًا دائمًا ثابتًا، ولكي يبدأ الفتح الجدي المستمر لإفريقية كان لابد من وال خاص بها يتولى قيادة الفتوح فيها، ويقوم بوضع أسس الحكم الإسلامي فيها بعد أن يجعلها ولاية من ولايات دولة الإسلام، وهذا ما سيفعله عقبة بن نافع .

ثالثًا: دور الفتح ومحاولات الاستقرار

عقبة بن نافع وتأسيس القيروان

تولى عقبة بن نافع الفهري قيادة الجيوش الإسلامية في المغرب سنة ٥٠هـ/٦٧١م، فدخلت بذلك فتوحات المغرب مرحلة الفتح الحقيقي الأمر الذي حدا بالمسلمين إلى استقرارهم بها بعد ذلك.

كان عقبة أقدم المسلمين عهدًا بإفريقية وأعرفهم بأحوالها، وقد شارك قبل ولايته في القتال الدائر في المغرب، وأظهر كفاءة منقطعة النظير، حتى أن الروايات تظهره بمظهر بطولي أسطوري، وعندما وصله الأمر بولاية إفريقية،

---

[١] البكري : المغرب ، ص١٩، السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين ، ص٣٣

وكان في نواحي زويلة قرب فزان، نهض إلى إفريقية من هناك سنة ٥٠هـ/٦٧١م، فخرج بمن معه حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط، وهناك لقي القوة العسكرية التي أرسلها الخليفة معاوية بن أبي سفيان للعمل تحت إمرته، فوصل غدامس[١]، ومن هناك دخل إفريقية وأتجه رأسًا إلى قرب موقع سبيطلة، وكان قد قرر إنشاء عاصمة أو مركز عسكري للمسلمين في إفريقية فاختار موقعًا يقع الي الشمال قليلاً من سبيطلة، وبدأ في اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين، إذ كان يعتقد أن فتح المغرب لن يتم إلا باستقرار المسلمين في ربوعه، وأن رجوع الحملات منه يمحو كل أثر أحدثوه فيه، فقال لأصحابه: «وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرًا، وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر..»[٢]

وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر حول إقامة هذه المدينة[٣]، والموقع الذي أقيمت عليه، فإن بناء مدينة القيروان في هذا الوقت بالذات، يؤكد أن الوجود الإسلامي أصبح أمرًا واقعًا، وأن المناطق التي تخضع لنفوذه الآن أصبحت في حاجة لمدينة تقوم مقام مدينة قرطاجنة، وترعى مصالح سكان جنوب إفريقية وطرابلس، وعلى االرغم من أن الباعث العسكري يجب أخذه في الحسبان، إلا أن يكون هو الباعث الأساسي في قرار بناء هذه المدينة، أو غيرها من المدن الإسلامية، فهذا أمر غير مقبول، وهو تأكيد لما تردده المراجع

---

[1] غدامس:مدينة في الصحراء ، علي بعد سبعة أيام من جبل نفوسة ،وأهلها بربر مسلمون ، ومنها يدخل الي بلاد السودان.(البكري:المسالك والممالك،ج٢،ص٦٦٠ ،ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج٣،ص٧٧٤).

[2] ابن عذاري : البيان المغرب ،ج١،ص١٩

[3] - W.Hubiak: al-Fustat:its Foundation and early development ,pp.77-86

- S.R.G, Good child : Byzantines, Berbers and Arabs in 7th Century, pp. 115-120

الغربية ودأبت عليه اقلام المستشرقين من تحميل العقلية العربية وحدها عجز العرب عن التشييد والبناء، وأنه لم يكن لديهم فكرة واضحة عن عملية تخطيط المدن وبنائها بالكيفية التي كان الروم يشيدون بها مدنهم، كما نستشف من الكلمة التي ألقاها عقبة في أتباعه:« كانت هذه المدينة إذا دخلها إمام أجابوه إلى الاسلام.. فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزًا للإسلام إلى آخر الدهر»[1]، فهذه الرواية تشير أن الباعث الديني وليس العسكري كان العامل الأساسي في قرار بناء مدينة القيروان، كما راعي عقبة العامل الاستراتيجي الذي نوهت به العديد من المصادر التاريخية، فقد قرر عقبة، أن تبنى مدينته في الداخل بحيث لا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به، كما راعى في اختيار موقع المدينة الخلفية الاجتماعية للمدينة لذلك راعى أن تبنى القيروان بالقرب من السبخة، حيث تتوافر المراعي لدواب العرب وابلهم[2].

ومن هنا يمكن القول أن هذه المدينة الإسلامية بنيت وفق معطيات إسلامية، روعي فيها حاجيات المواطن آنذاك، كما أنها لم تبن من أجل غرض واحد فحسب بل بنيت من أجل أغراض عدة، وسميت هذه المدينة بالقيروان، وهو لفظ فارسي معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح[3]، وقد استمر بناء هذه المدينة زهاء أربع سنوات، وهي مدة ولاية عقبة الأولى، ولم تكد المدينة تظهر إلى الوجود حتى بدأ تاريخ بلاد المغرب الإسلامية، فلم يعد المسلمون مجرد غزاة يخرجون للغزو من مصر ثم يعودون إليها، بل أصبحت القيروان مركزًا تخرج منه الغزوات، وقاعدة عسكرية للمسلمين فيها عدتهم وعتادهم، وصارت المدينة منبعًا للدين يلجأ إليها البربر لاعتناق الإسلام،

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، حـ١، ص١٩.

(2) نفس المصدر: حـ١،ص١٩، ابن الأثير: الكامل: حـ٣،ص٣٨٧.

(3) راجع للمؤلف: مدينة سبتة وخططها في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي، ص١٩٠ -١٩٤.

ودراسة تعاليمه على أيدي العلماء والفقهاء، ومن هنا يتجلى أهمية العمل الذي قام بها عقبة بن نافع الذي يعتبر بحق من أعظم فاتحي المغرب، وواحد من كبار بناة الدولة الإسلامية.

وفي سنة ٥٥هـ/٦٧٥م جاء أمر من الخليفة معاوية بن أبي سفيان بعزل عقبة، وتذكر المصادر التاريخية أن العزل تم نتيجة لشدته في معاملة أهل المغرب[١]، أو لسعايات والي مصر مسلمة بن مخلد، الذي كان يغار من عقبة، ويحسده على أن فتح المغرب سيكون على يديه، فيحظى دونه بالمجد والفضل، فآثر أن يسعى لعزله، ويولي مكانه قائدًا جديرًا هو «أبا المهاجر دينار».

حيث يذكر ابن عبد الحكم أنه قيل لمسلمة بن مخلد: «لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً»، ويخبرنا ابن عذاري أنه حين عزل مسلمة عقبة بن نافع قيل له:«لو استعملت عقبة وأقررته على إفريقية فإن له فضلا وسابقة، وهو الذي بنى القيروان»[٢].

ويبدو أن عزل عقبة كان تأكيدًا لسلطة مسلمة بن مخلد على إفريقية، فعزل واليها الذي لم يكن قلده الولاية من قبل، وتولية أحد مواليه وهو أبو المهاجر دينار، حيث يذكر ابن عبد الحكم أن «مسلمة بن مخلد أول من جمعت له مصر والمغرب»[٣]، وربما أن عزل عقبة يرجع إلى رغبة الخلافة في تغيير إستراتيجية الفتوح، والتركيز على فتح قرطاجنة قاعدة الروم الرئيسية في إفريقية، ولما كان ذلك يتطلب أسطولاً يتعذر بناؤه بدون إمكانيات مصر، فقد جمع الخليفة إفريقية ومصر لمسلمة بن مخلد، الذي عزل عقبة، وآثر عليه

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٣، ص٣٨٨. عن رواية الواقدي وراجع: المالكي:رياض النفوس،ج١،ص٢١

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، حـ١،ص٢٢.

(3) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٤، ابن الأثير: الكامل، حـ٣،ص٣٨٨.

مولاه أبا المهاجر دينار الذي كانت له سياسة معينة تقتضيها طبيعة هذه المرحلة من الفتح وهو ماستسفر عنه الأحداث في ولايته الجديدة.

على أية حال لم يكتف مسلمة بن مخلد بعزل عقبة فحسب، بل نجد أبا المهاجر يسيء معاملة ذلك الفاتح الكبير، ويذكر ابن عبد الحكم أنه أوقره بالحديد، حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخلية سبيله واشخاصه إليه، كما أنه رفض أن ينزل في الموضع الذي ابتناه عقبه وهو «القيروان»، واختار موضعًا آخر ليختط فيه مدينة جديدة، رغبة منه في التقليل من أهمية العاصمة الجديدة، لأن مسلمة كان يرى أن المغرب الأدنى أصبح كله تابع له، ومن ثم فلا تكون له إلا قاعدة واحدة هي الفسطاط، وذهب عقبة إلى دمشق، وشكا إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان ماحدث له من أبي المهاجر، فطيب خاطره بيد أنه لم يرده إلى ولايته[١]، واستطاع أبو المهاجر بفضل سياسته أن يقود عدة حملات ناجحة، اجتاح بها المغربيين الأدنى والأوسط، حتى وصل إلى تلمسان وهي أكبر قواعد القسم الشرقي من المغرب الأوسط(٢) ..

على أن دينارًا استطاع بحسن سياسته ولينه وقوة حيلته ودهائه وفهمه لأغوار السياسة، أن يستميل كسيله بن لمزم الأوربي زعيم البربر البرانس الذي ترك النصرانية ودخل الإسلام، وقد أتت هذه السياسة أكلها ونتج عن ذلك تحالف العرب مع البربر البرانس، الذين قاموا بمؤازرة أبي المهاجر،ومما يجدر ذكره أن دخول كسيلة وقبيلته أوربة في الإسلام يعد حدثًا هامًا لابد من ملاحظته، حقيقة كان الإسلام ينتشر في المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين، وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع، وهو ينشئ القيروان فتأثروا بشخصيته الدينية، وبما كان يظهره من التفاني في سبيل الاسلام، فدخلت جماعات

---

(1) نفس المصدر : ص٢٢٥، وراجع: حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص٣٧

(٢)ابن خلدون:العبر،ج٦،ص١٤٦ .

كثيرة منهم في دين الله زرافات ووحدانًا، وانضمت الي قوات الإسلام المحاربة، بيد أن إسلام أوربة بالذات يعتبر حدثا تاريخياً هامًا في تاريخ إسلام المغرب، فهذه لأول مرة تدخل قبيلة برنسية كبيرة في الإسلام، وكان معظم من دخل الإسلام قبل ذلك من البربر البتر من قبائل لواتة وهوارة ونفوسة وغيرها، ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه أبي المهاجر إلى القيروان[١].

استمرت ولاية أبي المهاجر في إفريقية سبع سنوات حقق فيها ما لم يحققه قبله قائد مسلم في بلاد المغرب، ووصلت فتوحه إلى مشارف المغرب الأقصى، وبات من المتوقع أن يتم فتح بلاد المغرب كلها في غضون سنوات قليلة، وما لبث رياح التغير أن عصفت بأبي المهاجر دينار وهو في قمة مجده، وأوج فتوحاته بوفاة معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠هـ/٦٨٠م، وفقد بذلك مسلمة بن مخلد نصيره، فلم تعد له المكانة التي كانت له أيام معاوية، وفوجئ دينار بقرار عزله وتولية عقبة بن نافع للمرة الثانية على إفريقية[٢]، وعلى الرغم من أن دور أبي المهاجر في بلاد المغرب لا يقل عن دور عقبة، إلا أن المؤرخين لم يسلطوا أضواءً كثيرة على ولاية أبي المهاجر وأهم أعماله، ويبدو أن ذلك راجع إلى الظروف السياسية التي أدت الي تولية وعزل عقبة،هذا بالإضافة إلى ما فعله بعقبة، ووقوع فترة ولايته بين ولايتي عقبة الأولى والثانية، والذي يعتبره معظم المؤرخين الفاتح الحقيقي لبلاد المغرب.

(1) حسن مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص٣٨.

(2) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٤، البلاذري: فتوح البلدان،ص٣٢٠.

ولاية عقبة بن نافع الثانية
والفتوحات الكبرى (٦٢-٦٤هـ /٦٨١-٦٨٣م)

لما تولى الخلافة يزيد بن معاوية سنة ٦١هـ/٦٨٠م عزل أبا المهاجر، وأعاد عقبة بن نافع على إفريقية للمرة الثانية سنة ٦٢هـ/٦٨١م، وأعطاه في هذه المرة سلطة أوسع إذا جعله مستقلاً إداريًا عن والي مصر.

وعندما وصل عقبة إلى إفريقية قبض على أبي المهاجر، وأوثقه في الحديد، يقول ابن عبد الحكم[1]: «فأوثق أبا المهاجر في وثاق شديد، وأساء عزله»، وخرب المعسكر الذي ابتناه، وعمد إلى صديق أبي المهاجر كسيلة زعيم البربر البرانس، فسجنه وأهانه، وعامله معاملة العبيد، وأخذه مصفدًا بالحديد، ونظر إلى قومه نظرة شك وريبة، وكأننا أمام شخصية أخرى لعقبة رغم ما اتصف به من إيثار وإيمان وشجاعة، وبعد عن شئون الدنيا، لم يعرف كيف يغفر لأبي المهاجر ما صنعه به، وبذلك جانب عقبة التوفيق في تلك السياسة، فقد جلب على نفسه عداوة بربر البرانس، بعد أن كانوا في عهد سلفه أنصارًا للمسلمين، ومن هنا يمكن القول أن عزل أبي المهاجر وعودة عقبة لم يكن مجرد تغيير في الولاة فحسب، بل ترتب على ذلك تغيير كامل في سياسة الفتح الإسلامي في بلاد المغرب، ستلقي بظلالها على عملية الفتح وسيكون لها أسوأ الأثر على مجريات الأحداث في ولاية عقبة الثانية.

على أية حال قام عقبة بحملته الكبرى في بلاد المغرب، التي كان الهدف منها نشر الإسلام في تلك البلاد، ووصل عقبة إلى المحيط الأطلسي، ونزل فيه بفرسه وقال: اللهم أشهد أن قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر، لمضيت في

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٥.

البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد سواك»،وكان من أخطاء عقبة الاستراتيجيةأنه لم يؤمن خطوط مواصلاته التي استطالت في حملة واحدة عن الحد اللازم ، ولم يدر في خلده ما يدبره له البربر في الخفاء، فقد تركوه علي حد قول ابن عبد الحكم(١): "لآيعرض له أحد ولا يقاتله" ، واقتفوا أثره يغورون آبار المياه ، التي مر عليها في طريق ذهابه ، حتي يقطعون عليه خط الرجعة، وبدلاً من أن يسلك عقبة في سيره الطريق الساحلي الذي مهده ابو المهاجر بوصوله إلى تلمسان من قبل، وإنما زج بنفسه في طريق وعر عبر جبال الأوراس تاركًا للبيزنطيين حرية الحركة والاتصال بالبربر، ليتعاونوا معًا على المسلمين، بيد أن عقبة لم يكترث لهم، ومضى يقتحم جبال الأوراس موغلاً في بلاد هي الغاية في وعورة الأرض وصعوبة المسالك، حتى يتخذ من «تهودة» وهي مدينة في جنوب جبال الأوراس قاعدة إسلامية على غرار القيروان، وفرق عقبة قواته، ولم يستبق معه سوى خمسة آلاف مقاتل، وبينما هو على مشارف تهودة، تمكن كسيلة من الفرار من أسره، يقول ابن عبد الحكم(٢): «فعرض له كسيلة بن لمزم في جمع كثير من الروم والبربر» ، وباغتوا عقبة في قلة من جنده، ودارت معركة حامية الوطيس بين جيش كسيلة وقوات عقبة، التي قطعوا عليها خط الرجعة، ووجد عقبة أنه لا مفر من الاستشهاد، فأمر رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم،ويكسروا أغماد سيوفهم، وطلب إليه أبو المهاجر أن يفك قيوده لكي يموت في سبيل الإسلام، وخاضت هذه الجماعة معركة الموت ببسالة، حيث استشهد عقبة ودينار ومعظم القوة ، ومن نجا من القتل تم أسره ،حيث فداهم صاحب قفصة ،وبعث يهم الي زهير بن قيس ، وتلك كانت نهاية عقبة بن نافع سنة ٦٤هـ/٦٨٣م(١)، وهي نهاية جديرة بحياة

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٧، المالكي: رياض النفوس، جـ١ ،ص٢٨.

(٢)نفس المصدر ،ص٢٢٧،ابن عذاري : البيان ،ج١ ،ص٢٨ -٣٠

رجل مثل عقبة بن نافع، وعلى الرغم من أن هذه النهاية كانت هزيمة عسكرية، إلا أنها في واقع الأمر، كانت بعيدة الاثر في إسلام إفريقية والمغرب، فقد كان ما أبداه عقبة ورجاله من البسالة ورباطة الجأش في ذلك الاستشهاد أوقع أثرا في نفوس البربر، الذين دخلوا في الإسلام زرافات ووحدانًا، هذا فضلا عن حنق مسلمي البربر من البتر على كسيلة، حتى قاموا بعد ذلك بثورة ضده، وانضموا إلى قوات الثأر الإسلامية.

بعد استشهاد عقبة بن نافع وصحبه في تهودة زحف كسيلة بن لمزم وقومه على القيروان ، وعلى الرغم من خضوعها لكسيلة ظلت القيروان مدينة إسلامية زهاء سبع سنوات دون أن يدخلها جيش إسلامي من المشرق، وتذكر المصادر التاريخية أن كسيلة الذي كان في خلق عظيم من مغاربة الساحل والروم، ما أن وصلته أنباء حملة زهير بن قيس حتى دعا أعوانه إلى الرحيل عن القيروان ، لأن بها خلقًا كثيرًا من المسلمين، ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونخاف أن قاتلنا زهيرًا أن يثبت هؤلاء من ورائنا... وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد إفريقية وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين»[١].

ونستشف من هذه الرواية أن كسيلة لم يكن يخاف من الأطفال والشيوخ والتجار الذين كانوا قد طلبوا الأمان فأمنهم، بل كان يخشى من أعوانهم مغاربة الداخل، كما تفسر أن خروج كسيلة على عقبة لم يكن ردة دينية، وإنما ثورة سياسية على الحكم الأموي بسبب اضطهاد عقبة بن نافع له ولقومه، وقد أدرك بدوره هذا الواقع، فلم تمتد يداه بأذى إلى عرب القيروان، ومن لاذ بهم من البربر.

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٤، ص٩٠ -٩١، ابن عذاري: البيان: حـ١،ص١٧ -١٨.

زهير بن قيس البلوى والقضاء على مقاومة البربر

لم تستطع الخلافة الأموية أن تهتم بأمورافريقية اثر مقتل عقبة بن نافع، واحتلال كسيلة للقيروان، إلا بعد وقت طويل ، لأن ظروف الدولة لم تسمح بذلك بسبب ثورة عبد الله بن الزبير ومطالبته بالخلافة، إلا أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان انتهز فترة من الهدوء والأمن النسبي، وبعث بمدد إلى زهير بن قيس ، وبعث إليه بالأموال من مصر فنهض سنة ٦٩هـ/٦٨٨م متجهًا إلى إفريقية، وعندما دخلها عسكر في ناحية تسمى قمودة، وهي شبه جزيرة بارزة في البحر من الساحل الشرقي لتونس الحالية، وكان من عادة العرب في تلك الظروف أن تتحصن جيوشهم في مثل ذلك الموقع أو في ثنية من النهر وذلك لقلة أعدادهم[١] ، ثم بدأ زهير بمحاربة الروم، حيث هزمهم وقضى على مقاومتهم، الأمر الذي حرمهم من كل أمل في الوقوف في وجه المسلمين أو محالفة البربر، وكان كسيلة قد جمع جموعًا ضخمة من البربر والروم، وقادهم لحرب زهير، وما لبث أن فكر زهير في الإنسحاب، بيد أن قادة الجيش الآخرين شجعوه على الثبات، وحفزوه على المسير للقاء كسيلة، وفعلا تم اللقاء بين الطرفين، وجرت معركة من أشد ما مر بالعرب في إفريقية، فقد فنى فيها الألوف من الجانبين، وخرج المسلمون منتصرين، وقتل كسيلة ونفر كثير من الروم والبربر، وطارد المسلمون فلول المنهزمين إلى مسافات بعيدة[٢]، وأدت

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٢٧ -٢٢٨، النويري : تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق د.مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء ١٩٨٤، ص١٨٣ -١٨٤، وراجع : حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب،ص٤٠.

(2) ابن عذاري: البيان لمغرب، حـ١، ص٣٣، وراجع : الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص٤٧. وراجع :
- S.R.G Good child : Byzantines, Berbers and Arabs in 7th century, p.124.

هزيمة كسيلة ومقتله إلى خروج البرانس من حلبة مقاومة الفتح الإسلامي، وانتقلت راية المقاومة والزعامة البربرية إلى البربر البتر وعلى رأسهم قبيلة جراوة وزعيمتها الكاهنة.

انتهز الروم فرصة توغل المسلمين غربا للقضاء على البربر، وجاءهم عدد كبير من صقلية ونزلوا قرطاجنة، وزحفوا على برقة، وأصابوا فيها سبيًا كثيرًا، وقتلوا ونهبوا، ووافق ذلك قدوم زهير وعسكره إلى برقة، وكان زهير في سبعين رجلاً فقط من خيرة رجاله، وأراد زهير أن يتكامل الجيش ليهاجم الروم، بيد أن أصحابه حفزوه على الهجوم، فما كان منه إلا أن انقض بمن معه على الروم، وكان من الطبيعي أن تكون الغلبة للروم في معركة غير متكافئة، واستشهد زهير ومن معه سنة ٦٩هـ/٦٨٨م بعد أن أبدى المسلمون شجاعة نادرة،[(١)] وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية في فتوح إفريقية، ومما تجدر الإشارة إليه أن بلاد إفريقية في ذلك العصر كانت بلادًا بعيدة جدًا في نظر العرب، خاصة وهي ميدان حرب عنيفة مع البربر من ناحية، والروم من ناحية أخرى، هذا فضلاً عن تضاريسها الوعرة ومسالكها المجهولة للمسلمين.

لما بلغ الأمر الخليفة عبد الملك بن مروان، اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك، ولم يكن في طاقته القيام بعمل حاسم أو الدخول في مغامرة غير محمودة العواقب، فقد شغلت الخلافة بالعديد من المشاكل،لعل أهمها الصراع مع ابن الزبير، لذلك أرجأ الأمر إلى حين، وما أن فرغ عبد الملك بن مروان من القضاء على الزبيريين، واستتب له الأمر، تجدد عزمه على مواصلة الفتوح في ذلك الجناح الغربي للدولة الإسلامية، ووقع اختياره على القائد القدير حسان بن النعمان الغساني الذي قال عنه عبد الملك: «ما أعلم أحدًا أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني».[(٢)]

---

(1) المالكي : رياض النفوس ، ج١ ، ص٣٠ -٣١، ابن عذاري : البيان، ج١، ص٣٣

(2) المالكي : رياض النفوس ، ج١ ، ص٣١

رابعًا: اتمام فتح المغرب والقضاء على مقاومة الروم والبربر (٧١-٨٥هـ/٦٩٠-٧٠٤م) :

خرج حسان بن النعمان سنة ٧٤هـ/٦٩٣م على رأس جيش كبير قوامه أربعين ألف رجل، مما حدا بابن الأثير[١] أن يقول: «لم يدخل إفريقية قط جيش مثله»، هذا فضلا عن تزويده بأسطول بحري، وخصصت خزانة مصر لتمويل هذه الحملة، وبني حسان خطته العسكرية والسياسية على تحطيم قوة الروم، وضرب التحالف الإستراتيجي بينهم وبين البربر، وملاقاة كل من الروم والبربر على حدة، و أتجه رأسًا إلى مدينة قرطاجنة «دار ملك إفريقية.. وكان بها من الروم خلق لا يحصى كثرة ، فخرجوا إليه مع ملكهم فقاتلهم حسان حتى هزمهم، وقتل أكثرهم، ثم نازلها حتى أفتتحها، وهي كانت دار الملك بأفريقية[٢]، وهكذا بدأ حسان بضرب عش المقاومة البيزنطية في المغرب واستطاع بحنكته أن يوجه ضربة قوية لقرطاجنة معقل الروم وإحدى النقاط الحصينة على الساحل، بيد أنها قاومت مقاومة عنيفة، ولم يتم اقتحامها إلا بجهد كبير ومشقة، نظرًا لمناعتها وحصانتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية.

ومهما يكن من أمر فقد استطاع حسان الاستيلاء على هذه المدينة، وأيقن الروم أنه لا نجاة لهم إلا بالهرب، يقول ابن عذاري[٣]:«.. فركبوا مراكبهم، وسار بعضهم إلى صقلية، وبعضهم إلى الأندلس، ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب».

---

(1) ابن الاثير: الكامل في التاريخ حـ٤،ص٣٠٠ ، ابن عذاري: البيان، حـ١، ص٣٥.

(2) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٨، وراجع: سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧٨، ص١٣٨ -١٤٠.

(3) ابن عذاري: البيان، حـ١، ص٣٥، الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، حـ٥،ص٥٥.

على أن اتجاه حسان إلى مدينة قرطاجنة دون غيرها هو مؤشر يؤكد على أن قرطاجة كانت مركز إفريقية وقصبتها، وأن إخضاع هذه المنطقة لمدينة القيروان لن يتم ما لم يسيطر المسلمون على دار الملك بإفريقية، لهذا السبب لم يتجه إلى المدن والقرى التي سبق وأن قام بفتحها معاوية بن حديج سنة ٤٦هـ/٦٦٦، كما أنه لم يلتفت للمدن المتناثرة في شمال المنطقة، تاركًا فتحها لمن سيأتي بعده.

لم يقف الروم مكتوفي الأيدي أمام تدمير قرطاجنة أهم معاقلهم على ساحل المتوسط، فتحالفوا مع القوط، واجتمع جيش كثيف يضم كثيرا من الحلفاء، بيد أن حسان تمكن من هزيمتهم، وفقد الروم كل أمل لهم في العودة إلى المغرب.

ثم عاد حسان ليواجه مقاومة البربر الذين تجمعوا وبصفة خاصة بربر منطقة أوراس حول امرأة لقبها العرب بالكاهنة، وكان اسمها «داهية بنت ماتية بن تيفان»، وتذكر المصادر التاريخية أنها عرفت بهذا الاسم، لأنها كانت تتنبأ بالغيب وتمارس السحر، وأن اسمها الحقيقي كان «دهيا» كذلك تختلف المصادر حول ديانتها، فتذكر بعضها أنها كانت يهودية، بينما تذكر الأخرى أنها كانت وثنية[1].

أدرك حسان أن هذه المرأة سوف تسبب للمسلمين متاعب كثيرة، لأنها كانت متحصنة في جبال الأوراس، وأنه بأنتهائها ستنتهي مقاومة مغاربة المغرب الأوسط، فقرر تبعًا لذلك الخروج إليها، «فلقيها على نهر يسمى اليوم نهر البلاء»، ودارت رحى الحرب في موقعة مسكيانة، وأسفرت المعركة عن هزيمة حسان «فعظم البلاء بنيهم، وظن المسلمون أنه الفناء،و وأنهزم حسان

---

(1) ابن الأثير الكامل، ج٤، ص٣٠١، النويري: تاريخ المغرب، ص١٩٧.

بعد بلاء عظيم، وقتل من العرب خلق كثير» ، يقول ابن عبد الحكم[١]: «فأقتتلوا قتالاً شديدًا ، فهزمته، وقتلت من أصحابه وأسرت منهم ثمانين رجلاً ، وأفلت حسان، ونفذ من مكانه إلى انطابلس» ، لقربها من البحر والبر، وعلى الرغم من هزيمة المسلمين فإن الكاهنة لم تجرؤ على التقدم إلى القيروان التي ظلت قاعدة حربية إسلامية في قلب إفريقية.

ويبدو أن هزيمة حسان بن النعمان لا تعود إلى قلة الإمكانيات، كما أنه لا تعود إلى درايتها بالغيب وبالشعوذة والسحر كما يذكر ابن الأثير[٢]، بل يعود إلى تعثر الاستراتيجية الإسلامية في فتح بلاد المغرب بدءًا من ولاية عقبة بن نافع الثانية سنة ٦٢هـ/٦٨١م.

على أية حال أقام حسان في طرابلس ينتظر المدد ، وينظم جيشه ويعيد الثقة إلى جنده الذين وهنت عزيمتهم، وضعفت قواهم بعد حروبهم المتواصلة ضد الروم وقبائل البربر، وما لبثت أن تطورت الأمور بعد ذلك في غير صالح الكاهنة، ذلك لأنها أساءت السيرة في أهلها ، وأعتقدت أن العرب لا يطلبون من هذه البلاد إلا المغانم، فقامت بتخريب الطريق الذي يسلكه العرب حتى لا يبقى لهم مطمع في إفريقية وينصرفوا عنها ، فأمرت بقطع الأشجار وتغوير الأبار وتهديم القرى واحراق الزروع، وقد أخطأت الكاهنة في سياستها إذ انفض من حولها كثير من حلفائها ، ووصل الأمر إلى حد استنجاد أحد أتباعها بحسان بن النعمان.

لما وصلت إلى حسان بن النعمان الإمدادت سنة ٧٩هـ/٦٩٨م، نهض لانقاذ المسلمين في افريقية، " وكان مع حسان جماعة من البربر البتر، فولى عليهم

---

(1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٨ وراجع : E.Mercier: histoire de l'afrique septentrionale. Paris 1888. v.i pp. 214-216

(2) ابن الأثير: الكامل، حـ٤ ،ص٣٠١.

أحد أبناء الكاهنة وقريه»[1]، وكان اللقاء الحاسم بين الطرفين وسط جبال الأوراس سنة ٨٠هـ/٦٩٩م ، واستطاع حسان بعد قتال مرير حتى ظن الناس أنه الفناء، أن يوقع الهزيمة بالبربر، ويقضي على الكاهنة ويقتلها في موضع يعرف ببئر الكاهنة، وتذكر المصادر أنها كانت قد تنبأت بمصيرها، وأنها نصحت ولديها بأخذ الأمان والدخول في طاعة المسلمين، وأنهما فعلا ذلك، فأمنهما حسان وولي كل منهما على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة[2] ، وبذلك انكسرت شوكة المقاومة البربرية لاسيما وأن حسان نهج سياسة أبي المهاجر في التقرب من البربر والتسامح.

انتهز الروم فرصة انشغال حسان في معركة مع الكاهنة، وعادوا إلى قرطاجنة، ولم يتعجل حسان العودة إليهم، بل تركهم حتى انتهى من أمر الكاهنة، وعاد إليها يسانده أسطول إسلامي قدم من الشام ومصر ، واستولى على قرطاجنة وخربها تمامًا، وقطع عنها القناة التي كانت تمدها بالماء، وفرت بقايا الروم إلى صقلية وجزر البحر، ولم ير الروم بعد ذلك قرطاجنة أبدًا، إذ كان القضاء عليهم في هذه المرة تاماً ونهائيًا، وبذلك تم تحرير افريقية والمغرب وتخليصه من جور الروم وظلمهم.

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٩، الرقيق القيرواني: تاريخ أفريقية والمغرب، ص٤٧، ٤٨.

(2) ابن الأثير: الكامل، حـ٤، ص٣٠٥ ، ابن عذاري: البيان: حـ١، ص٣٩.

سياسة حسان وتنظيم ولاية إفريقية

لم يكن حسان بن النعمان قائدًا عسكريًا قضى علي الروم والبربر فحسب، وإنما كان له دور حضاري لا يقل أهمية عن الفتح، فقد اهتم حسان بتعمير القيروان ومسجدها الجامع يقول ابن عبد الحكم[١]: «... فنزل موضع القيروان إفريقية اليوم، وبنى مسجد جماعتها، ودون الدواوين ووضع الخراج على عجم إفريقية، وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر، وعامتهم من البرانس إلا قليلا من البتر..»، ونظم إدارتها، وجعلها مركزًا قويًا للوجود الإسلامي في المغرب، كما اعتنى بتنظيم الإدارة المالية والجيش، وتعريب الدواوين، ونظم الضرائب والخراج، وكذلك أدخل العنصر البربري في الجيش الإسلامي، وساوى حسان بينهم في العطاء والمعاملة فأحبه البربر، وأخلصوا للدولة، وصاروا النواة الأولى لفتح الإندلس، كما أهتم بتعليم الجنود المغاربة أصول الدين الإسلامي،وارسل الفقهاء الي سائر أنحاء البلاد لتعليمهم قواعد الدين الاسلامي،ونشر اللغة العربية لغة القرآن، مما نتج عنه انتشار الدين الإسلامي واللغة العربية والتقاليد العربية بينهم.

فكر حسان في بناء مدينة إسلامية جديدة تحل محل مدينة قرطاجنة التليدة التي طاولت في شهرتها كبريات مدن العالم القديم على البحر المتوسط، فبنى مدينة تونس سنة ٨٤هـ/٧٠٣م، لتكون مركزًا للمسلمين ضد غارات الروم، وكانت القاعدة في إنشاء تلك المدن الإسلامية الأولى التي تسمى الأمصار هي البدء ببناء المسجد الجامع، وفي مواجهة المسجد أنشأ حسان دار الإمارة، ودارًا

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٢٩.

لصناعة السفن، وعددًا من الأسواق، ثم نظر في موضوع التنظيم الإداري والمالي فأقام العمال على النواحي المختلفة، واختارهم من ذوي الحزم والدين والاخلاص.

لم يكتف حسان بذلك، بل عمل على إنشاء الأسطول الإسلامي في المغرب، ليحمي به السواحل المغربية، ويغزو به جزر البحر المتوسط، وساهمت مصر في هذا العمل العظيم، فأرسل واليها ألف أسرة من قبط مصر من العارفين ببناء السفن، ليبنوا أسطولاً إسلاميًا مغربياً يحمي الشواطئ المغربية(١)، ويفتح بذلك صفحة مشرقة للبحرية الإسلامية عندما تسود الحوض الغربي للبحر المتوسط، حتى يصبح هذا البحر بحيرة إسلامية ليس للروم عليه سلطان، كما ضرب حسان بن النعمان السكة باسم عبد الملك بن مروان، واحتفظ بدار الضرب الموجودة في قرطاجنة، واتخذ للنقود شعارًا إسلاميًا يتناسب مع دخول قرطاجنة وتحويلها إلى مدينة إسلامية، فقد استعاض عن الصليب شعار قرطاجنة قبل الفتح بعبارات إسلامية(٢)، وكان رسم الدينار الذي ضربه حسان كالآتي:

في الوجه الأول كتب عليه: **IN NOMINE MISERICORDIS UNIUS**

ترجمتها: بسم الله الرحمن الاله الأحد

وفي الوجه الثاني **UN US DEUS NISI SOINIS ALIS SIMILIS**

وتعريبها: وحده لاشريك ولا مثيل له **FERITI IN AFRICA IN DICTIONE III**

ضرب بافريقية في العشرة الثالثة ، يقابل ٨٥هـ(٣)

---

(1) البكري المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص٣٨.

(2) نفس المصدر، ص٣٨.

3 عبدالعزيز الثعالبي: تاريخ شمال افريقيا ،ص٨٢ ،وراجع:

M.H. Sauvaire: Materiaux pour l'Histoire de la Numismatique et de la Metrologie Musulmane,Journal Asiatique ,1879,p.466

وهكذا عمل حسان بن النعمان على تأكيد مبدأ التكامل بين منطقة الساحل ومنطقة الداخل من خلال مكافأة الذين قدموا إليه يد العون في استكمال فتح إفريقية، فيروي لنا المالكي[1] " أن حسان بن النعمان بعد انتصاره على الكاهنة كان «يقسم الفيء بينهم، والأرض، وحسنت طاعتهم فدانت له إفريقية، ودون الدواوين". ،واستطاع أن يحول افريقية الي ولاية اسلامية قلبا وقالبا.

وليس من سبيل المبالغة إذا قلنا أن حسان بن النعمان يعتبر بحق من أكابر بناة الدولة الإسلامية، فهذا التنظيم الإداري والمالي، الذي وضعه لإفريقية، حوَّل هذه الولاية الجديدة إلى قاعدة إسلامية ينطلق منها المسلمون إلى ما يليها غربًا، ثم أن ميناء تونس فتح أبواب إفريقية من جديد لتستعيد مركزها القديم في البحر المتوسط.

ظل حسان في منصبه حتى توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، فخلفه ابنه الوليد، الذي ولى عمه عبد العزيز بن مروان على مصر، فعزل حسانًا عن ولاية إفريقية، واختار لها بدلا منه موسى بن نصير.

وتختلف المصادر فيما بينها اختلافًا بيّناً حول أسباب عزل حسان، وتاريخ هذا العزل، فتعزى بعضها السبب إلى النزاع الذي كان يدور على السلطة بين الخليفة عبد الملك بن مروان، وشقيقه عبد العزيز بن مروان والي مصر، وأن الأخير قد عزل حسان حيث كان المغرب تابعًا لمصر، وأرد أن يولي مكانه أحد أتباعه، أو أن السبب يعود إلى النزاع بين عبد العزيز بن مروان وحسان نفسه[2]

بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أن حسان عندما وصل إلى الشام كان الوليد بن عبد الملك قد ولّي الخلافة خلفا لوالده في المحرم سنة ٨٦ هـ/٧٠٥م،

---

(1) المالكي: رياض النفوس،ج١،ص٣٦

(2) المالكي: رياض النفوس، ص٣٦

وأن الخليفة الجديد قد استعظم ما قدم حسان من الأموال والنفائس، ويفهم من تلك النصوص أن خلافاً قد حدث حول تقديم الغنائم والأموال، فنجد حسان يقول للوليد: «إنما خرجت مجاهدًا في سبيل الله، وليس مثلي يخون الله والخليفة، ثم أقسم قائلاً: « والله لا أولي لبني أمية أبدًا»[1].

ومهما يكن من أمر فقد كان حسان إذا ذاك شيخًا طاعنًا في السن، ولم يكن يعنيه كثيرًا أن يدخل في مناقشات تفسد الأمر بينه وبين بني أمية، وهكذا عاد إلى قومه في الشام، وتصمت المصادر ولم نعد نسمع عنه شيئا بعد ذلك رغم العمل الكبير الذي قام به كما أسلفنا.

لما عزل حسان بن النعمان تولي على إفريقية أبو عبد الرحمن موسى بن نصير سنة ٨٦هـ/٧٠٥ م، بأمر عبد العزيز بن مروان، وكان المغرب قد فتح معظمه عند قدوم موسى إلى إفريقية، ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى، وقد ركز جهوده صوب هدف محدد هو القضاء على جيوب المقاومة البيزنطية ، وقطع كل أمل لهم في العودة إلى الساحل، وإخضاع بعض العناصر البربرية التي تسول لهم نفوسهم الخروج على النظام الإسلامي وقد أوضح موسى بن نصير سياسته التي سيتبعها في جهاده بقوله:«إن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدد الأقصى، ويترك عدد منه أدنى، ينتهز منه الفرصة ويدل منه على العودة ويكون عونًا عليه عند النكبة، وأيم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة، حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها، أو يحكم الله وهو خير الحاكمين».

وطبقا لهذه السياسية سار موسى إلى طنجة، ولم يكن المسلمون قد غزوها فافتتحها، وعهد بها إلى مولاه طارق بن زياد، ولم يستعص على موسى إلا إقليم

---

(1) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٣١، ابن عذاري: البيان، حـ١، ص٤١ -٤٢.

سبتة (**Ceuta**) لمناعته وحصانته ، وسهوله وصول الإمدادات إليه عن طريق البحر، وكان موسي يرنو ببصره لفتح تلك المدينة الحصينة التي كان يحكمها الكونت يوليان أو «جوليان» من قبل الروم، وقد صادق هذا القائد المسلمين، وظفر بمسالمتهم له، وبقى في إقليمه متمتعًا بحسن جوارهم.

وفي سنة ٩٢هـ/٧١٠م بعث موسى بطلائع جيشه إلى السوس الأدنى، يقول البلاذري[1]: «فوطئهم وسباهم، وأدوا إليه الطاعة، وولي عليهم واليًا من قبله، واكتفى ببسط سيطرته على المدن تاركًا للجماعات والقبائل المحلية استقلالها وسلطة أمرائها، لهذا ظلت سلطة العرب تمارس بعيدًا عن المناطق الداخلية، وخصوصًا منها جنوب المغرب والصحراء[2]، وعلى الرغم من سهولة فتح المغرب الأقصى، كما تجمع على ذلك المصادر التاريخية، فإن موسى بن نصير «استعمل على طنجة وبلادها مولاه طارق بن زياد..، ورجع إلى القيروان، قصبة المغرب ودار ملكها»[3]، وعودة موسى بن نصير إلي إفريقية تتماشى في حقيقة الأمر، والاستراتيجية المتبعة من قبل الولاة المسلمين منذ بدايات الفتح، كما أمر موسى العرب في جند طارق أن يعلموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم في الدين[4].

عمل موسى بن نصير على إرضاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق والوالي في مصر، بإرسال السبايا والغنائم من أهل تلك البلاد، فقد ارتبطت ولايته بوعد منه لمولاه بغنائم وافرة وأموال، وقد وفى بوعده، حتى أن السبايا والغنائم التي أرسلها بلغت مبلغًا كبيرًا أثار ثائرة أهل البلاد على من

(1) البلاذري: فتوح البلدانن ص٣٢٢ -٣٢٣، السلاوي: الاستقصا، حـ١ ، ص١٩٦.

(2) حسن خضيري: أهم مراكزتجارة الصحراء المغربية، ص٢.

(3) النويري: تاريخ المغرب ، ص٢٠٠ ، ابن عذاري: البيان، حـ١، ص٤٠.

(4) ابن عذاري: البيان، حـ١، ص٤٢.

جاء بعده وسار على نهجه، فابن عذارى[١] يقول: «بأنه لم يسمع قط مثل سبايا موسى بن نصير في الإسلام» هذا وأن بالغت النصوص العربية في الأرقام، فأنها تمدنا بتقديرات تقريبية لحجم هذه السبايا، ففي حديث ابن قتيبة عن عدد موالي موسى بن نصير، يقول أن يزيد سأل موسى عن عدد مواليه «فقال كثيرًا، فقال: يكونون ألفاً؟ قال موسى نعم وألفا وألفا حتى ينقطع النفس.. قال له يزيدًا: أنك لعلي مثل ما وضعت وتعطي بيدك؟ ألا أقمت بدار عزك موضع سلطانك، وبعثت بما قدمت به»[٢].

على أن هذه السياسة سببت بعد ذلك أضرار كثيرة للدولة الإسلامية، فقد أدت إلى كمون عوامل الحقد والكراهية في نفوس البربر، الأمر الذي أدى إلى قيام حواجز نفسية فاصلة بين العرب والبربر، وإلى انحراف الكثير منهم إلى مذاهب مناوئة لعاصمة الخلافة، فانخرطوا في مذاهب الخوارج والشيعة.

وإذا كان الفضل في فتح الأندلس ينسب إلى طارق بن زياد، فيجدر بنا إلا نتجاهل أو ننسى دور موسى بن نصير في توسيع نشاطه البحري، فقد بنى أسطولاً قويًا للدفاع عن السواحل المغربية، الذي لولاه ما كان من الممكن فتح الأندلس، ولما تمكن العرب من إرسال غارات بعيدة إلى صقلية وسردانية، وجزر ميورقة ومنورقة (البليار)، هذا فضلا عن اهتمامه بعمران مدينة تونس، وتوسيع دار الصناعة بها.

وهكذا تم اكتمال فتح بلاد المغرب على يد موسى بن نصير في خلافة الوليد بن عبد الملك، وهي فترة طويلة تصل إلى سبعين سنة ونيف، وليس من سبيل المبالغة إذا قلنا أن الفتح الإسلامي للمغرب، يعتبر عصرا قائمًا بذاته من

---

(1) ابن عذاري: البيان، حـ١، ص٤٣.

(2) ابن قتيبة: الأمامة والسياسة، ص٧٠ ، وراجع أيضًا: المالكي: رياض النفوس، حـ١، ص٨١، البكري: المغرب، ص١٠٩ -١١٣، وكذلك: حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص٥١.

عصور تاريخ المغرب، وهي مدة طويلة إذا قارناها بالفتوحات الإسلامية الأخرى في البلاد المختلفة، فقد أجتاح المسلمون العراق والشام ومصر في مدة لا تزيد عن العشر سنوات.

ولا شك أن الصعوبات في فتح المغرب تعود إلى مناعة البلاد وطبيعتها الجبلية، ومسالكها الوعرة التي هيأت للبربر فرصًا أكبر للإيقاع ببعض الحملات العربية، هذا فضلا عن أن البربر كان محاربين أشداء، وتحالف الروم معهم في فترات كثيرة ضد الجيوش العربية، وإذا أضفنا إلى ذلك بعض العوامل التي تتعلق بالعرب الفاتحين مثل:

١ - نقص الخبرات والمعلومات عند العرب عن بلاد المغرب، وإذا كان العرب قد ارتدوا عن هذه البلاد اثنتى عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، فإن معظم الحملات كانت تقوم بدور الاستطلاع للاقليم، واختبار قوته، ودراسه تكوينه السكاني.

٢ - تعرض الجبهة الإسلامية لفتن داخلية صرفتها عن تكثيف جهودها في فتح إفريقية مثل الفتنة الكبرى في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وخروج معاوية بن أبي سفيان على عليّ بن أبي طالب، وثورة الخوارج عليه التي انتهت بمقتله سنة ٤٠هـ/٦٦٠م، ثم ثورة عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ/٦٩٢م في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

٣ - كانت مصر هي القاعدة التي تشرف على الفتح وتموله، وكان والي مصر يشرف، على الفتح ويتابع تحركات الجيوش، وكثيرًا ما اختلفت وجهات النظر بين القادة بعضهم وبعض، وبين القادة في المغرب والولاة في مصر، الأمر الذي أدى الي تعثر الفتح في فترات طويلة.

لعل تلك العوامل مجتمعة شكلت الصعوبات التي واجهت الفتح الإسلامي للمغرب وأطالت من أمده.

ويجدر بنا قبل أن نترك نهاية أحداث الفتح الإسلامي للمغرب، الإشارة إلى أن الفتح الإسلامي في المغرب أحدث انقلابًا دينيًا وسياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا، وأوجد تغييرا شاملاً في كل مناحي الحياة في المجتمع المغربي، فقد دخل البربر في الإسلام وحسن اسلامهم، وتعلموا اللغة العربية، لغة الدين الجديد، ودارت المغرب في فلك الإسلام يبث فيها من حضارته ما أثر في كيانها تأثيرا قويًا تناول شتى نواحي الحياة، فلقد فتح المسلون المغرب، وقلوبهم يضيئها الدين الجديد، ويدفعهم الإيمان به إلى نشره واعلاء كلمته، ويحملون معهم تراثًا حضاريًا لا يبلغ شأوه ما عرفته المغرب طوال تاريخها الطويل.



- تبعية بلاد المغرب لدولة الخلافة الإسلامية.
- الصراع بين العرب والبربر في بلاد المغرب في العصر الأموي.
- الفهريون بنو عقبة بن نافع.
- الخوارج في بلاد المغرب في العصر الأموي
- المهالبة في المغرب.

المغرب الإسلامي في عصر الولاة

يطلق عصر الولاة في التاريخ الإسلامي على الفترة الواقعة بين تمام الفتح الإسلامي لأي أقليم، وقيام أول دولة مستقلة فيه، حتى لو كان الاستقلال اسميا تعترف فيه الدولة المستقلة بالتبعية لدولة الخلافة،و من الجدير بالذكر أن عصر الولاة في بلاد المغرب بدأ بعد تمام الفتح الإسلامي للمغرب على يد الفاتح الكبير موسى بن نصير، وعودته إلى المشرق بناءً على استدعاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٩٥هـ/٧١٤م، وبالنسبة لأقطار المغرب جميعها، فإن نهايته ليست واحدة في هذه الأقطار، فتختلف من قطر إلى آخر، فقد بدأت نهايته في المغرب الأوسط بقيام الدولة الرستمية الأباضية في تاهرت سنة ١٦٤هـ/٧٨١م، وفي المغرب الأقصى بقيام دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م، وفي إفريقية بقيام دولة بني الأغلب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م.

ويبدو أن السبب الرئيسي وراء هذا الاختلاف في نهايات عصر الولاة، يرجع إلى امتداد بلاد المغرب امتدادًا واسعًا من تخوم مصر إلى البحر المحيط، فكان من الصعب أن تنتظمه حركة سياسية واحدة، هذا فضلا عن جغرافية بلاد المغرب المتباينة، وما يضمه من مجموعات بشرية متباينة ايضًا، وعلى الرغم من أن عصر الولاة في بلاد المغرب لم يكن طويلاً، ولم يطل كثيرا عن عصر الفتح إلا أنه كان مفعمًا بالأحداث الهامة والخطيرة التي أثرت في مصير المغرب، وشكلت بدورها تاريخه فيما تلا ذلك من عصور، فقد تواءدت جماعات من العرب خلال مراحل الفتح على المغرب، واستقرت وصاهرت البربر، وبدأ يظهر جيل بربري مسلم مستعرب، ، شعر بأن له شخصية مستقلة، وخصوصية وسمات تجعله يختلف عن العرب، تدعمت هذه السمات مع الإسلام والتعريب، وبات يفكر هذا الجيل في أن يكون له نصيب في إدارة بلاده

والسيطرة على مقدرات أمورها، وأعان على هذه النزعة بعد بلاد المغرب عن حاضرة الخلافة الاموية في بلاد الشام، مما جعل تسيير الجيوش اليها من قبل الخلافة عملية شاقة وعسيرة، إلى جانب ذلك تولى المغرب بعض الولاة الذين لم يراعوا تعاليم الإسلام، وروحه على نحو دقيق، وانتهجوا سياسات خاطئة في التعامل مع مواطنيهم المسلمين من البربر، وثبتوا الجزية في بعض الأحيان على من أسلم من البربر، ومن هنا فقد تحكمت في المغرب عدة تيارات مذهبية وسياسية واجتماعية وفكرية، ووجد البربر ضالتهم المنشودة في أحزاب المعارضة المناهضة لدولة الخلافة ، وبخاصة الخوارج الصفرية والإباضية. وهكذا شارك الولاة في صنع هذه الأحداث وعايشوها، وعانوا منها وذهب بعضهم ضحية للسياسات الخاطئة التي قام بها، ويمكن إجمال تلك التيارات في الأمور التالية:

١ - ثورات البربر في عصر الولاة.

٢ - الفهريون بنو عقبة بن نافع.

٣ - نجاح الخوارج والشيعة في بلاد المغرب في العصر الأموي.

٤ - المهالبة في المغرب

ثورات البربر في عصر الولاة:

كان الإسلام بما يتضمنه من مبادئ جليلة سامية تدعو إلى المساواة بين المسلمين جميعهم، لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، هو السبب في أن صار البربر في معظمهم مسلمين، وكان هو السبب الأول في ثورتهم على العرب المسلمين في عصر الولاة، فقد كان العرب بحكم أنهم الذين نهضوا بتبعات تبليغ الرسالة، يشعرون بقدر من التمايز بينهم وبين أهالي البلاد المفتوحة، هذا

فضلا أن بعض الولاة، الذين تولوا المغرب بعد موسى بن نصير ثمانية ولاة، واصل الأولون منهم عملية الفتح ونشر تعاليم الإسلام لاسيما محمد بن يزيد القرشي، وأسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر، اللذان عاملا البربر أحسن معاملة، وعملا على نشر الإسلام بين البربر،ثم هناك بعض الولاة ثبتوا الجزية في بعض الأحيان علي البربر، ونذكر من هؤلاء الولاة يزيد بن أبي مسلم الذي عُيّن واليًا على المغرب سنة ١٠٢هـ/٧٠٢م، واشتط في معاملة البربر، يقول ابن عبد الحكم[١]: « فوشم أيديهم وجعلهم أخماسًا، وأحصى أموالهم وأولادهم»، مما حدا بالبربر أن يثوروا عليه ويقتلوه بعد شهور قليلة من ولايته، وقدموا على أنفسهم واليًا آخراً هو محمد بن أوس الأنصاري[٢].

على أن الثورة الحقيقية ما لبث أن اندلعت في شمال المغرب الأقصى في سنة ١١٦هـ/٧٤٣م عندما تقلد عبيد الله بن الحبحاب ولاية المغرب والأندلس، ونظرا لجسامة المسئولية فضل أن يفوض السلطة إلى نواب عنه، فاستعمل على طنجة عمر بن عبيد الله المرادي، الذي أساء السيرة وتعسف في الجباية، وأراد تخميس البربر بزعم أنهم فيء للمسلمين[٣]، مما أثار غضبهم، وإزاء ذلك بعثوا بصريخهم الي الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ -١٢٥هـ/٧٢٤ -٧٤٣م)، يشكون ابن الحبحاب وعماله، بيد أنهم لم يجدوا آذانًا صاغية من الخلافة، فاضطروا الي إرسال وفد مغربي على دمشق على رأسه أحد زعمائهم يدعى ميسرة المطغري الزناتي، ويلقب بالحقير أو الفقير لبسط شكواهم أمام الخليفة هشام بن عبد الملك، وإن كانوا لم يتمكنوا من الدخول عليه ، ولا تذكر المصادر ان كانت تلك الشكوى وهذه المطالب قد وصلت إلى مسامع

1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٤٢، وراجع: عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال أفريقيا، ص١٢٠ -١٢١.

(2) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٤٢ -٢٤٣.

(3) عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، حـ١، ص١٤٤، وراجع: حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص٦٣.

الخليفة، أم أن رجاله قد حجبوها عنه، بيد أن هذه المصادر تفصل في الحديث عن مطالب أهل المغرب التي حملها الوفد، حيث تذكر «أن الوفد بعد وصوله إلى دمشق، حاول جاهدًا لقاء الخليفة، فطلبوا الاذن فصعب عليهم، فأتوا الأبرش (وزير هشام بن عبد الملك)، فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب نفلهم دوننا، وقال هم أحق به، فقلنا: هو أخلص لجهادنا، وإذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم لأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك، ثم أنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا لم نجد هذا في كتاب ولا سنة...، أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟ قال الأبرش: نفعل، فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم، كتبوا اسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء وقالوا: هذه اسماؤنا وأنسابنا، فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه، ثم كان وجههم الي إفريقية، فخرجوا على عامل هشام فقتلوه، واستولوا على إفريقية، وبلغ هشام الخبر، فسأل عن النفر، فرفعت إليه أسماؤهم، فإذا هم الذين صنعوا ما صنعوا[١].

هكذا طرق الوفد المغربي أبواب الخلافة الأموية في دمشق بيد أنه لم يجد آذانًا صاغية مما وطن عزمهم على إشعال الثورة على العرب في المغرب، واستطاعوا أن يضموا إليهم قبائل غمارة ومكناسة وبرغواطة، هذا فضلاً عن جموع العرب المغاضبين للدولة، الذين وجدوا في هذه الثورة ضالتهم المنشودة، واستطاع ميسرة أن يهزم جيوش الأمويين في معركة حاسمة بأحواز طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م، وأن يبسط نفوذه على المغرب الاقصى[٢]، ويبدو أن هذا النصر الذي أحرزه ميسرة قد دفعه إلى الغزو والتجبر، فأدعى الخلافة وأساء السيرة

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب في تاريخ المغرب، حـ١، ص٥٢.

(2) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٧.

في جماعته فقتلوه، وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتي الذي أعاد الكرة على جيوش المسلمين، فتغلب عليهم في مكان على مقربة من طنجة سنة ١٢٣هـ/٧٤١م، واسفرت هذه المعركة عن مقتل قائد الجيش العربي، ومن معه من فرسان العرب واشرافهم، فأطلق على تلك المعركة اسم «غزوة الأشراف» لكثرة من قتل فيها من أشراف العرب[١]، ونتج عن تلك الهزيمة اضطراب الأحوال في المغرب أمام ابن الحبحاب «فاجتمع الناس عليه وعزلوه».

لم تقف الخلافة الأموية مكتوفة الأيدي أمام الكارثة التي لحقت بالعرب في المغرب، فما أن وصلت الأنباء إلى مسامع الخليفة هشام بن عبد الملك في دمشق حتى قال: «والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن إليهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندي، ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسى أو يمنى»[٢].

ثم أرسل يستدعي عبيد الله بن الحجاب الذي غادر المغرب سنة ١٢٣هـ/٧٤١م، ثم أرسل الخليفة جيشًا بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، بلغت عدته إثنا عشر ألفاً من أهل الشام انضم إليه ثلاثة آلاف من مصر، وثلاثة آلاف من جند طرابلس،وعندما وصل هذا الجيش الشامي الي المغرب، لم يلق ترحيبا من العرب الحجازيين (البلديين)، الذين استقروا هناك منذ أيام الفتح الاسلامي، والسبب في ذلك يرجع الي أن عرب الحجاز ،كانوا ناقمين علي بني أمية ،وأنصارهم عرب الشام لأنهم استباحو بلادهم ،وقتلوا منهم خلقا كثيرا في وقعة الحرة ايام ثورة عبدالله بن الزبير سنة ٦٣هـ/٦٨٢م، والتقى الجيش العربي بثوار البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي في وادي سبو جنوبي طنجة عند بلدة بقدورة، ورغم ضخامة الجيش العربي، إلا أنه مني بهزيمة

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٤٦،

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٥، ص١٤٢، عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا، ص١٣٩.

ساحقة سنة ١٢٤هـ/٧٤١م، أسفرت عن مصرع كلثوم بن عياض وعدد هائل من وجوه العرب، وفر من نجا من العرب مدحورًا إلى إفريقية، وتتبعهم البربر يقتلونهم ويأسرونهم[1]، .ويبدو أن من بين أسباب هزيمة الجيش الشامي تخلي العرب الحجازيون عن اخوانهم جند الشام ، مما أضعف من قوة الجيش ، لهذا لاغرابة في ان ينهزم هذا الجيش الضخم ويقتل قائده كلثوم بن عياض ،وفر ابن أخيه بلج بن بشر وتحصن ومعه عشرة آلاف فارس في سبتة ، فحاصره البربرحتي نقصت ميرتهم ، وساءت أحوال جنده ، ولم ينقذهم الا العبور الي الأندلس باتفاق مع واليها عبد الملك بن قطن الفهري ،الذي رفض في باديء الأمر السماح لهم بالعبور.

ولعل من أهم النتائج لمعركة بقدورة انفصال المغرب الأقصى والأوسط عن سلطان القيروان، وأضحت القيروان محاصرة من كل وجه.

ووصلت الأنباء إلى دمشق، وحزن لهاالخليفة هشام بن عبد الملك حزنًا شديدًا، واقسم مرة أخرى قائلاً: «لئن بقى ليخرجون إليهم مائة الف كلهم يأخذ العطاء ثم لتخرجن مائة ألف، حتى إذا لم يبق غير نفسه وغير بنيه، اقرع بينه وبينهم، ثم أخرج نفسه إن وقعت عليه القرعة، فأمر عامله على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي أن يسير إلى المغرب، ويقوم بولايتها سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م، وخرج حنظلة واستقر في القيروان[2].

توجه حنظله بعد أن اتحد مع أهل القيروان للقاء البربر بموضع يبعد أربعين ميلاً غربي القيروان يدعى بالأصنام، وتمكن العرب في أواخر سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م من هزيمة البربر الذين كان يقودهم عبد الواحد بن يزيد

---

(1) ابن عذاري: البيان،ج١،ص٥٦،ابن عبد الحكم:فتوح المغرب،ص٢٤٧، ٢٤٨.

(2) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص٢٤٩ -٢٥٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٥، ص١٤٣.

الهواري، وعاودوا هزيمتهم مرة أخرى، بموضع يدعى بالقرن، وكان يقودهم عكاشة بن أيوب الزناتي.

وتعد واقعتا الأصنام والقرن من الوقائع الفاصلة في تاريخ المغرب، ولعل أصدق دليل على أهمية هذه المعارك يتجلى من قول ابن عذاري[1] ، نقلا عن الليث بن سعد -قاضي مصر - (ت١٧٥هـ): «ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام»، ووصلت أنباء هذه الانتصارات إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، وهو على فراش المرض يلفظ أنفاسه الأخيرة في سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م، وهكذا قدر له أن يستمع إلى تلك الأخبار قبل رحيله إلى العالم الأخر.

وصفوة القول أن هذه السياسة التي انتهجها عمال بني أمية بالمغرب كانت من أشأم ما أخرجه المروانيون من النتائج، ولا شك أنها كانت اجتهادًا خاطئًا، والغريب أنهم كانوا يعلمون أن من ورائهم أحزاب الشيعة والخوارج، لا يلقون من أعمالهم صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، ولهم دعاة هدامون يمشون بآرائهم في البلدان، تحت ستار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأي شيء في إثارة الحفائظ على المروانيين من إنكار حق الناس في المساواة؟ فقد كانت الدعاية بذلك بمثابة النار تلقي في الهشيم، فقد عجلت بتقويض الدولة الأموية من الأساس وهي في شرخ الشباب والقوة، وألوت عنها القلوب في فارس وبلاد الترك والبربر.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، حـ١، ص٦٤، وانظر كذلك: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٥، ص١٤٥.

الفهريون بنو عقبة بن نافع :

أفرزت الفتنة المغربية في عصر الولاة ثلاث قوى حاولت كل منها السيطرة على بلاد المغرب، وهي قوة العرب البلديين الذين اعتبروا أنفسهم من اهل البلد، فهم جيل الفتح وأولادهم، وهم الذين قاموا بالعبء الرئيسي في فتوح المغرب، وكانوا بالدرجة الأولى يمانية، أي أنهم كانوا دون القيسية مكانة ومدنية، وأما الثانية فهي قوة العرب الشاميين الذين قدموا في الحملات التي أرسلتها الخلافة الأموية إلى المغرب بعد الفتح، وبخاصة إبان الفتنة البربرية، وكانوا في معظمهم قيسية، ومن المعروف أن مركز الصدارة كان للقيسية، أما القوة الثالثة فهي قوة البربر، وهم أهل البلاد الأصليين الذين ثاروا على الحكم العربي طلبًا للمساواة، والمشاركة في حكم بلادهم.

لما انتصر العرب على البربر تطلع العرب البلدية منهم إلى السيادة، لطول عهدهم بالمقام في بلاد المغرب وهم لم يقصروا نشاطهم على المجال العسكري، كما كانت حال الشامية، وانما تطرقوا الي مجالات أخرى، وخالطوا أهل البلاد، وأعانهم على ذلك ما جرى من اضطراب الحكومة الأموية في أواخر عهدها،هذا فضلا أن الحكومة الأموية كانت تقف مع الشاميين تؤيدهم وتعضد أزرهم، وكان من أبرز رجالات العرب البلديين في هذه المرحلة عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، وكان لعبد الرحمن هذا طموحات سياسية واسعة، فقد شارك في محاربة البربر والخوارج، ثم عرج على الأندلس بعد هزيمة موقعة بقدورة، وكان له فيها نشاطه السياسي، بيد أنه عاد إلى إفريقية سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م، وأخذ في العام التالي يدعوإلى نفسه، فأجابه الكثير فأوشك الصدام أن يقع بين عبد الرحمن بن حبيب ممثل العرب البلديين، وحنظلة بن صفوان والي المغرب،

وممثل العرب الشاميين، حيث حاصر عبد الرحمن حنظلة بن صفوان بالقيروان في سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م، وازاء ذلك لم يجد حنظلة إلا أن يحقن دماء المسلمين، وألا يريق الدماء العربية في حرب بين بعضهم وبعض، فغادر إفريقية وعاد أدراجه إلى دمشق تاركا بلاد المغرب البعيدة لعبد الرحمن بن حبيب، ولم يجد الخليفة الأموي مروان بن محمد (١٢٧ -١٣٢هـ/٧٤٤ -٧٤٩م) إلا أن، يقر عبد الرحمن في ولايته، وكذا فعل الخليفة أبو العباس السفاح(١٣٢ -١٣٦هـ/٧٤٩ -٧٥٤م)،ومن بعده أخوه المنصور (١٣٦ -١٥٨هـ/ ٧٥٤ -٧٧٥م).

وهكذا كانت الظروف مواتية لعبد الرحمن بن حبيب في أول ولايته ، فالدولة الأموية كانت دخلت طورًا من الضعف، وفي سبيلها إلى لفظ أنفاسها الأخيرة، أما على الصعيد الداخلي فقد كانت القوى المحلية منهكة من طول الصراع، ولم يكن بمقدور البربر القيام بثورة جديدة لذلك تمكن عبد الرحمن بن حبيب من اخماد بعض انتفاضاتهم هنا أو هناك، ولم يهزم له جيش مدة ولايته رغم ضعف قوته، مما يدل على ضعف القوى المحلية وعجزها عن التمرد، وما لبثت أن سقطت الدولة الأموية، وقامت على أشلائها الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م،وأعلن عبد الرحمن بن حبيب الولاء للعباسيين، وانضوى تحت رايتهم، وأرسل إلى أبي جعفر المنصور بولائه والتزامه بالطاعة، والدعوة له على منابر المغرب، ولكنه لم يكن على استعداد لإرسال جباية إلى بغداد، وإنما كتب إلى المنصور أن إفريقية صارت كلها دار إسلام، وقد انقطع السبي والجزية فلا تطلب مني شيئًا من ذلك[1]فغضب عليه المنصور وتوعده، فأقدم عبد الرحمن بن حبيب على خلع طاعة أبي جعفر المنصور، وأعلن استقلاله عن العباسيين.

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، حـ١،ص٧٦.

وعلى الرغم من محاولة عبد الرحمن هذه التي لم يكتب لها النجاح إلا أنها تمثل في الوقت نفسه أول محاولة استقلالية في بلاد المغرب، ونظراً لأن عبد الرحمن أضحى وجوده غير شرعي في نظر كثير من رعاياه، هذا فضلا عن الخلافات المبكرة بين آل حبيب مع بعضهم البعض وتقاتلهم على السلطة، فقد تنكر عبد الرحمن للجهود التي بذلها أخواه إلياس وعبد الوارث، وزعم أن الانتصارات التي حققتها هذه الأمارة كانت من عمل إبنه حبيب، وما لبث أن قتل عبد الرحمن على يد أخيه إلياس سنة ١٣٧هـ/٧٥٥م، وولّي مكانه وأعلن الطاعة للمنصور العباسي(١)، بيد أن الأمور لم تستقر لإلياس، حيث ثار حبيب ابن عبد الرحمن على عمه وقتله، ثم دارت حرب بينه وبين عمه الآخر عبد الوارث الذي فر إلى قبيلة ورفجومة الصفرية وزعيمها عاصم بن جميل، وقد انتهز هذه الفرصة، من أجل أن يدخل القيروان في سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م، ويطارد حبيبًا في جبال أوراس، ومع أن عاصمًا قتل خلال هذه المطاردة، إلا أن حبيبًا لم يستطع أن يسترد القيروان، وقتل هو الآخر في المحرم سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م(٢)، وبموته انتهت امارة الفهريين.

---

(1) نفس المصدر: حـ١، ص٦٢.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٥، ص٢٣٦.

الخوارج في بلاد المغرب :

لا يمكن النظر إلى فتوح العرب للمغرب منعزلة عن غيرها من فتوح الإسلام التي عاصرتها، فهذه كانت عملية واحدة، لها أصداء بعيدة وتأثيرات متبادلة ومشتركة بين كل البلاد التي فتحها المسلمون، ولذا نجح مذهب الخوارج الذي ظهر في المشرق أن يكون له صداه في بلاد المغرب، ونجحت بعض فرق الخوارج في الوصول إلى إفريقية، وحققت نجاحًا وانتشارًا بين بعض قبائل البربر الذين أقبلوا على تعلم هذا المذهب عندما انطلق الدعاة من الخوارج إلى ارض المغرب بعيدًا عن قبضة الخلافة في المشرق، التي ضيقت عليهم الخناق، وتعقبتهم في كل مكان، وأستأصلت شأفتهم من سائر الأرجاء وأودعت زعمائهم في السجون.

ووجد الدعاة من الخوارج في المغرب أرضًا خصبة ساعدت على انتشار مبادئ هاتين الفرقتين، كماساعد على هذا الانتشار تعسف بعض الولاة وسوء سيرتهم واشتطاطهم في جباية الأموال، وخروجهم على تعاليم الإسلام، واهتمامهم بجمع المال بالطرق غير المشروعة لارضاء عاصمة الخلافة، مما حدا بالبربر أن ينخرطوا في دعوة الخوارج، وتذكر المصادر التاريخية بصفة عامة والأباضية بصفة خاصة أن أول من جاء يطلب مذهب الأباضية.. سلامة بن سعيد، ومعه عكرمه مولي ابن العباس، متعقبين على بعير فسلامة يدعو إلى مذهب الأباضية وعكرمه يدعو إلى مذهب الصفرية[1]، ومهما يكن من امر فسواء أكان هذان الداعيان أول من قاما بنشر المذهب الخوارجي في المغرب أم

---

(1) الدرجيني، أبو العباس احمد بن سعي: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي، الجزائر ١٩٧٤م، حـ١، ص١١، أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر: كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٥، ص٣ -٧.

غيرهما، فالمعروف أن أول ثورة بربرية اعتنقت هذا المذهب كانت في بداية القرن الثاني للإسلام، أي في سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م ، قرابة العشرين سنة بعد دخول هذين الداعيين إلى القيروان.

ويعتقد ابن عذاري أن الاجراءات التي اتخذتها الخلافة الأموية وخاصة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، وواليه عبيد الله بن الحبحاب ضد سكان المنطقة كان لها جل الأثر في إقبال البربر على دعوة الخوارج(١)، بينما يرى أحد الباحثين(٢) أن الخوارج كانوا من زناته، أي أنهم انتشروا بين البدو، وأن البدو هم الذين اعتنقوا هذا المذهب فقد كانوا على حد قوله: «أكثر سكان المنطقة بؤسًا وشقاءً»، وأن الشعارات السياسية التي اعتنقها الخوارج كانت تنسجم في المقام الأول ومبادئ الصحراء، فالمذهب الخارجي لا يتماشى إلا مع المجتمعات ذات التنظيم البدوي، أما المجتمعات المدنية فإنها لا تقبل عليه(٣) بينما يرى دوزي أن المغاربة الذين تبنوا المذهب الخارجي كانوا من سكان الأكواخ الحقيرة، وأن جهلهم وسذاجتهم لم تمكنهم من أن يحذقوا التأمل في المسائل العقائدية، التي يمكن أثباتها من غير بينه أو دليل، وهي أمور تقتصر في العادة على العقول النيرة(٤)، وذهب جوتيه أن ثورات الخوارج في بلاد المغرب كانت ثورات عنصرية، اشعلها البربر ضد العنصر العربي(٥)

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، حـ١، ص٥١ -٥٢.

(2) Gautier, E.F: l islamisation de l'afrque du nord: les siecles bscures du maghreb. Paris 1927, p. 289.

(3) w.m.watt: "the significance of kharigisme under the abbasids" Recueil d' articles offert a georege c. anawiti et louis garget par leuer collegue et a mis- louvin. 1977. p.382.

(4) Dozy R: Recherches sur l'histoire et la litter a ture de l' espagne. A mesterdam, 1963. pp. 127-128.

(5) Guatier. Islamistion de l' afrique. 285.

على أن الآراء السابقة تعوزها الدقة والموضوعية، فلم تكن هذه الثورات عنصرية وإنما كانت شكلاً من أشكال المعارضة السياسية للأمويين وعمالهم، فالدوافع القبلية متحدة مع عامل سوء الإدارة في ظل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تمر بها المنطقة جعلت سكان المغرب أرضًا مهمتها إخصاب الأمال التي تمنحهم السيطرة على مقدرات بلادهم واستقلالهم عن الدولة الأموية.

حاول الخوارج بعد انتصاراتهم المتوالية على جيوش الخلافة أن يقيموا دولاً مستقلة في المنطقة التي انسلخت عن جسم الدولة الأموية، والتي كانت تمتد من نهر ملوية غرباً إلى الزاب شرقًاو قام بالمحاولة الأولى أبوقرة ، أحد كبار فرسانهم في تلمسان التي كانت مركز تجمعهم قبل التوجه إلى ميادين القتال، ومما يجدر ذكره أن اباقرة لعب دورًا سياسيًا وعسكريًا في غاية الأهمية أيام عبد الرحمن بن حبيب ، حيث استطاع أن يوحد كلمة الخوارج، بل معظم السكان في المغرب الأوسط وحتى مشارف طبنة، بيد أن محاولته تأسيس دولة باءت بالفشل بسبب قرب تلمسان من قاعدة إمارة خارجية أخرى وهي تاهرت، وما لبث الخوارج أن أسسوا إمارة ثانية جنوب الأطلس سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م في سجلماسة وهو ما سنعرض له بعد ذلك.

---

(٥)الأزارقة :فرقة متشددة من فرق الخوارج، ورئيسهم نافع بن الأزرق الحنفي.(نشوان الحميري،ابوسعيد(ت٥٧٣هـ/١١٧٧م): الحور العين،تحقيق كمال مصطفى،بيروت١٩٨٥،ص٢٣١ -٢٣٢

المهالبة في المغرب

كانت محاولة الفهريين الاستقلالية إرهاصة بمحاولات شبيهة أخرى، وإذا كان آل حبيب من العرب البلديين، فقد جاءت محاولة أخرى من قبل العرب الوافدين قام بها المهالبة والمهالبة هم آل المهلب بن ابي صفرة الازدي، الذي كان من ألمع رجالات الدولة الأموية، وأشهر من تصدى للخوارج في المشرق، ووضع نهاية للأزارقة، وإذا كان الدور المشهورللمهلب بن أبي صفرة في المشرق مقترنا بحرب الخوارج، فقد قدرلآله في المغرب أن يستكملوا هذا الدور بمحاربة الخوارج في المغرب، فقد وصلت أخبار المغرب إلى الخليفة أبي جعفر المنصور ببغداد، وراعه ما صارت اليه حال البلاد، فوجه عامله علي مصرمحمد ابن الاشعث الخزاعي في جيش كثيف بلغ خمسين ألفافي سنة ١٤٣هـ/٧٦١م، وكان علي قيادة الجيش الأغلب بن سالم بن عقال التميمي ،وقد استطاع هذا الوالي أن يحقق النصر على الأباضية في سنة ١٤٤ هـ/٧٦١م، وقتل زعيمهم أبا الخطاب، وما أن تنامت هذه الأخبار إلى عبد الرحمن بن رستم بالقيروان،الذي عجل بمغادرة المدينة مع أصحابه غربًا ولاذ بالفرار إلى المغرب الأوسط [1] .

على أية حال عادت إفريقية إلى طاعة بني العباس، والأباضية والصفرية بالمغربين الأوسط والأقصى، لم يكن قد تم القضاء عليهم قضاءً تاماً، ولم يشأ ابن الأشعث أن يدخل معهم في صدامات خارج حدود إفريقية، وأكتفى بأن ينهج نهجا دفاعيًا، حتى لا يبدد إمكانياته في حروب لا طائل معها، بيد أنه ما لبث أن عزل في سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م، لاخفاقه في التعامل مع العصبيات

---

(1) ابن الأثير: الكامل ،ج٥،ص٢٤١، ابن عذاري: البيان،ج١،ص٨٣

العربية، وولي المنصور مكانه الأغلب بن سالم التميمي، فسار إلى إفريقية ومعه ابنه إبراهيم، ودخل إفريقية، وأخذ ينظم أمورها، ولكن الخوارج عادوا مرة أخرى يهاجمون إفريقية بزعامة رجل جديد يسمى أبا حاتم، وتمكن أبو حاتم من قتل الأغلب بن سالم في سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م، فلجأ أبنه إبراهيم بمن معه إلى طبنة في إقليم الزاب، وبعد أن استقر أخذ يمهد الأمر لنفسه.[١]

اختار أبو جعفر المنصور لاقرار الأمور في إفريقية بعد مقتل الأغلب رجلاً من آل المهلب هو أبو حفص عمر بن حفص بن قبيصة المهلبي، ووصل إلى القيروان سنة ١٥١هـ/٧٦٨م، فضبط أمورها بفضل شجاعته وحسن سياسته، ويبدو أن الخوارج لم ينسوا ما فعله المهالبة بأسلافهم في المشرق، وخافوا أن يحدث لهم بالمغرب مثل ما حدث لاخوانهم بالمشرق، فاتحد الصفرية والإباضية تحت راية واحدة لمواجهة عمر بن حفص وبالفعل واجه عمر بن حفص موقفاً عصيبًا إذ تألب عليه بالأباضية والصفرية من كل وجه، وحاصر أبو حاتم الاباضية القيروان في سنة ١٥٤م/٧٧١م، وتمكن من دخولها وقتل عمر بن حفص، وبدت بلاد المغرب جميعها، وكأنها صارت خارجية[٢].

لما وصلت أنباء الحصار إلى الخليفة المنصور، أعد جيشًا كبيرًا قوامه ستون ألفاً من أفضل جنود خراسان والعراق والشام، يقوده يزيد بن أبي حاتم المهلبي من أبناء عمومةالوالي القتيل، ولما وصل إلى طرابلس خرج عنها أبو حاتم في مكان وعر من الجبال متحكمًا في الطرق، وخندق على عسكره، وعبأ يزيد جنوده، والتقوا في سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م، ودار قتال شديد أسفر عن هزيمة الأباضية وقتل زعيمهم، ودخل يزيد القيروان فأحسن السيرة، ونظم الأمور،

---

[1] نفس المصدر ،ج٥،ص٤٤٧

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، حـ١، ص٨٨، عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال أفريقيا، ص١٧٩.

فأعاد تعمير مدينة القيروان، وجدد ما تهدم من مدن ومبان، ورتب الاسواق، وجعل لكل صناعة سوقًا، وأعاد للقيروان شبابها ونضارتها، وجدد جامع عقبة بعد أن خربه الخوارج، وعنى بالزراعة، وصارت دار الإمارة كعبة القصاد للشعراء والأدباء والعلماء من كل حدب وصوب(١).

على أن ولاية يزيد بن حاتم كانت متفردة في طولها وازدهارها، إذ لم تقاربها في ذلك ولاية والٍ آخر من ولاة المغرب، فمن حيث ازدهارها، يعدها بعض الدارسين الفترة الذهبية لعصر الولاة بإفريقية، أما من حيث طولها، فقد امتدت زهاء ستة عشر عامًا في عهود كل من المنصور والمهدي والرشيد، حتى أصيب يزيد بن حاتم بوعكة صحية توفى على أثرها في سنة ١٧١هـ/٦٨٨م، وخلفه على إفريقية إبنه داود الذي قام بولاية إفريقية نحو تسعة أشهر، حتى قدم إليها عمه روح بن حاتم واليًا عليها من قبل هارون الرشيد سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م(٢)، فتخلى لعمه عن الولاية، ومما يجدر ذكره أن روح بن حاتم كان أسن من أخيه يزيد بن حاتم، وكان قد بلغ من الكبر عتيًا حينما قدم واليًا على إفريقية، وما لبث أن توفى بعد سنتين فقط من ولايته في سنة ١٧٤هـ/٧٩١م، فتولى بعده على إفريقية قبيصة بن روح، وجلس يتلقى البيعة في المسجد الجامع، وبينما الناس تبايعه إذ بصاحب البريد يطلع نصر بن حبيب المهلبي على كتاب من الرشيد بولايته على إفريقية، فتولى نصر بن حبيب زهاء سنتين ونيف، ثم وَلّى الرشيد الفضل بن روح بن حاتم الذي كان آخر ولاة المهالبة في إفريقية حتى سنة ١٧٨هـ/٧٩٤م(٣)، وفي هذه السنة ثار عليه الجنود بقيادة عبد الله بن الجارود فعزلوه ثم قتلوه في نفس السنة المذكورة، وأخرج

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، حـ١، ص٩٤.

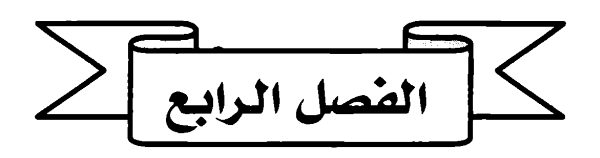
(2) ابن الأثير: الكامل، حـ٦، ص٧٨، ابن عذاري: البيان: حـ١، ص١٠٢ -١٠٥.

(3) نفس المصدر، حـ٦، ص٩٣.

ابن الجارود المهالبة من إفريقية ، ليسدل الستار على فترة المهالبة في إفريقية، والتي امتدت نحو ربع قرن من الزمان، انفردوا فيها بإدارة إفريقية من خلافه أبي جعفر المنصور إلى خلافة هارون الرشيد ، واعقب مقتل الفضل بن روح، اضطرابات في إفريقية لم تهدأ إلا بعد قدوم هرثمة بن أعين، وهو من أقطاب الدولة العباسية ، وكانوا لا يوجهونه إلا في المهام الصعبة ، قدم القيروان في سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م، فأنس أهل القيروان بمقدمه خيرًا كثيرًا ، بعد أن غشيهم من الفتن ما غشيتهم[1]، ونعمت إفريقية في ولايته التي لم تربو عن سنة ونصف بالهدوء والاستقرار، واهتم بعمران البلاد وحمايتها فبنى رباط المنستير، وبنى سور طرابلس، وقد أتمهما سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م[2]، ولكن ما لبث أن استعفى من الولاية على إفريقية فأعفاه الرشيد وولي على إفريقية محمد بن مقاتل العكي سنة ١٨١هـ/٧٩٧م، وكان سيء السيرة ، فكرهه أهل القيروان، وأدى سخط الناس على العكي إلى اقدام الرشيد على عزله، وأمره بالرحيل عن إفريقية فخرج منها بأهله إلى طرابلس ميمماً وجهه صوب العراق، وولي الرشيد بدلاً منه إبراهيم بن الأغلب على إفريقية، وجعلها وراثية في عقبة في سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م، ليؤسس أسرة حاكمة ودولة مستقلة في إفريقية، هي المعروفة باسم دولة الأغالبة والتي كان قيامها نهاية لعصر الولاة في إفريقية والمغرب جميعًا

(1) بان الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٦، ص٩٦.

(2) نفس المصدر، حـ٦، ص٩٦، عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا، ص١٩٤، ١٩٥.



قيام الدويلات المستقلة بالمغرب

- أولا : دولة بني مدرار (بنى واسول) في سجلماسة
- ثانيا : دولة بني رستم الاباضية في المغرب الأوسط
- ثالثا : دولة الأدارسية في المغرب الأقصى
- رابعا : دولة الأغالبة في المغرب الأدنى

قيام الدويلات الإسلامية المستقلة بالمغرب

شهد النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي قيام دول مستقلة تقاسمت أجزاء المغرب الكبير، ولعبت دورا هامًا في تاريخه السياسي والحضاري، ويهمنا من تلك الدول في دراستنا ، دولة بني مدرار الصفرية ، ودولة بني رستم الاباضية ، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، ودولة الأغالبة في المغرب الأدنى، ثم دولة الفاطميين التي قامت أول الأمر في المغرب، ثم انتقلت إلى مصر لتنافس الدولة العباسية في زعامة العالم الإسلامية ، وتركت دولة بني زيري نيابة عنها في حكم بلاد المغرب.

أولاً: دولة بني مدرار الصفرية في سجلماسة (١٤٠-٢٩٧هـ/٦٥٧-٩١١م)

قامت هذه الدولة سنة ١٤٠هـ/٦٥٧م متخذة سجلماسة حاضرة لها[١]، مستغلة اضطراب أحوال الخلافة الأموية خاصة في إفريقية ، ولا شك أن اختيار سجلماسة الواقعة على وادي ملوية والضاربة في الصحراء إلى حد ما جعلها في مأمن ، خاصة في المراحل الأولى لتأسيس هذه الدولة ، وكانت مكناسة نواة هذه الدولة وعصبيتها ، والتفت حول مكناسة قبائل أخرى

---

(1) البكري: كتاب المسالك والممالك، جـ٢، ص٨٣٨ – ص ٨٤١ وراجع: حسن خضيري: أهم مراكز تجارة الصحراء المغربية، ص٥ -٧

(٢) البكري: المسالك والممالك ،ج٢ ،ص٨٣٥ -٨٣٧

شاركت في تكوين هذه الدولة كصنهاجة وزويلة وزناتة وبعض من السودان والأندلسيين، وكان مؤسس هذه الدولة وزعيمها العقائدي أبو القاسم سمكو بن واسول الذي استطاع أن يجمع القبائل داخل نطاق الحلف الصفري الذي كون نواة دولة بني مدرار حول قبيلة مكناسة، وأراد ابن واسول أن يحقق ما تمناه من تكوين دولة تتبع الفكر الخارجي الصفري بالبعد عن الدخول في ثورات الصفرية، التي اضطلعت بها زناته، وقد بلغ حرص ابن واسول على تكوين الدولة للدرجة التي جعلته يتنازل عن الإمامة لعيسى بن يزيد الأسود، وهو تابع له في العقيدة والرياسة ليس لكثرة السودان في الدولة الناشئة حينذاك كما يعتقد البعض فحسب، بل ليبرهن الصفرية علي صدق اعتقادهم لمبدأ الخوارج في الإمامة، وهو أن كل مسلم يصلح لتولي الامامة اذا توافرت فيه شروط الفضل و العلم والكفاءة والعدالة وسلامة الاعضاء والحواس، بغض النظر عن لونه أوجنسه، وبويع عيسي بن يزيد بالامامةوالامارة سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م، وشرع في اختطاط مدينة سجلماسة،واستعان في بنائها ببعض من أهل الاندلس واليهود ،وعمل علي بناية أبنيتهامن الصخر واحاطتها بسور، كما شق بها القنوات، لتكون روافد لنهر ملوية الذي يحصر سجلماسة بين فرعيه، ويصف البكري [1] مدينة سجلماسة بقوله:" ..مدينة سهلية .. ،حولها أرباض كثيرة ،وفيها دور رفيعة، ومبان سرية، ولها بساتين كثيرة ،وهى علي نهرين تمدهما عيون كثيرة ومن مدينة سجلماسة تدخل الي بلاد السودان الي غانة .."

علي ان توغل سجلماسة باتجاه الصحراء جعل منها فسطاطا اماميا للقوافل القادمة من السودان واليه ،والحاملة للتبر والرقيق وجلود الحيوانات

[1] البكري : المسالك، ج٢، ص٨٣٥ -٨٣٨، وراجع : محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب، ص٨٩ -٩٠

التي تحتاجها ،أسواق المغرب والاندلس، هذا فضلاعن موقعها الاستراتيجي الذي يتوسط الطرق الاطلسية للصحراء،جعل منها العاصمة الاولي للضفة الشمالية للصحراء لقرون عديدة [1]

علي أن صفرية مكناسة ما لبثوا ان تأثروا بنوازع العصبية وتنكروا لمبدأ الخوارج في الامامة وسخطوا علي عيسي بن يزيد فخلعوه من الامامة واوثقوه وقتلوه ، وولوا بدلا منه زعيمهم أبا القاسم سمكو بن واسول سنة١٥٥هـ/٧٧٢م ، واسس سمكو بن واسول بيتا حاكماتوارث امامة الصفرية في سجلماسة، وقد شهدت الدولة في عهده نوعا من الاستقرار فقد عكف علي ارساء قواعد الدولة ،و عزف عن المشاركة في ثورات الصفرية ضد ولاة الخلافة العباسية، بعد أن أدرك عدم جدوي هذه الثورات ،لكن الطريق لم يكن ممهدا امامه فواجهته عقبات كثيرة اعترضت طريقه وطريق من أتي بعده من أمراء هذه الدولة، فقد تكونت الدولة من بناء اجتماعي متباين فيه مختلف الاصول وان اشتركوا في المذهب، فكان البربر والسودان والاندلسيون هذا فضلا عن اليهود الذين تحكموا في الحياة الاقتصادية في هذه الدولة، فقد احتكروا استغلال مناجم الذهب والفضة في درعة، هذا الي جانب المعتزلة أهل العقل والنظر الذين كونوا مجتمعا مستقلا داخل الدولة، اعتزلوا حتي في أموالهم فكانوا يؤدون الزكاة لشيخهم بتاهرت، لكن المهم في هذه الاقليات هم الاباضية الذين لعبوا دورا هاما في تاريخ الدولة المدرارية .

على أية حال أنشأ سمكو بن واسول بيتًا حاكمًا في سجلماسة، وعرفت دولتهم الصفرية فيها باسم دولة بني مدرار، وقيل أن أبا القاسم سمكو بن

[1] حسن خضيرى احمد : أهم مراكز تجارة الصحراء، ص٣

واسـول كـان يلقـب مـدرارًا(١)، وانتقلـت إمامـة الصـفرية في سجلماسـة بعـد سمكـو إلى ابنـه اليـاس، الملقـب بـأبي الـوزير فظـل فيهـا عـامين، ويبـدو أن الكفاءة كانت تنقصـه ممـا مكـن أخـاه اليسـع بـن سمكـو مـن الثـورة عليـه وانتزاع الأمامة لنفسه في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م(٢)، وتلقـب بالمنصـور، و انطلقـت الدولة المدرارية في عهده انطلاقة كبرى، فقد اتسعت الدولـة بفضـل جهـوده حتى امتد سلطانها إلى وادي درعة في إقليم تافيللت.

وهكذاغـدت سجلماسـة في عهـده واحـة وارفـة الظـلال جنـوب بـلاد المغـرب، ونقطـة اسـتراتيجية لعبـور الصـحراء بمثابـة الفسـطاط الأمـامي للصـحراء المغربية، ومركزا هامًا من أهم مراكز تجارة الصحراء المغربيـة تتحكـم في طرق القوافل مع بلاد السودان الغربي، وطريـق تجـارة الـذهب بصـفة خاصـة، حيـث أصـبحت أكـبر مسـتودع للـذهب الافريقـي، ممـا أضـفي علـي اسمهـا طابعا اسطوريا ،حيث كـان يأخـذ منهـا التجـار مختلـف السـلع بـثمن بخـس ، ويأ تون بحمولة جمال كاملة من الذهب الخام ،وانعكس ذلك بدوره علي رخاء وازدهـار الدولـة المدراريـة، وكـان الملـح اهـم سـلع المبـادلات التجاريـة في سجلماسـة فكـان يحملـه التجـار المغاربـة الـي بـلاد السـودان في نـوع مـن التجـارة الصـامتة (**Silent Trade**)للمقايضة بالذهب.(٣).

وقد اختلف الدراسون في تفسير اسم سجلماسة، فقيل إن قائدًا رومانيًا، أطلق عليها هذا الاسم قديمًا، لأن وصوله إليها كان خاتمة لانتصاراته في

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٣، ص١٣٨.

(2) ابن عذاري: البيان، ج١ ص١٥٦.

(3) راجع: مقالنا «أهم مراكز تجارة الصحراء المغربية، ص٢ -٤٠، كذلك:
Bovill, E.W.,:The Gdden Trade Of the moors, Oxford univ.Press, 1968, p.61.

المنطقة، فسميت سجلماسة بمعني خاتم النصر[1]، بيد أن القائلين بهذا التفسير تناسوا أن سجلماسة مدينة إسلامية محدثة أنشأها البربر الصفرية في إقليم تافيللت، ومن ثم ينبغي أن يكون لاسمها تفسير آخر، وقد وجد في اللغة أن السجل تعني الدلو المملوء ماء وهو الشق الأول من اسم سجلماسة، أم الشق الثاني ماسة، فهي اسم مدينة مغربية قديمة كانت من أعمال السوس الأقصى وتقع على المحيط الأطلسي، وكان لها دولة قديمة تسمى دولة ماسة تمتد حدودها إلى إقليم تافيللت الذي أقيمت فيه سجلماسة، ولما كانت المنطقة المحيطة بتافيللت من دولة ماسة صحراوية وتنفرد منطقة سجلماسة بوجود نهرين هما زيز وترغة، فقد شبهت بالدلو المملوء ماء وسط صحراء ماسة القاحلة، فقيل لها سجلماسة.

وكيفما كان الأمر فإن اختطاط الخوارج الصفرية واختيارهم لسجلماسة لم يكن في الواقع عفو الخاطر، وإنما ناتج عن دراسة دقيقة لمنطقة تتمتع بالرخاء الزراعي وتتحكم في طرق تجارة الصحراء، مما كفل لهذه الدولة الناشئة موردا اقتصاديًا ثابتًا، وجعل مدينة سجلماسة مزدهرة على مر العصور.

قام الاباضية في زمن اليسع بن ابي القاسم بثورة في نواحي درعة بغرض الاستحواز علي امارة الدولة ، واستطاع اليسع أن يخمد ثورة الاباضية ،وان يستولي علي معقلهم في درعة الامر الذي ارهب جيرانه من بني رستم الاباضية فأرادوا كسب وده فعقدوا معه أواصر المصاهرة فزوج ابنه مدرار من احدي بنات عبد الرحمن بن رستم ، وتدعي أروي وكان ابنه منها يعرف بابن الرستمية ، وكان لذلك أثره علي الدولة المدرارية التي شهدت ازدهارا

[1] دائرة المعارف الإسلامية مادة (سجلماسة).

اقتصاديا واستقرارا سياسيا في عهد اليسع بن سمكو حتي وفاته سنة٢٠٨هـ/٨٢٣م بعد ان حكم قرابة ثمانية وثلاثين عاما.

ولم يلبث الإباضية أن ثاروا مرة أخرى في عهد مدرار بن أبي منصور اليسع لكن ثورتهم هذه قامت شراراتها داخل البيت المدراري نفسه، فقد ذكرنا أن تصاهرا تم بين هذا البيت وبين بني رستم الإباضيين، وكان من نتائج هذه المصاهرة أبناء يميلون إلى أهل أمهاتهم وأخوالهم من بني رستم، لكن مقاليد الإمارة عادت لبني مدرار بتولي ميمون بن بقية إمارة الدولة سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م، الذي حارب الإباضية الذين تركوا سجلماسة وتجمعوا في درعة ليبدأوا منها الثورة، فتمكن من التخلص منهم والقضاء على فتنتهم فعمت الدولة حالة من الأمن والهدوء النسبي .

وجاء بعد ميمون ابنه وخليفته اليسع بن ميمون مدرار بن اليسع أبي القاسم الملقب بالمنتصر، ومد نفوذ دولته فضم صفرية مطغرة، وجمع شمل صفرية المغرب الأقصى. وقد واجهت دولة بني مدرار في عهده غزو الشيعة لسجلماسة فسقطت دولة بني مدرار سنة ٢٩٧هـ/٩١١م[1].

ومما يجدر ذكره أن الخلافة العباسية وعمالها بالقيروان كانوا يرون في هذه الدولة اتجاها انفصاليا عن الخلافة سياسيًا وعقائديًا، ولكن برغم الشعور العدائي الذي كانت تكنه الخلافة العباسية لبني مدرار إلا أن المصادر لم تذكر وقوع صراع مسلح بين الطرفين، وأن كنا نرجح أن الوظيفة الأولى التي اضطلعت بها دولة الأغالبة من قبل الخلافة العباسية، هي الوقوف(Buffer State) كدولة حدود بين ولايات الخلافة العباسية

---

[1] للمزيد من الدراسة عن الخوارج راجع: محمود إسماعيل عبد الرزاق: الخوارج في المغرب الإسلامي، بيروت ١٩٧٦ص٩٠ وما بعدها

وأعدائها في المغرب، إلا أن الدور الاستقلالي الذي نهجته دولة الأغالبة أبعدها عن الدور المفروض عليها.

أما عن علاقة دولة بني مدرار با لأدارسة فقد كانت تنطوي على عداء سافر بين الطرفين، ذلك أنهما على طرفي النقيض عقائديًا، هذا إلى جانب أن الأدارسة كونوا دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م ، مقتطعين جزءا من أملاك الخلافة العباسية ومن الخوارج الصفرية الذين كانوا منتشرين في المغرب الأقصى، وقد كان في نية الأدارسة القضاء على الخوارج الصفرية في المغرب الأقصى على وجه العموم، إلا أن نزاعهم مع الأغالبة جعل أمزهم في المرتبة الثانية، كما كانت المواجهة بين الدولتين خفية واتخذت طابع الدسائس والمؤامرات. ولم يكن في مقدور بنى مدرار توجيه ضربة للأدارسة الذين قضوا على صفرية تلمسان سنة ١٧٣هـ/٧٩٠م، بسبب كثرة مشاغلهم بالإضافة إلى تخوفهم من المد الفاطمي الذي كان سببًا في القضاء على دولتيهما

وعلى العكس تمامًا كانت علاقة دولة بني مدرار بالإمارة الأموية في الأندلس التي قامت على الود والتراضي، ذلك أن الأمويين في الأندلس كانوا على خلاف مع الخلافة العباسية، كما كانوا على خلاف عقائدي بينهم وبين الإدارسة الذين كانوا من الشيعة الزيدية، كما نشط أهل سجلماسة في نشر الإسلام بأودغشت وولاتة وتنبكت (تمبكتو)، وجاو وغيرها من مدن السودان، فإليهم يعود الفضل في نشر الإسلام وتعاليمه بين هذه القبائل الوثنية في جنوب وغرب القارة الأفريقية.

على أية حال سقطت الدولة المدرارية سنة ٢٩٧هـ/٩١١م على يد أبي عبد الله الشيعي، بعد أن مكثت مائة وستين عامًا[1]، وقد حاول أحد أفراد

---

[1] محمود اسماعيل عبد الرازق:الخوارج في بلاد المغرب،ص٣٦ ،وراجع:

الأسرة المدرارية، إحياء هذه الدولة مرة أخرى،ويدعي محمد بن الفتح بن ميمون المدراري، الذي ترك مذهب الخوارج الصفرية ، ودخل في السنة علي مذهب مالك في سبيل الدخول الي دعوة العباسيين ، ثم ما لبث أن اتخذ اللقب الخلافي عندما تسمي بالشاكر بالله ، وضرب السكة باسمه والتي عرفت بالشاكرية ، لكن جوهر الصقلي قضى عليهم في سنة ٣٤٧هـ.(١)

Lewicki,T:"The Ibadites in Arabia and Africa:The Ibadi Community at Basra and the Origins of the Ibadite states in Arabia, and north Africa 7th and 9th centuries" in Journal of World History,1971,pp.75-78

(1) عثر أخيرا في سجلماسة علي دينار للامير المدراري الشاكر بالله نقش علي وجهه(محمد بن الفتح/لااله الا الله وحده /لاشريك له،محمد رسول الله ، أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون،) ونقش علي الظهر (الامام الشاكر لله، محمد رسول الله،المتقي لله،بسم الله ضرب هذا الدينر سنة خمس وثلاثين وثلثمائة) راجع: حسن خضيري أحمد :اهم مراكز تجارة الصحراء،ص٢٢،ص٢٣

ثانياً: دولة بني رستم الاباضية في المغرب الأوسط (١٦٠-٢٩٧هـ/٧٧٦-٩٠٩م)

انقسمت بلاد المغرب إلى عدة قوى مختلفة، منها الشرعي أي التابع للخلافة العباسية في بغداد والواقع تحت سلطة والي المغرب في القيروان، والبعض الآخر مستقلاً عن الخلافة مثل دولة بني مدرار في سجلماسة في المغرب الأقصى كما أسلفنا، ثم دولة بني رستم في المغرب الأوسط، ثم تأتي دولة الإدارسة الشيعية بالمغرب الأقصى أيضًا، وأخيرًا دولة الأغالبة السنية في إفريقية والتي كانت بمثابة دولة حدود تراقب حركات وسكنات المخالفين للدولة العباسية.

تنتسب الفرقة الإباضية التي بدأت حركاتها السياسية، في وقت متأخر إلى عبد الله بن أباض التميمي الذي لم يقدم على الثورة على أثر انفصاله عن نافع بن الأزرق سنة ٦٤هـ/٦٨٣م، إنما آثرالتريث إلى أن وجد في عهد مروان إبن محمد الحافل بالاضطرابات فرصة مواتية فخرج عليه، فوجه إليه مروان إبن محمد، عبد الله بن محمد بن عطية الذي تمكن من هزيمته وقتله[١].

أما إذا أردنا أن نؤرخ للفرقة الإباضية بنسبتها إلى معلمها الأول، فهي تنتسب إلى جابر بن يزيد المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة، والذي يرجع إليه الفضل في تنظيم أسلوب الدعوة الإباضية، وقد عاش في الفترة ما بين ٢١هـ/٦٤١م إلى سنة ٩٦هـ/٧١٤م، وحظى عند الإباضية بمنزلة عالية، لكن الأجل لم يمتد به ليشهد نجاح جهوده إذ توفى سنة ٩٦هـ/٧١٤م، فاقتدى به أهل هذه الطائفة من بعده بأقدم تلاميذه، ويدعي أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة

---

(1) راجع الشيخ: ابي ربيع سليمان الباروني: مختصر تاريخ الإباضية، طبعة تونس ١٩٣٨ ج٢، ص٦ -٣٨.

التميمي ، الذي نشط في توسيع آفاق الدعوة، من خلال مجالس حملة العلم في البصرة حتي قيل عنه ،أنه ظل يتلقى العلم أربعين عامًا، وبعدها نصَّب نفسه لتعليمه، ومن هنا كانت شهرته الواسعة، وكان مقامه في البصرة، وقد حرص تلاميذ أبي عبيدة على التمكن لمذهبهم، ونشره في الآفاق شرقًا وغربًا، وفي نفس الوقت حرصوا على قوة رابطتهم بأستاذهم في البصرة[١].

ويرتبط ظهور هذه الحركة في بلاد المغرب، بإرسال عبيدة مسلم لداعيته سلمة بن سعيد الحضرمي إلى بلاد المغرب في أوائل القرن الثاني الهجري لنشر الدعوة الإباضية بين المغاربة، إذ يروي أنه أول من نقل مبادئ المذهب الأباضي إلى إفريقية، وذلك عندما بعثه إمام الإباضية أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ليقوم بالدعوة للمذهب الأباضي، وكان شديد الحماس لهذه الدعوة حتى أنه كان يقول: «وددت لو ظهر هذا الأمر، (يعني مذهب الإباضية) يومًا واحدًا من أول النهار إلى آخره، فلا أسف على الحياة بعده»[٢].

وعندما وصل سلمة بن سعيد إلى بلاد المغرب، يبدو أنه اتخذ من بلاد المغرب الأدنى ميدانًا لنشاطه، حيث استطاع أنه يكسب أنصارًا في إقليم طرابلس، وجبل نفوسة، بيد أن الأجل لم يمتد به طويلاً، فحل محله أبو عبدا لله بن عبد الحميد مغيطر، الذي تتلمذ على أبي عبيدة بالبصرة، وفي أيامه تم انتشار المذهب بين أهل نفوسه في مستهل القرن الثاني الهجري، ومنذ ذلك الحين أصبح جبل نفوسة دار هجرة للمذهب الأباضي في بلاد

---

[1] أبو زكريا: السيرة، ص٦٩، ابن خلدون: العبر، ج٦ص١٤٣.

[2] الدرجيني: طبقات الأباضية، مخطوط بجامعة الدول العربية، رقم ٣٠٣، ورقة ٦، ٧.

المغرب، وكان رسوخ قدم المذهب الأباضي في جبل نفوسة سببًا في انتشاره بين القبائل الأخرى مثل هوارة، ولماية وزناتة وسدراتة وزواغة ولواتة ومطماطة في عهد عبد الوهاب بن رستم، وكان من بين من اعتنق المذهب الإباضي عبد الرحمن بن رستم الذي قام مجتهدًا في طلب ذلك الأمر.

ومهما يكن من أمر فقد توجه عبد الرحمن بن رستم إلى أبي عبيدة في البصرة بالعراق، وخرج معه نفرمن أهل المغرب، وهناك التقى بأبي الخطاب، ومكثوا عند أستاذهم أبي عبيدة سنين عددًا، حتى تحصلوا على ما يبلغونه، وعندما أرادوا الانصراف إلى بلادهم، كلموا أبا عبيدة واستشاروه في شأنهم، هل إذا وجدوا في أنفسهم قوة أن يولوا رجلاً منهم؟ فقال لهم أبو عبيدة: توجهوا إلى بلادكم، فإذا كان في أهل دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال فولوا على أنفسكم رجلا منكم، فإن رفض فاقتلوه، وأشار إلى أبي الخطاب.

على أية حال قامت دولة بني رستم بالمغرب الأوسط على يد عبد الرحمن ابن رستم بن بهرام الفارسي، الذي نشأ وتعلم بالقيروان وتأثر بفكر الخوارج، فالتمس أصوله لدى سلمة بن سعيد وكان من دعاة الأباضية، ورغبة منه في التفقه في المذهب الأباضي رحل إلى البصرة للأستزادة والإفاضة، وبعد ذلك عاد إلى المغرب وأقام بالقيروان، واضحى واحدا من حملة العلم ، والذراع الايمن لابي الخطاب وبعد موت أبي الخطاب أصبح هو الامام المعترف به للاباضيين في المغرب ، ولم يكن بعيدًا عن ثورات الخوارج الإباضية، فقد شارك في ثورة طرابلس التي قادها أبو الخطاب، ويبدو أن العيون كانت ترصده في افريقية مما حدا به ان ييمم وجهه صوب إفريقية، فاتجه إلى إقليم تاهرت بالمغرب الأوسط طلبا للأمن وأملا في الحرية في نشر

تعاليم المذهب الأباضي، على أن الأمر الجدير بالنظر هو أن قاطني إقليم تاهرت من لواتة وزواغة ومطماطة ترجع أصولهم لمنطقة طرابلس مهد الدعوة الإباضية كما ذكرنا، فأمست منطقة تاهرت اصلح المناطق ليحل بها عبد الرحمن بن رستم، فالمكان ممهد في التعريف بالمذهب الأباضي.

ولما تكاثر عدد أتباع عبد الرحمن من قبائل المغرب الأوسط، ولجأ جماعة من الصفرية إليه مرتدين من الصفرية للأباضية، بالإضافة إلى جماعة من المعتزلة الذين وجدوا في المذهب الأباضي تقاربا مع مذهبهم، وذلك في موضوع المنزلة بين المنزلتين أحد أركان الفكر المعتزلي ، وبعد أن اجتمعت أسباب القوة لهذه الجماعة بايعوا عبد الرحمن بن رستم بالإمامة سنة ١٦٠هـ/٧٧٦ -٧٧٧م، واستلزم الأمر إقامة حاضرة لهذه الدولة الناشئة فاختار موقعًا بالقرب من مدينة قديمة ترجع إلى العصر الروماني والبزنطي، واختط مدينة تاهرت ،وكان اختياره سليما لهذه المدينة حيث تقع وسط الجبال ،مما يكفل لها عنصر الحماية كما لا يمكن الوصول اليها من ناحية الشرق أو الغرب بسهولة ، وهي بذلك حصينة من هاتين الناحيتين،ثم ان المدخل اليها من الجنوب كان سهلا ، أي أن الطريق بينها وبين الصحراء كان مفتوحا يمكن لاهلها من الاتصال بالاباضية في جبل نفوسة،هذا فضلا أن موقع المدينة جيد الهواء كثيرالمياه خصب الارض، قابل للعمارة، فهي بذلك مدينة زراعية كثيرة الغروس، والبساتين التي تمتلىء بمختلف انواع الثمار،وفي الوقت نفسه مدينة تجارية نشطة ذاع صيتها في الآفاق ، وكما جرت العادة الإسلامية في بناء المدن كان المسجد هو نواة هذه المدينة الناشئة،

التي كانت مركز توافد الاتباع والمريدين[1] ثم اختلط الناس مساكنهم ،وأنشئت الحمامات والأسواق ، واحيطت المدينة بسور له أربعة أبواب .

وادي اتساع دائرة الحضارة الاسلامية أن ازدهرت المدينة علي عهد الرستميين، حتي صارت مجمعا للتجار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الاسلامي، واكتسبت شهرة كبيرة مما جعلها تعرف بالعراق الصغير تشبيها لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الأجناس والملل والنحل [2] ويبدو أن عبد الرحمن قد بلغ من قوة الحجة وصلاح القدوة لدرجة أن دانت له إباضية البصرة كعبة هذا الفكر، ولما كان فكر الخوارج ومبدأ دعوتهم يقوم على الشورى، والبعد عن مبدأ الوراثة في الإمامة التي يجب، أن لا تخضع لعصبية أو عنصرية بل تنحصر في أمور ثلاث هي الأخلاق والعلم والشجاعة، إلا أن هناك خلافًا بين ما ادعوا وبين الواقع الذي يعيشون فيه، وخاصة بعد موت عبد الرحمن ، فقد خلفه ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم في الإمامة أو الامارة سنة ١٦٨هـ/٧٨٤م، حيث تغلب العرف السائد في ذلك الوقت وهو توريث الملك على المبدأ والعقيدة، مما أدى إلى خروج بعض المنشقين (النكارية) لكن الأغلبية بايعت عبد الوهاب وعرفوا باسم (الوهبية) هذا، وانحصرت الأمامة بعد ذلك في البيت الرستمي، لهذا قام المنشقون على إمامة عبد الوهاب والذين عرفوا بالنكارية فاعتزلوا تاهرت العاصمة، وعاشوا في أماكن حولها تحت زعامة يزيد بن فندين، وهكذا انقسمت جماعة الإباضية في أول عهدهم بدولتهم المستقلة، على أن النكارية لم يقفوا عند المخالفة في الرأي والحجة فحسب ، بل أرادوا اغتيال

---

(1) البكري : المسالك والممالك،ج٢،ص٧٣٦، الدرجيني : طبقات الاباضية ،ورقة ٩ ،ابن عذاري: البيان،ج١،ص١٩٦

(2) احمد مختارالعبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ،ص١٧٥

عبد الوهاب لكن محاولتهم باءت بالفشل وقتل من جراء هذا زعيمهم يزيد بن فندين [١] .

ولم يكن مقتل ابن فندين نهاية النكارية ، بل تركوا تاهرت إلى طرابلس واتخذوا مقامهم في جبل نفوسة ، واتخذوا لأنفسهم إمامًا دون عبد الوهاب، وانشقوا على دولة بني رستم، ومن المرجح أنهم حظوا بتأييد الأغالبة ، الأمر الذي جعل عبد الوهاب يدخل في صراع مع الأغالبة ، وينتصر عليهم، لكن إصرار أباضية نفوسة على استقلالهم العقائدي جعل عبد الوهاب يعترف بمن اختاروه لأنفسهم إمامًا ، وامتدت الدولة الرستمية في عهد عبد الوهاب امتدادا واسعا فشملت من أحواز طرابلس وجبل نفوسة شرقا الي تلمسان غربا والي اعماق الصحراء جنوبا ،وأدي بها هذا الامتداد لدرجة أنه اصبح لاقليم طرابلس قدر من الاستقلال في عهد عبد الوهاب بن رستم،بل ان بعض ولاته صاروا يختارون من قبل رعيتهم ،وتلقبوا بالامامة.

توفي عبد الوهاب بن رستم سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م و خلفه ابنه أفلح الذي عرف بشجاعته، واستمر النكارية على موقفهم يرفضون مبدأ الوراثة أساسًا ، فدخل معهم في حرب هزم فيها خلف بن السمح بن أبي الخطاب المعافري إمام النكارية ، وعلى الرغم من هذه الخلافات العقائدية فقد ظلت الإمامة داخل بني رستم، فتولاها أبو بكر بن أفلح بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٨هـ/٨٥٢م[٢] ، ثم من بعد ه أخوه أبو االيقظان محمد بن أفلح الذ ي حكم قرابة أربعين سنة حتى توفى سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤ -٨٩٥م.، وتعتبر فترة حكمه فترة استقرار طويلة وما لبث أن دب الخلاف بين أفراد البيت

([١]) ابن الصغير: اخبار الأئمة الرستميين،ص٤٤ ، وراجع: محمود اسماعيل عبد الرازق:المرجع السابق،ص١١٨ -١٢٠

([٢]) ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين ص٦١، محمود إسماعيل عبد الرازق: الخوارج ص١٣٠.

الرستمي، فقد تنازع الأمامة فيه ابن أبي اليقظان الذي قُتل على يد أولاد أخيه، ثم جاء الفاطميون الذين قضوا علي هذه الدولة سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م بعد أن دام حكمها زهاء قرن ونصف من الزمان

وصفوة القول أن آراء الخوارج صادفت هوي لدي البربر، لأن البربر من أكثر الشعوب الاسلامية تقبلا لآراء الخوارج ومذ اهبهم، فا لخوارج اشترطوا للإمامة الإسلام والعدل،ولذلك اتسمت حروب الخوارج في المغرب بظاهرتين الاولي: رفض اية دولة تقوم علي الجور واللامساواة ، والثانيةأن المذهب الخارجي أدي الدور المنوط به،بعد ان مكن البربر من انتزاع استقلالهم الذاتي ،لأ ن البربر بطبيعتهم ينزعون الي الاستقلال ،ولكن أقلام المستشرقين دأبت علي تصوير البربر بأ نهم جنس متخلف ، وأن تخلفهم جعلهم يعجزون ليس علي تحرير بلادهم فحسب ، بل علي اعتناق مذاهب الخوارج التي تتماشي وخلفيتهم الاجتماعية البدوية ، وأن سبب كراهيتهم للعرب كانت تنبع أساسا من الاختلاف العرقي ، ان نقد أعمال المستشرقين لايعني التستر علي أوجه القصور في معاملة بعض ولاة بني أ مية لسكان المغرب ، والتي تسببت في اثارة حفائظ البربر من سكان المنطقة ولكن المتتبع لدوافع السياسة الا موية في بلاد المغرب ، يجد أن هذه الدوافع لم تكن دوافع عرقية أي بتفضيل العرب علي البربرعلي حد زعم المستشرقين ، بل كانت بسبب تضارب مصالح البربر مع مصالح الدولة ، فالدولة الاموية لم تكن متعصبة لبني قومها تعصبا عرقيا ،بل كان تعصبا اجتماعيا ، فعصبية بني أمية تقوم أساسا علي جند الشام وإلا فبماذا نفسر سبب معاداة العرب البلديين أ و عرب الفتوح للجند العربي الموفد من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك.كما مرينا.

ان التغيرات السياسية والدينية التي عاشها المغرب خلال القرن الاول والثاني للاسلام، كانت تعكس والي حد كبير التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها المنطقة وفي المرحلة نفسها ،لذلك فعندما ساهم سياق العروبة والاسلام في تحرير المغرب اجتماعيا واقتصاديا نجد البربر يدخلون في دين الله أفواجا ، ويسارعون في الانضمام الي الجيوش الاسلامية ،حتي أصبحوا من أشد جند الاسلام اخلاصا ،وأوفرهم تحمسا لخدمة هذا الدين، ولذا فان ظهور المذهب الخارجي يجب أن تتم رؤيته داخل التغيرات التي شهدتها المنطقة ، وليس من منطلق المفهوم العنصري الضيق ،ويبقي أن نقول أن المذهب الخارجي في بلاد المغرب كان يحمل بين طياته بذور الخلاف، فقد كثر النقد والجدل حول العقائد ،وصار خلع الأئمة واغتيالهم سنة متوارثة ،ثم أصبح التخلي عن مبدأ الخوارج في الامامة واقعا ملموسا ،كماأن احتدام الصراع والتنافس بين أبناء البيت الواحد عجل بتقويض الدولة وسقوطها ، ومن هنا لم يقدر للخوارج أن يكونوا دولة كبيرة وانما أسسوا دويلات لم تستطع أن تجابه الدعوة الفاطمية .

ثالثًا: دولة الأدارسة
(١٧٢ - ٣٧٥هـ/٧٨٨ - ٩٨٥م)

فر إدريس بن عبد الله بن الحسن بعد هزيمة العلويين في موقعة (فخ) سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م، وهي المعركة التي قتل فيها الحسين بن علي بن الحسن، واستطاع إدريس أن يفر إلى المغرب في صحبة مولاه راشد ، حيث سار متخفيا من مكة الي مصر،واستقربها فترة عند أحد المصريين المتشيعين لآل البيت، فبالغ في اكرامهما والاحسان اليهما وقال لهما :" لتطمئن نفوسكما ، فاني من شيعة آل البيت ، واول من كتم سرهم ، فا نتما من الآمنين " [(١)] ، ولم يكتف هذا المصري باخفاء أمر ادريس فحسب ، بل يسر له ولمولاه راشد طريق الخروج من مصر ،وأمدهما بالدواب ، وسار معهما الي برقة، وجدد لهما طعاما وودعهما[(٢)].

ويذكر بعض المؤرخين[(٣)] أن واضحا مولي صالح بن المنصور(صاحب البريد في مصر آنذاك) كان متشيعا لآل البيت ، وانه علم بشأن ادريس واتاه الي الموضع الذي كان مختبئا فيه فمهد له الطريق ، وأمده بمن يرشده الي أرض المغرب ،وقدم له دواب البريد فحملته الي طنجة سنة١٧٢هـ/٧٨٨م، ثم استقر ادريس بمدينة وليلي التي وصلها في سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م، حيث نزل على إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوروبي زعيم قبيلة أوربة البربرية، التي كانت من أعظم قبائل المغرب في ذيَّاك الوقت ، واستطاع إدريس بفضل

---

[1] المحلي: الحدائق الوردية في منا قب الأئمة الزيدية،ج٢،ص٤، البكري : المسالك والممالك ،ص٨٠٠

[2] السلاوي: الاستقصا ،ج١،ص١٥٠ ،وراجع: حسن خضيري أحمد: الدعوة الزيدية في مصر،ص١٨٩ -ص١٩٠

[3] الكندي: الولاة والقضاة،ص١٣١، ، وحسن خضيري : الدعوة الزيدية،ص ١٩٠

فصاحته وبلاغته وتأثيره في نفوس البربر، هذا فضلا عن قرابته من الرسول ﷺ، أن يجمع الأنصار حوله، ويتمكن من نشر الإسلام في المناطق التي لم يكن قد انتشر بها بعد.

ولم يلبث إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أن جمع عشيرته، وذكر لهم نسب إدريس وقرابته من الرسول، وأطنب في فضله ودينه وعلمه فبايعوه سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م، وكان ممن بايعه قبيلة أوربة وكانت من أكبر قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأشدها بأسًا وقوة، ثم بايعته قبائل زناتة وزواغة ومكناسة وغيرها فقويت شوكتة، وامتدت رقعة بلاده حتى شملت الأراضي التي تقيم فيها قبائل زناتة غربي القيروان إلى المحيط الأطلسي، وتشمل المغرب الأوسط والأقصى [1] .

وقد أتاح موقع المغرب الأقصى فرصة طيبة لازدهار هذه الدولة ونجاحها، لبعده عن حاضرة الخلافة العباسية، ووعورة الطريق الأمر الذي شجع العلويين على الفرار بدعوتهم إلى تلك الأطراف النائية، التي كانت مسرحًا للقيادات السياسية والمذهبية المعارضة للخلافة.

اتخذ ادريس من مدينة وليلي قاعدة لدولته الناشئة،وكانت وليلي مركزا تجاريا هاما وسوقا رائجة،تتوسط عدة مدن مغربية، وتمتاز بخصب أرضها ومياهها الغزيرة، هذا فضلا عن موقعها الحصين الذي يؤمن عنصر الحماية لدولته، بيد أن ادريس بن عبد الله ما لبث أن تطلع الي اتخاذحاضرة جديدة لدولته بدلا من وليلي، ليس فقط لأن مؤسسي الدول المستقلة في بلاد المغرب اعتادوا تأسيس المدن الجديدة فحسب ،وانما أيضا رغبة ادريس في التحرر من نفوذ قبيلة أوربة وزعيمها، لاسيما يعد أن ضمن ولاء القبائل

([1]) نفس المصدر،ص١٣١ -ص١٣١، البكري: المسلك والممالك،ج٢،ص٧٩٩ -ص٨٠١،المحلي : الحدائق الوردية ،ج٢ ،ص٦/٥

الأخري، وأصبح بالامكان انتهاج سياسة متوازنة لتصبح جميع القبائل في طاعة الامام العلوي، واختط مدينة فاس علي أحد فروع نهر سبو بين جبلين ،يدعي بوادي فاس، ومنه اشتق اسم المدينة والواقع ان انشاء مدينة فاس موضع خلاف بين المؤرخين فابن ابي زرع والجزنائي[١] ذهبا الي ان ادريس الثاني بن ادريس بن عبدالله هو الذي اختط مدينة فاس سنة١٩٢هـ/٨٠٨م، بينما يذكر ابن الابار[٢] ان ادريس بن عبد الله عندما دخل المغرب سنة١٧٢هـ/٧٨٨م نزل وليلي، فاجتمعت عليه قبائل البربر، فقدموه علي انفسهم، وبنو له مدينة فاس اما القلقشندي[٣] فينقل عن ابن سعيد المغربي ان فاس مدينتان بني احداهما ادريس بن عبدالله ،وتعرف بعدوة الاندلس ،وبنيت ا لأخري بعدها وتعرف بعدوة القرويين ويري بروفنسال[٤] استنادا علي قطعتين من العملات الادريسية احداها درهم ضرب في مدينة فاس سنة١٨٩هـ/٨٠٥م، والآخر ضرب في مدينة فاس في سنة١٨٥هـ/٨٠١م ،أن المدينة تأسست قبل سنة١٩٢هـ/٨٠٧م ، وأن هذه المدينة في عصر ادريس الأول، كانت لاتبدو أكثر من من انها مدينة بربرية صغيرة، و نظرالأن ادريس الثاني كان مولعا بالتجديد فقد بني هو الآخر في الجزء الواقع الي الغرب من فاس مدينة جديدة اطلق عليها اسم العالية، ثم عرفت فيما بعد بعدوة القرويين، وهذا الراي له وجاهته لاعتماده علي دليل مادي غير قابل للتشكيك

([1]) ابن أبي زرع : اللأنيس المطرب،ص٢٣ وما بعدها ،الجزنائي ، ابو الحسن علي: كتاب زهرة الآس في بناء مديتة فاس ،نشره الفرد بل، الجزائر١٩٢٢،ص١١ ومابعدها

([2]) ابن الأبار : الحلة السيراء،ج١،ص٥٥

([3]) القلقشندي،ابو العباس احمد :صبح الأعشي في صناعة الانشا،دار الكتب ،القاهرة١٣٣٢هـ ،ص

([4]) ليفي بروفنسال :الاسلام في المغرب والأندلس ،ص١ -ص٣٠

خشي هارون الرشيد تفاقم خطر إدريس ومحبة الناس له بعد أن نما إلى علمه أن إدريس قد عزم على غزو إفريقية، فعمل على التخلص منه، وفكر في إنفاذ جيش كثيف للقضاء عليه، لكنه عدل عن رأيه لبعد الشقة ووعورة الطريق من ناحية، ووجود الدولة الرستمية المستقلة عن العباسيين من ناحية أخرى، هذا فضلا عن اضطراب أحوال إفريقية، وانشغال ولاتها المهالبة بثورات البربر فيها، فأشار عليه يحيى البرمكي بأن يرسل إليه برجل معروف بالدهاء يحتال عليه ويغتاله، فبعث الرشيد سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ، وكان من موالي الخليفة المهدي، وزوده بكتاب إلى واليه على إفريقية، فاذن له هذا الوالي باجتياز حدود ولايته والسير إلى المغرب الأقصى حيث التقى بإدريس، وتظاهر بأنه متشيع لآل البيت، فاختصه وأكرمه وقربه إليه، ثم تحين الشماخ الفرصة لقتله، وقيل أنه دس له السم في قارورة مملوءة بالطيب، وقيل أنه سمه في سنون، وكان إدريس يشكو من ألم في أسنانه ولثته، وقيل أنه قدم له عنبًا مسمومًا، ولما تحقق الشماخ من تحقيق غرضه فر هاربًا إلى إبراهيم بن الأغلب، فكتب إبراهيم يخبر الرشيد باغتيال إدريس بن عبدالله سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م، فكافأ الرشيد الشماخ بتوليته بريد مصر وأخبارها[1].

وكان لإدريس أمة حامل تدعي كنزة، فانتظر أشياعه حتى وضعت بعد موته بشهرين ولدا ذكرًا اسموه إدريس، فالتفوا حوله، وهو يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة الادارسة.

لما بلغ إدريس الثاني الحادية عشر من عمره، بايعه البربر سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م بمدينة وليلي، ثم بايعته كافة قبائل المغرب، ومن بينها زناتة

---

(1) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١ ص١٠٠، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب ص١١٤.

وأوربة وصنهاجة، [١] ،وكرس إدريس الثاني جهده في محاربة الخوارج الصفرية الذين يشكلون تهديدا لدولته الناشئة، واستطاع ان يلحق بهم الهزيمة في مواقع كثيرة ، وضرب السكة باسمه، وقد أراد إبراهيم بن الأغلب أمير دولة الأغالبة محاربة إدريس الثاني، لكنه تراجع عن فكرته فقد عمل اتباعه على إبعاد هذه الفكرة لما يتمتع به إدريس الثاني من صلة قربى بالرسول ﷺ، وتوفى إدريس الثاني سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وهو في السادسة والثلاثين من عمره فخلفه ابنه محمد بن إدريس، وفي عهده انقسم أمراء هذا البيت على أنفسهم، حيث خرج عليه عيسى بن إدريس بمدينة آزمور، فاستعان محمد باخيه القاسم صاحب طنجة فأبى، فكتب إلى أخيه عمر فامتثل لأمره وسار لقتال عيسى على رأس جيش من البربر وأوقع به الهزيمة، ثم أمره بالزحف على طنجة فأحل الهزيمة بجيشها[٢].

ولم يلبث أن توفى محمد سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م، فخلفه ابنه على بن محمد وكان في التاسعة من عمره ولقب بحيدر وهو لقب علي بن أبي طالب، ولم يذكر لنا المؤرخون كثيراً عن دولة الإدارسة في عهد علي بن محمد الذي توفى سنة ٢٣٤هـ/٨٤٩م،

على أية حال خلفه أخوه يحيى بن محمد الذي امتد سلطانه، واتسعت دولته، وعظم في أيامه شأن مدينة فاس،فقد ازداد عمران فاس ، وقصد اليها الناس من أنحاء المغرب والأندلس، حتي ضاقت بساكنيها ، فابتني يحيي عدة أرباض خارجها ، واهتم بتزويدها بالحمامات والفنادق وانشئ جامع القرويين على يد السيدة فاطمة بنت محمد الفهري، وجامع فاس من

---

(1) البكري : المسالك ،ص٧٩٥ ،ابن ابي زرع : الانيس المطرب ،٢٣ –ص٢٧

(2) البكري: المسالك والممالك، ج٢ ص٧٩، ٨٠٦.

مساجد الإسلام المشهورة، وقد أصبح مركزا للعلم والدراسة من أول نشأته، ثم تحول بعد ذلك إلى جامعة، وهو أقدم جامعات الدنيا[1] وبعد وفاته تولى الحكم يحيى بن علي بن محمد بن إدريس، بن علي بن محمد وكان سيئ السيرة فثارت عليه العامة، فاختفى بعدوة الأندلس، ريثما تخمد الفتنة، وانتهت أخباره بموته، واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل، الذي تزعم الثورة على يحيى بن علي، على مدينة فاس، فكتبت زوجة يحيى إلى أبيها علي بن عمر بن إدريس صاحب الريف، وطلبت إليه الحضور لإخماد هذه الثورة، فجاء إلى فاس واستولى عليها، وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس الثاني، وأصبح في عقب القاسم بن إدريس الزاهد تارة أخرى.

ولم يلبث أن دخل أهل فاس حاضرة الأدارسة في طاعة علي بن عمر بن إدريس وخطب له على منابر المغرب، وثبتت أقدامه في هذه البلاد فترة من الزمن، حتى ثار عليه عبد الرازق الفهري أحد زعماء الخوارج الصفرية، وتبعه أهالي البلاد القريبة من مدينة فاس ففر علي بن عمر بن إدريس إلى قبيلة أوربة.

على أن فريقًا من أهل فاس بعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس ويعرف بالعوام، يطلبون منه الحضور إلى بلدهم، ولما وصل إليهم بايعوه على الطاعة، ففرغ وقته لحرب عبد الرازق الفهري، وارغمه على الخروج من عدوة الأندلس، فدخلها يحيى وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الأندلس الربضيين (نسبة إلى ربض مدينة قرطبة) واستمر يحيى بن القاسم في قتال الخوارج الصفرية، حتى قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م.

([1]) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب، ص ١١٥ - ١١٦

وكان من أثر الحروب المستمرة بين الأدارسة والخوارج الصفرية أن تأثرت بلاد المغرب الأقصى، فساءت أحوالها الاقتصادية والاجتماعية على حد سواء. ففي سنة ٢٥٣ هـ/٨٦٧م انتشر القحط ببلاد العدوة، وعانت البلاد من سبع سنين عجاف، و ما لبثت أن انتشرت الفتن في بلاد المغرب الأقصى وإفريقية، وانقسم الأدارسة على أنفسهم، حتى أن ابن خلدون شيخ مؤرخي المغرب، لم يستطع أن يحدد مبدأ ونهاية حكم الأمراء الأدارسة في هذه الفترة الغامضة والمضطربة.

ولما قتل يحيى بن القاسم تولى يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، وبايعه أهل فاس وخطب له على المنابر، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى، وكان يحيى من أبرز أعلام البيت الإدريسي، فلم يبلغ أحد من الأدارسة ما بلغه يحيى الرابع من سعة الملك وبسطة السلطان، حتى ظهر الفاطميون في إفريقية في أواخر القرن الثالث الهجري، الذين مدوا نفوذهم في بلاد المغرب الأقصى في عهد عبيد الله المهدي وخلفائه، وفي سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م غزا الفاطميون دولة الأدارسة بقيادة مصالة بن حبوس (قائد عبيد الله المهدي) وفتح تاهرت، وحلت الهزيمة بجيوش الأدارسة أمام الفاطميين، وانتهى الأمر بعقد معاهدة صلح بين الطرفين يتعهد فيها الأدارسة بتأدية بعض الأموال ومبايعة المهدي الفاطمي، وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الإدارسة، وانتهى أمر يحيى بالقبض عليه بواسطة الفاطميين ونفي في بلاد الريف وحبس حتى أطلق سراحه بعد عشرين سنة، فقصد افريقية ومات في المهدية سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م.

ولما قبض الفاطميون على مقاليد الأمور في المغرب الأقصى ولى القائد الفاطمي مصالة بن حبوس ريحان الكتامي على فاس، بيد أن ولايته لم تدم

طويلا، فثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم المعروف بالحجام سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢م واستولى على فاس وقتل ريحان، فبايعه الناس ودخلوا في طاعته، ثم مد نفوذه إلى ما جاوره من البلاد. ثم شرع الحجام في محاربة موسى بن أبي العافية (ابن عم مصالة)، الذي ولاه مصالة سائر بلاد المغرب الأقصى لمساعدته إياه على غزو هذه البلاد، ودارت بينهما معارك قتل فيها الحجام سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م واستولى موسى على ملك الأدارسة ببلاد المغرب.

على أن موسى بن أبي العافية لم يلبث أن خلع طاعة الفاطميين، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس (٣٠٠ -٣٥٠هـ/٩١٢ - ٩٦١م) الذي طمع في امتلاك المغرب الأقصى، واستولى على سبتة ، وارغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده، ولما علم عبيد الله المهدي بذلك أرسل جيشًا من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن يصليت صاحب تاهرت، وابن أخي مصالة بن حبوس، وانتهت الحرب بفرار موسى من مدينة فاس فولى عليها حميد أحد قواده، ولكنه لم يلبث أن قتل بعد وفاة عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣مـ علي يد أحد الثوار الذي بعث برأسه وبإبنه إلى موسى بن أبي العافية ،الذي أرسله بدوره إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة، وخطب للأمويين في بلاد المغرب من جديد[1].ثم ما لبث أن استرد الفاطميون مدينة فاس مرة أخرى، وخطب فيها للخليفة القائم وضربت السكة باسمه، وقبض على واليها أحمد بن بكر، وولّى الحسن بن القاسم اللواتي، واستمرت ولايته على هذه المدينة حتى أطلق سراح أحمد بن بكر من محبسه في المهدية سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م، فسار إلى فاس وأقام بها متنكرا حتى تمكن من خلع الحسن بن القاسم وتولى أمرة فاس.

---

[1] البكري: المسالك والممالك، ج٢ ص٨١٠

ومما يجدر ذكره أن موسى بن أبي العافية عندما فر من الجيوش الفاطمية كما سبق أن ذكرنا، لجأ إلى حصن اليكاي، واستفحل خطره، وبدأ ينشر الدعوة للأمويين في شمال المغرب، ثم خلفه ابنه إبراهيم بعد وفاته، واستمرت عائلته بني العافية في الدعوة للأمويين في بلاد المغرب الأقصى حتى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م، بعد أن حكمت مائة وأربعين عامًا (٣٠٥/٩١٧ – ٤٤٥هـ/١٠٥٣مـ)، ثم استمر نفوذهم في أطراف المغرب حتى قضى عليهم يوسف بن تاشفين.

ونتيجة للضغط الفاطمي تحولت دولة الأدارسة إلى بلاد الريف، ولم تتمتع هناك بالاستقلال الذي تمتعت به في فاس، حتى طردهم موسى بن أبي العافية، واستأثر بالنفوذ في المغربيين الأقصى والأوسط، وعندما فر موسى بن أبي العافية إلى الصحراء، انتقلت السلطة في بلاد المغرب إلى القاسم وإبراهيم أخوى الحسن بن محمد بن إدريس آخر أمراء الأدارسة بفاس، وبايع أهالي هذه البلاد القاسم بن الحسن الذي ملك أكثر بلاد المغرب عدا فاس، واتخذ قلعة حجر النسر مقرًا لإمارته، وأخذ في نشر الدعوة الشيعية حتى توفى سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨م ،فخلفه ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم، بيد أنه لم يلبث أبو العيش، أن دعا إلى الأمويين في الأندلس وقطع دعوة الفاطميين وانتشر نفوذه في كافة بلاد المغرب الأقصى حتى سجلماسة، ثم طمع عبد الرحمن الثالث في امتلاك طنجة من أبي العيش وضمها إلى سبتة، وكان قد استولى عليها من قبل فأبى أبو العيش، ولكنه اضطر إلى الاذعان بعد أن أرسل إليه الخليفة الأموي جيشًا واسطولاً حاصراه، وضيقا عليه الخناق، فزاد نفوذ الأمويين ببلاد المغرب الأقصى، حتى توفي أبو العيش سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م .

خلف ابو العيش أبو القاسم بن محمد بن القاسم بن كنون، ويلقب بكنون، أخاه أبا العيش الذي استخلفه على بلاد المغرب ،حين سار مع عبد الرحمن الناصر لجهاد الفرنجة في الأندلس وكان القاسم آخر الأمراء الأدارسة في المغرب الأقصى التي زالت في عهده دولتهم على أيدي الفاطميين.

وصفوة القول أن علاقات الأدارسة بالدولة الأموية في الأندلس، اتسمت با لعداء طوال عصر الإمارة، لكنها تراوحت بين الود والعداء في عصر الخلافة،و حاول الأدارسة الأواخر الإفادة من الصراع الفاطمي الأموي في المغرب الأقصى، لاسترداد نفوذهم والحفاظ على عروشهم، بيد أن انسحاب الفاطميين من المغرب إلى مصر ترك الأدارسة لقمة سائغة لأموي الأندلس، الذين لم يدخروا وسعًا في إسقاط دولتهم بالمغرب الأقصى.

وقد امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس الأقصى إلى تلمسان، وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ببلاد المغرب الأقصى، وقد زال حكمهم بعد أن حكموا قرنين وثلاث سنين (١٧٢/٧٨٨ – ٣٧٥هـ/٩٨٥م).

ومهما يكن من أمر فقد نجح الأدارسة في إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنبا إلى جنب، واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة أن ييمموا أبصارهم إلى حركة الجهاد المقدس، بقصد إتمام إسلام البلاد، كما عمل الادارسة علي محاربة العقائد الشاذة، والقضاء على بقايا النصرانية واليهودية المنتشرة بين قبائل المغرب الأقصى، فانقضوا على المصامدة يردونهم إلى حظيرة الإسلام، وتوسعوا شرقًا حتى تلمسان، وبسطوا نفوذهم على إقليم الريف، وعلى إقليم مكناس وفاس حتى منطقة

الأطلس الأوسط، كما فتحت بلاد نفيس وتامسنا، وشالة، وماسة وتادلة[1]. ، وعلي الرغم من أن دولة الأدارسة دولة شيعية زيدية ، الا أن مذهب مالك كان له حضوره الواضح في هذه الدولة ،فقد قال ادريس الاول عن الامام مالك:"نحن أحق باتباع مذهبه وقراءة كتابه" ، ولعل ذلك مرده الي التقارب بين المذهب الزيدي ومذاهب أهل السنة .

وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ البلاد، فقد أضحت مركزًا رئيسيًا للثقافة العربية الإسلامية، يؤمها العلماء والتجار من كل حدب وصوب، وبدأت مدارس فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من مدارس القيروان، وأخذت تكون شخصيتها المستقلة وتبث العلم في ربوع ذلك القطر النائي، وكان الأدارسة أنفسهم يشجعون هذه الحركة العلمية بتأييدهم وتشجيعهم للعلم والعلماء، إذ كان لهم الفضل في نشر اللغة العربية في البلاد وإحلالها محل لغة البربر، وعلى الرغم من أن الأدارسة زال ملكهم بعد أن حكموا أكثر من قرنين من الزمان ونيف، إلا أنهم أسهموا في خدمة العالم الإسلامي في المغرب الأقصى، وقاموا بدور عظيم في انتشار الإسلام في غرب إفريقيا ويعزي إليهم الفضل في نشر الإسلام في حوض السنغال.

---

[1] حسن خضيري : اهم مراكز تجارة الصحراء ،ص٤

رابعًا: دولة الأغالبة في المغرب الأدنى
(١٨٤-٢٩٦هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩م)

كان قيام دولة الأغالبة في إفريقية، تجربة جديدة في نظم الحكم الإسلامية، وللمرة الأولى تعهد الخلافة إلى رجل من المغرب في الانفراد بولاية من ولاياتها ليحكمها حكمًا شبه مستقل في نظير مبلغ قليل من المال، إلى جانب التعهد بالبقاء على الطاعة والولاء للدولة العباسية، وتنسب هذه الدولة إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي، وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قد ولى أباه الأغلب على إفريقية سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م بغرض القضاء على المنازعات بين العرب والبربر الخوارج من ناحية، وسحق الفتن والاضطرابات بين المضرية واليمنية من ناحية أخرى[1].

وقد قتل الأغلب في الصراع بين رجال الدولة العباسية والخوارج، وكان ابنه إبراهيم مقيمًا في إقليم الزاب مع قومه من تميم، فلما قتل أبوه أصبح هو واليًا على الزاب، وكان شابًا نشيطًا ذكيًا ، وكان من رجال الدنيا الأفذاذ في العلم والسياسة وحسن التدبير والدراية بالحروب ،أعجب به هرثمة بن أعين لنشاطه وذكائه وفصاحته، ويبدو أن هرثمة هو الذي توسط بين هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب، وكانت الخلافة العباسية قد أعيتها الحيلة في شأن إفريقية، وتمكنت بعد جهود مضنية من المحافظة عليها في إطار السنة والجماعة وإبعاد الخوارج عنها، هذا فضلا أن إبراهيم بن الأغلب كان شابًا طموحًا يرى نفسه أهلا للولاية، وطمحت نفسه إلى الانفراد بشئون إفريقية مع بقائه على الولاء للبيت العباسي، واتفق طموحه مع ما

---

[1] ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١ ص٦٨ -٧١

كانت االخلافة العباسية تسعى إليه من وضع أمور إفريقية في يد أمينة وتستريح من تكاليف نفقاتها عليها ، على هذا الأساس تم الاتفاق بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد(١)

عول ابراهيم بن الاغلب علي اتخاذ قاعدة حصينة لتكون عاصمة لدولته، وراعي في اختيارها ان تكون بمثاية حاضرة سياسية وعسكرية، فوقع اختياره علي موقع جنوب القيروان وأسس في سنة١٨٤هـ/٨٠٦م مدينة أطلق عليها اسم العباسية ،ثم عرفت فيما بعد بالقصر القديم ،وكانت هذه المدينة متكاملة ،فيها قصور الأمير واهل بيته ومساكن خدمه وحاشيته ومعسكرات جنده ،هذا الي جانب الأسواق والمسا جد حيث كان المسجد الجامع يمثل محورا رئيسيا من محاور تخطيط المدينة ، وكان يقع وسط المدينة واحيطت المدينة بسورشامخ منيع يمثل خط الدفاع الواقي للمدينة ، ويمكن من خلاله التحكم الجيد في الدخول والخروج من المدينة ، والسيطرة علي كل جزء منها ، وفي اطار الدفاع عن دولته حرص علي اتخاذ جيش قوي حتي تظل دولته مرهوبة الجانب ورأي ابن الأغلب ضرورة الاعتماد علي جند خاص به ، يدينون له بالطاعة والولاء فاصطفي جيشه من البربر المستعربة والصقالبة، واتخذ لنفسه حرسا خاصا من السودان .

ولم تلبث أن اندلعت الثورات في ربوع المغرب وعادت إلى سيرتها الأولى، فثار عليه رجل من أبناء العرب يدعي حمديس بن عبد الرحمن الكندي، وهو من عرب مدينة تونس سنة ١٨٦هـ / ٨٠٢م ، فبعث إليه إبراهيم بن الأغلب قائدًا من قواده يدعى عمران بن مجالد الربيعي العامري في جيش كبير، فحلت الهزيمة بحمديس وقتل من جنده الكثير وأعاد عمران فتح تونس، وتتابعت

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج٥ ص١٠٤، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ١٩٦٨، ص١٣٣

الثورات بعد ذلك، فقامت ثورة في طرابلس سنة ١٨٩هـ / ٨٠٤م وكانت طرابلس تابعة لولاية إفريقية، وحدث أن أهلها تبرموا من واليهم سفيان بن المضاء، وكان قد تولى طرابلس للمرة الرابعة، فهاجموه وقتلوه في المسجد وقتلوا أصحابه واختاروا من بينهم رجلا أمروه عليهم، يدعى إبراهيم ابن سفيان التميمي، بيد انه لم يستطع أن يضع الأمور في نصابها نظرًا لقيام النزاع بين العرب والأبناء[1]، وأنهى إبراهيم بن الأغلب هذا النزاع بتجريد حملة عسكرية إليهم وأحضر المتنازعين إليه في القيروان وعقد الصلح بينهم.

ويذكر أنه وقع بين الأبناء بطرابلس وبين قوم يعرفون ببني أبي كنانة وبني يوسف حروب كثيرة وقتال، حتى عم الفساد مدينة طرابلس، فبلغ ذلك الصراع إبراهيم بن الأغلب، فأرسل إليهم جمعًا من الجند، وأمرهم أن يحضروا الأبناء وبني أبي كنانة وبني يوسف، فأحضروهم إليه بالقيروان، وعندما قدموا عليه سألوه العفو فيما فعلوا فعفا عنهم، وعادوا إلى بلادهم، وقد تمكن الجند الذين بعثهم ابن الأغلب إلى طرابلس من تهدئة تلك الثورة بالقوة، وأقرار الوالي الأغلبي إبراهيم بن سفيان بعد أن تعهد لهم بالطاعة، الذي ظل في منصبه حتى سنة ١٩٦هـ / ٨١١م[2]، وفي هذه السنة ثار على إبراهيم بن الأغلب شخص يدعى أبو عصام استطاع أن يضم حوله الأتباع ويعلنها ثورة على إبراهيم بن الأغلب، بيد أن الأخير استطاع أن يرسل إليه الجند فظفروا بأبي عصام وأصحابه، وفي نفس السنة ١٩٦هـ / ٨١١م

---

(1) يرجع استاذنا الدكتور سعد زغلول تاريخ المغرب، ج٢ ص٣٦٨ الجند الأغالبة أو المماليك، الذي كان يشتريهم ابن الأغلب، ويبدو أن المقصود بالأبناء هو أبناء الجند العرب الذي استقروا في المغرب بعد فتحة ووتزاوجوامن بنات البربروأصبحوا واصبحوا يجمعون بين الدم العربي من العرب الذين استقروا في المغرب بعد فتحه، وتزاوجوا من بنات البربر وأصبحوا يجمعون بين الدم البربري أيضاً.

(2) ابن عذارى: البيان، ج١ ص١٢٠.

استعمل إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله عاملا على طرابلس، فلما قدم إلى طرابلس ثار عليه الجند، وحاصروه في داره، ثم اتفقوا معه على أن يخرج من طرابلس، فخرج منها، ولكنه لم يبتعد عن مدينة طرابلس كثيرا، حتى اجتمع إليه كثير من الناس، وذلك بعد أن أغرى البربر بالعطاء، فكان يعطي الفارس كل يوم أربعة دراهم، ويعطي الراجل درهمين، ونتيجة لتلك السياسة احتشد حوله عدد كبير من البربر زحف بهم على طرابلس، وعندما علم جند طرابلس بقدومه خرجوا عليه، فالتقى الجمعان خارج مدينة طرابلس، ودارت رحى المعركة، وكان النصر فيها لجند عبد الله بن الأغلب[1]، وهكذا استطاع عبد الله أن يدخل مدينة طرابلس ويأمن من بها من السكان.

على أن عبد الله لم يطل به المقام طويلا بطرابلس، إذ عزله والده واستعمل بدلا منه سفيان بن المضاء، وذلك لكي يرضي هوارة ويخمد ثورتها، بيد أن ذلك الوضع لم يرض هوارة، فأعلنت الثورة على والي إبراهيم الجديد سنة ١٩٦هـ / ٨١١م، ومما يجدر ذكره أن قبيلة هوارة البربرية كانت كثيرة الأفخاذ، ذات جموع كثيرة، وتحيط منازلها بطرابلس من كل ناحية، وكان بين المدينة وجبل نفوسه قرى متصلة العمران، هذا فضلا أن هذه القبيلة كانت أباضية المذهب وأكثرها خاضع لحكم أبي منصور، صاحب جبل نفوسه، الذي كان خاضعًا للإمامة الاباضية بتاهرت، وكان بعض هذه القبيلة خاضعًا لحكم الأغالبة بمدينة طرابلس، وقد وقع بينهم وبين عامل الأغالبة، بطرابلس خلاف أدى إلى تعصبهم عليه، وأخذوا يتحينون الفرصة للاستيلاء على مدينة طرابلس، وجعلها تابعة

---

(1) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٣٢

لصاحب جبل نفوسة فثاروا عليه في هذه السنة، وما كان من عامل طرابلس إلا أن خرج إليهم بعساكره، وتمكن من إخماد ثورتهم وهزيمة جند طرابلس الذين قرروا العودة إلى مدينة طرابلس بعد هزيمتهم أمام قبيلة هوارة، بيد أن هذه القبيلة لم تترك الجيش يعود أدراجه إلى طرابلس دون أن تتعقبه، وبالفعل حاصر جندها مدينة طرابلس، ثم افتتحوها وهدموا أسوارها[١].

وعندما وصلت تلك الأنباء إلى إبراهيم بن الأغلب، أرسل ابنه أبا العباس في جيش قوامه ثلاثة عشر ألف فارس إلى طرابلس، حيث تمكن من استرداد المدينة منهم، وجدد بناء سورها، بيد أن هوارة ما لبثت أن استعانت بقبائل نفوسة الاباضية، وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن إذ ذاك بجبل نفوسة فاستجاب لهم، وحشد حوله البربر، وحرضهم على الانضمام إلى صفوف المتطوعين، وضرب على طرابلس الحصار، فما كان من أبي العباس عبد الله إلا أن سد باب زناتة وقاتهلم عند باب هوارة، وذلك لكي يواجه الإباضية من جبهة واحدة، وبينما كان عبد الله يقاتل الاباضية جاءته الأخبار بوفاة والده، مما اضطره أن يعقد صلحا مع عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وتم الاتفاق بين الطرفين على أن تكون مدينة طرابلس والبحر لعبد الله بن الأغلب، وخارج السور إلى سرت لابن رستم.

وهكذا اضطر عبد الله إلى التسليم بمطالب الرستميين في انضمام أباضية هوارة إلى دولتهم وانسلاخهم عن نفوذ عامل طرابلس الأغلبي، وقبل أن يتوجه ابن الأغلب إلى تونس أقر سفيان بن أبي المهاجر على القسم الخاص بالأغالبة في طرابلس، ثم سار إلى القيروان ليتقلد الإمارة مكان أبيه، فلقيه الناس، وتسلم الأمر هناك.

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص١٠٤، ص١٣٢،١٣٣ عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا، ص٢١١

وكان علي إبراهيم بن الأغلب ان يواجه خطرا آخرا وهو خطر الأدارسة في بلاد المغرب، فعمل على القضاء عليهم ليأمن شرهم، فقد بلغه أنه قد كثر أتباع إدريس بن إدريس، لكن أصحاب إبراهيم نصحوه بالعدول عن هذه الفكرة لما لإدريس من نسب من رسول الله ﷺ كما انه لم يبدؤه بمناصبة العداء.

ومهما يكن من أمر فإن إبراهيم بن الأغلب قد بلغ شأوا عظيمًا لحصافة الأمر الذي جعل بعد الروايات تقول أن شارلمان لجأ إلى مخاطبته شخصيًا دون الرجوع إلى الخليفة العباسي وساد البلاد في عصره امن ورخاء ، فعمرت المدن ، وأمنت السابلة، وبدأت شخصية افريقية في الظهور ،وكثر أهل العلم ،وتحولت افريقية إلي قاعدة قوية من قواعد حضارة الإسلام .

توفي إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦هـ/٨١١م وتولي بعده ابنه عبدا لله الأول وأقره الخليفة المأمون العباسي بعد مقتل أخيه الأمين، وكان عبدا لله سيئ السيرة فقد أساء معاملة أخيه زيادة الله، كما اشتط في جمع الضرائب حتى قيل أنه فرض على كل فدان ثمانية عشرة ديناراً في السنة، وكانت معاملته للرعية تنطوي على كثير من الظلم والجور ،وسلك بالبلاد مسلك الخشونة والعنف ،وحاد عن سنن أبيه. . ولم يدم حكم عبد الله طويلا فقد مرض وما لبث أن توفي سنة ٢٠١هـ / ٨١٦م بعد أن حكم خمس سنوات(١).

وخلف عبد الله الأول أخوه زيادة الله الأول سنة ٢٠١هـ / ٨١٦م، ولكنه لم يتوخ العدل في معاملة رعيته، فمضت السنوات الست الأولى من حكمه في هدوء نسبي وضاق الناس ذرعًا باستهتاره، فثارت عليه جميع النواحي، وتقلص حكمه عن إفريقية ما عدا طرابلس وقابس والقيروان الذين

---

(1) ابن عذاري: البيان، ج١، ص٩٥، المالكي: رياض النفوس ج١، ص٣٣٨.

تمسكوا به ولم يقطعوا عنه الجباية، وما أن حلت سنه ٢٠٧هـ/٨٢٢م حتى اندلعت الثورات بتونس واضطربت الأحوال بإفريقية لسوء سيرته، وكان زعيم المتمردين هو منصور بن نصير الطنبذي الذي ثار بتونس، واتجه منها إلى القيروان وحاصرها، وسبب كثيرا من المتاعب لزيادة الله الذي تمكن في النهاية من هزيمته سنة ٢٠٨هـ/٨٢٣م ، ثم لم يلبث الطنبذي أن عاد مرة أخرى وحاصر القيروان وضرب في القيروان السكة باسمه، وهددت سلطان الاغالبة وبدأ نجم زيادة الله في الأفول وتضاءلت ولايته، وظلت ثورة الطنبذي مشبوبة سنين عددا ،وكادت تطيح بدولة الأغالبة لولا خروج عامر بن نافع قائد الجيش علي منصور الطنبذي وقتله نتيجة للخلاف الذي دب بينهما، ثم ما لبث ان توفي عامر بن نافع في سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م، وبذلك أمنت دولة الأغالبة وزيادة الله من خطرهم و استقامت الاحوال في افريقية[١].

ومما يذكر لزيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بالخير هو شروعه في فتح جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م في عهد الخليفة المأمون، وكان المسلمون منذ عهد معاوية بن أبي سفيان يؤملون فتحها، وشرع وإليه على إفريقية في هذا الأمر، لكنه فشل ثم عاود المسلمون الكرة في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك لكن لم يلبثوا بها، وكذلك في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م، كما هاجم المسلمون الجزيرة في سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م و في سنة ١٣٠هـ / ٧٤٧م، ولكن كل هذه الغزوات كان القصد منها كسب المغانم وتأمين قواعدهم من هجمات الروم وليس الاستيلاء والفتح.

---

[1] النويري: نهاية الادب، ج٢٤، ص١١٤، ابن عذاري : البيان ، ج١، ص١٢٤

فتح صقلية:

على أن أعظم أعمال زيادة الله قاطبة هي عنايته الفائقة بالأسطول الإسلامي، الأمر الذي جعل اسمه في التاريخ يرتبط بفتح جزيرة صقلية ، فقد تكاثر جنده، وأصبحوا يسببون له المتاعب، ثم إنه ورث عن أبيه ملكًا مستقرًا وثروة طائلة فتاقت نفسه إلى أن يجدد تقليد الجهاد الإسلامي، وكانت أحوال صقلية الداخلية سيئة فقد كانت صقلية في ذيَّاك الوقت من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية يحكمها بطريق، أي قائد عسكري يسمى بيلاتوس، ويسميه العرب «بلاطه» يعتمد على قوّة عسكرية قليلة، وكان يرهق السكان بمطالبه المالية، فكانوا في حالة تذمر عليه وضيق بالحكم البيزنطي كله، أي أن الجزيرة في الحقيقة كانت منطقة فراغ سياسي[1].

على أن السبب المباشر الذي جعل زيادة الله يسرع بإرسال الحملة إلى صقلية هو أن قائدًا روميا يسمى «يوفيميوس Euphemius (فيمي)» ثار على الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٩م) واستقل بشرق الجزيرة وتحصن في سرقوسة، وأرسل يستنجد بزيادة الله مقابل أن يدين له بالطاعة ويؤدي الجزية، فاستجاب لصريخه وعجل بتسيير الجند، وقد دعا زيادة الله ابن الأغلب لفتح صقلية جنده الكثيرين فتوافدوا عليه جماعات ووحدانا،

---

[1] حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص٨٨.

وتجمعوا في ميناء تونس، وميناء سوسة واختار لقيادة الجيوش الفاتحة فقيها مالكيا هو القاضي أسد بن الفرات (ت٢١٣هـ / ٨٢٨م) [١].

على أية حال كان أسد في السبعين من عمره، وخرج بالكتلة الكبيرة من القوة الإسلامية من تونس ونزل في ميناء «مازر» Mazra على الساحل الجنوبي لصقلية حيث أوقع الهزيمة بالروم، وفي نفس الوقت خرجت قوة أخرى من ميناء سوسة ونزلت في ميناء في أقصى الساحل الجنوبي إلى الشرق يسمى «رجوسة»، وذلك لنجدة القائد البيزنطي الذي خرج على سلطة البيزنطيين واستنجد بالمسلمين كما ذكرنا، ومن هنا نرى أن المسلمين نزلوا في موضعين من جنوب شبه الجزيرة هما (مازر ورجوسة).

كان ينبغي على أسد بن الفرات، بعد أن تمكن من موقع مازر أن يسير رأسًا إلى العاصمة بلرم Palermo ويستولي عليها، وبذلك يقضي على رأس المقاومة البيزنطية ، ولكنه بدلاً من ذلك اتجه إلى جرجنت Agregenta واستولى عليها. ومن هناك اتجه إلى وسط الجزيرة واستولى على قصريانه، ثم اتجه شرقًا قاصدًا سرقوسة ليعين حليف المسلمين (فيمي)، وحاصر سرقوسة وفي أثناء الحصار نزل بالمسلمين وباء شديد هلك فيه خلق كثير وأصاب الجيش وقضى على ألوف من المسلمين، من بينهم أسد بن الفرات قائد الحملة، وخرج الحاكم البيزنطي بيلاتوس وهاجم قصريانة، فقطع

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٥، ص١٨٦، النويري: نهاية الأرب، ج٢٤، ص٣٥٦، ابن عذاري: البيان، ج١، ص١٣٢، وحسن خضيري: مدينة بلرم وحياتها الفكرية في عصر السيادة الفاطمية، مجلة المؤرخ المصري كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٢٤ يناير ٢٠١، ص٨٩.

بذلك مواصلات المسلمين واضطرهم إلى الارتداد مسرعين عن سرقوسة، وتحصنوا في حصن قريب منها يسمى «مناو» وأصبح مركزهم حرجًا[١].

وفي تلك الظروف العصيبة التي أحاطت بالمسلمين حدث أمر لم يكن في الحسبان ذلك أن أسطولا من الأندلس بقيادة أمير البحر أصبغ بن وكيل المعروف باسم فرغوش، وصل إلى شوطئ الجزيرة في أول سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م فأسرع إلى نجدة المسلمين المحاصرين، وتولى بنفسه قيادة القوات الإسلامية، واتجه المسلمون إلى قصريانة وأعدواالعدة للاستيلاء عليها، ثم سار أصبغ نحو بلرم واستولى عليها،بعد حصار للمدينة دام عاما ، واستسلم والي المدينة البيزنطي بعد اشتداد الحصار في المدينة المحاصرة ، ويعتبر فتح بلرم بداية النهاية لنفوذ البيزنطيين في صقلية، وفي الحقيقة لم يكن استيلاء المسلمين على بلرم إلا فاتحة سير بطيء، كثير المراحل والوقفات والتقهقرات، غير مكتف بصقلية ساحة، بل متفرع إلى شتى الأصواب[٢]

لما تم للعرب فتح معظم جزيرة صقلية ، عولوا علي اتخاذ مدينة بلرم حاضرة لهم ،بدلا من مدينة سرقوسة الواقعة علي ساحل الجزيرة الشرقي ، ويبدو أن اختيار العرب هذا كان مرده الي عوامل أمنية واستراتيجية في المقام الاول ، وقدر لهذه المدينة بفضل موقعها الاستراتيجي الممتاز، وجغرافيتها الطبيعية أن تلعب دورا أساسيا في شئون صقلية، بيد أن هذا الموقع كان

---

(1) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص٨٩ وكذلك.
(800-1713) New » Medieval Sicily«-Smith, D.Mack: A History of Sicily york press, 1968, pp.5-24.

(2) مارتينو ما ريو مروينو: المسلمن في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٥، ص١١، حسن خضيري، مدينة بلرم، ص٨٩ ، ٩٠

Ibid ,p.450(٤)

وبالا عليها في بعض العهود، حيث كانت هدفا لفينيقيين واليونانيين معا، وأسس الفينيقيون مستعمرة علي خليج بلرم عرفت باسم مشنات (Machanat)، أي بمعني المرسي الأمين[١]، ويرجح أحد الباحثين[٢] أن اسم بلرم مشتق من هذه التسمية.

وأدي اتساع الحضارة الاسلامية ،ودعم مدينة بلرم بالجيوش ، وازدياد عدد المهاجرين اليها من الأندلس، ومصر وبلاد الشام، ان اكتظت المدينة بالسكان، ويعطينا الراهب ثيودوسيوس[٣] وصفا شائقا لمدينة بلرم التي زارها بعد نصف قرن من اتخاذها حاضرة للعرب في صقلية بقوله:"مدينة شهيرة، كثيرة السكان من اصليين وأجانب، وهي تبدو وكأن المسلمين تدفقوا لاستيطانها من الشرق الي الغرب،ومن الشمال الي البحر ،حتي أنها لم تعد تتسع للمهاجرين الجدد .."

ويعتبر فتح صقلية حدثًا هامًا في تاريخ البحرية الإسلامية، إذ جعل مفتاح حوض البحر الأبيض المتوسط الأوسط والغربي في أيدي المسلمين، وكان يمكنهم لو أحسنوا الإفادة منه تهديد إيطاليا معقل الكنيسة الكاثوليكية وعلى الرغم من أن الأمر في صقلية لم يستقر للمسلمين تمامًا إلا خلال فترة قصيرة، إلا أن تلك الجزيرة الكبيرة تحولت شيئًا فشيئًا إلى بلد إسلامي، تسوده الحضارة الإسلامية، رغم قلة أعداد المسلمين الذين دخلوها، وتحولت حاضرتها بلرم (Palermo)، إلى مركز من مراكز

---

(1)Finley .MI:Ancient Sicily to the Arab Conquest,New York press,1968,pp5-24.
Freeman,Edward,A: The Normans at Palermo: in Historical Essays(third Series), New York,1892,p.449

(2) حسين خضيري: مدينة بلرم،ص٩٠ ، وراجع :
Freeman:op.cit.,pp.449-450

(3)- Smith : A History of Sicily, V. I, P. 7 - Freeman : OP.cit., p.450

الثقافة العربية، استقطبت العلماء وطلاب الرحلة من كل حدب وصوب، وبلغت شأواً عظيمًا في ظل الحكم العربي الإسلامي، حيث ظهرت فيها نهضة داخلية، وصارت أهم قاعدة حربية، وتمتعت بنوع من الحكم الذاتي، وإن تبعت اسميا حكام إفريقية، كذلك كانت الثغر الأكبر الذي تقلع منه الأساطيل الإسلامية، للإغارة على الشواطئ الإيطالية، وباقي الممتلكات البيزنطية في الجزيرة، مما جعل الحوض الأوسط للبحر المتوسط والبحر التيراني تحت رحمة المغاربة المسلمين[1]، وفي هذه المدينة عاش وعمل بعد سقوط صقلية في يد النورمان -الجغرافي المشهور «الشريف الإدريسي» الذي كان أول من صنع كرة أرضية، وصاحب الكتاب المشهور «نزهة المشتاق في اختراق الأفاق».

تولى إمارة إفريقية بعد موت زيادة الله أخوه أبو عقال الأغلب سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م، وكان ثالث أبناء إبراهيم بن الأغلب، وفي عهده لم يحدث شيء يذكر ولم تزد ولايته عن سنتين وتسعة أشهر، وصلحت أحوال الدولة في عهده وحسنت سيرته، وظهر عدله حتي توفي سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م، فخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول سنة ٢٢٦هـ / ٨٤٠م،[2] وقد تخللت عهده الكثير من الحوادث، ذلك أن أخا له يدعى أحمد حاول اغتصاب الإمارة منه وما أن فرغ محمد من ثورة أخيه، حتى قام سالم بن غلبون سنة ٢٢٣ هـ/٨٣٧م أمير الزاب بالثورة عليه، وكان محمد الأول قد عزله من الإمارة، كما خرج عليه أيضًا سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٨م عمرو بن سليم التجيبي الذي تفاقم خطره، وعلى كل فقد استطاع محمد الأول القضاء على هذه الثورات، وأمسى

---

(1) حسن مؤنس : تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، ص٧٣

(2) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٥، ابن عذاري : البيان، ج١، ص١٣٩

متفرغاً لفتح بعض المدن الصقلية التي لم تكن قد فتحت بعد، والظاهر أن المسلمين كانوا يستتولون على المدن، ثم لا يلبثوا أن يتركوها تحت ضغط الهجمات المضادة الرومية، والواقع أن أسلوب غزو المسلمين لصقلية لم يكن حاسماً بل كانت حرب كر وفر.

وفي سنة ٢٤٢هـ /٨٥٦م توفى محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشر سنة وثمانية أشهر، وخلفه ولده أحمد سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م وكان حسن السيرة كريم الأخلاق لكنه لم يلبث في الإمارة طويلا فمات سنة ٢٤٩هـ / ٨٦٣م، فخلفه أخوه زيادة الله الثاني بن محمد الذي مات بدوره في نفس السنة[1].

وتولى أمارة الدولة الأغلبية بعد ذلك ابن أخيه زيادة الله الثاني بن محمد سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م الذين لقب بأبي الغرانيق لأنه كان مولعا بصيد الغرانيق، حتى انه بنى قصرا يخرج إليه ليصيدها، وكان يتصف بحسن السيرة ولم يقع في عهده ما يستحق الذكر، سوى متابعة فتح صقلية، وتوفى أبو الغرانيق سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م بعد أن حكم عشر سنين ونصف، عاصر خلالها العباسيين المستعين والمعز والمهدي والمعتمد، وأقره كل منهم على ولايته.

ثم تولى الحكم بعد أبي الغرانيق أخوه إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م[2] وهو أطول أمراء الأغالبة في إفريقية عهداً بالإمارة، وقد وقعت في عهده أموراً كثيرة، منها أنه اغتصب الولاية من ابن أخيه أبي عقال بن محمد الثاني ولم يمض عليه في الإمارة سوى أيام، ثم شرع في بناء مدينة رقادة سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٦م علي بعد أميال جنوبي القيروان،وصارت هذه المدينة مقرا للامراء حتي نهاية الدولة، ودعيت

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، ج١، ص٣٥٠، ابن عذاري : البيان، ج١، ص١٤٤.

(2) ابن عذارة : البيان ، ج١، ص١٥٠

بالقصر الجديد، وتفرغ الي المضي علي سياسة الفتح اسوة باخيه ،فسير جيوشه لاكمال الفتح في جزيرة صقلية وايطاليا، وفتح سرقوسة نهائيا حيث سقطت في ايدي المسلمين سنة ٢٧٤هـ / ٨٨٧م[1]، ومن اعماله ايضا تنكيله بالموالي بالقصر القديم، لأنهم ثاروا عليه ثم هزيمته للعباس بن أحمد ابن طولون سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠م[2]، وتعتبر الحرب التي دارت بين إبراهيم الثاني والعباس بن أحمد بن طولون الذي خرج على طاعة أبيه من أهم أحداث عصر إبراهيم الثاني، فقد أراد العباس بن أحمد ابن طولون الاستيلاء علي دولة الاغالبة، فسار في جيش التقي بجيش الاغالبة وحلت الهزيمة بالعباس بعد أن استطاع فتح بعض البلدان وهو في طريقة إلى القيروان، واضطر العباس أن يعود قافلا إلى برقة. وتوفى إبراهيم الثاني سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٢م ودفن في صقلية[3].

وبويع من بعده ابنه أبو العباس بن إبراهيم الثاني، لكنه لم يبق في الإمارة سوى ستة أشهر، حيث قتل بيد غلمانه، وقيل أن هذه الحادثة كانت من تدبير ابنه زيادة الله الثالث، وكان أبوه قد قبض عليه وحبسه عندما تبادر إلى مسامعه أنه يريد الخروج عليه طمعًا في الحكم، وتولي الحكم زيادة الله الثالث سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٣م آخر أمراء الدولة الاغلبية في بلاد المغرب، وفي عهده وصل أبو عبد الله الشيعي داعي الفاطميين إلى بلاد المغرب، حيث وجد الأمور ممهدة له، كما وجد التشيع لآل البيت قد استقر في عقول كثير من أهلها، وأعتنقه كثير من وزراء الأغالبة، هذا فضلا أن الدول

---

(1) ابن عذاري: البيان، ج١، ص١٥٠.

(2) Smith, op.cit., pp,22-23

(3) ابن عذاري : البيان ، ج١، ص ١٧٨ -١٧٩

الأغلبية كانت في الواقع في دور الاحتضار لضعفها الشديد فوقع في يده كثير من المدن، كما عرف عن زيادة الله حبه لللهو و الترف، وكثر المتشيعون للفاطميين في افرادحاشيته، الذين ساعدوا علي إزالة سلطان الأغالبة[1]، وكان من الطبيعي أن يمتد نفوذ الفاطميين إلى أكثر اجزاء هذه البلاد، وفي سنة ٢٩١هـ / ٩٠٤م غدا الفاطميون أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان أكبر مدن بلاد المغرب، ولما علم زيادة الله بازدياد خطر الفاطميين فر هارباً بأهله بعد أن حمل ما هو غال من متاعه تاركًا مدينة رقادة إلى طرابلس، وكان فرار زيادة الله إيذانًا بزوال سلطان الدويلات المستقلة بالمغرب مثل بني مدرار عن سجلماسة، وبني رستم عن تاهرت، وبني الأغلب عن القيروان، وقيام الدولة الفاطمية في المغرب.

ينضح مما سبق أن دولة الأغالبة كانت ذات استقلال اسمي ، فقداستمرت افريقية في عصر هذه الدولة ولاية عباسية ، فكان شعارهم السواد، وظلت الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسي، ثم ما لبث هذا الاستقلال بالتقادم أن اصبح استقلالا يكاد يكون كاملاً، وعاشت إفريقية في ظل الاغالبة عصرا من أزهي عصورها ، ومن نافلة القول أن هذه الدولة قد عانت كثيرًا من ثورات البربر، وهذا ان دل على شيء إنما يدل على طبيعة سكان المغرب كثيري الأنواء والمشارب، والاتجاهات، وبالتالي الثورات، وساعدتهم على هذا جغرافية بلادهم الجبلية في كثير من أنحائها.

وصفوة القول أنه منذ أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي دخلت دولة الأغالبة في طور من الضعف بسبب إسراف الأمراء في قتل ذويهم

---

[1] ابن عذارى: البيان، ج١، ص١٨٢ -١٨٥

والإقبال على اللهو، هذا فضلا عن إهمال أمراء الدولةلشئون رعاياهم من ناحية أخرى في الوقت الذي اشتدت شوكة الدعوة الإسماعيلية، في قبائل كتامة البربرية وسعى زيادة الله إلى طلب العون من الخلافة العباسية في بغداد، باعتباره واحد من ولاتها، وبذل في سبيل ذلك أموالا طائلة، بيد أن الخلافة لم يكن في إمكانها أن تفعل شيئًا له، واكتفت بأن أرسلت كتبًا لتأييده، ولم يجد أمامه إلا أن يسعى إلى مرضاة الناس، وبالفعل عزل عددًا من عماله وقضاته، الذين كانوا موضعَ سخطهم، وولى غيرهم، وبعد أن درج بعض أسلافه على الاقامة في تونس، عاد هو الي رقادة، ليكون قريبًا من جبهة القتال في الزاب، وجدد أسوارها، وأعاد تعبئة جيوشه، بيد أن ذلك كله كان بعد فوات الأوان، فقد أخذت جيوش أبي عبد الله الشيعي تستولي على مدن إفريقية الواحدة تلو الأخرى، مما حدا بزيادة الله أن يلجأ للهرب إلى مصر، فخرج من رقادة ومعه وجوه رجاله وعبيده سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ليسدل الستار على دولة الأغالبة التي حكمت أكثر من قرن من الزمان، تقدمت إفريقية في عهدها تقدمًا كبيرًا، وازدهرت المدن وأخذت القيروان وتونس وسوسة وصفاقس طابع المدن الإسلامية وازدانت بالمساجد والمنشآت العامة كصهاريج الماء والمواجل ودور الصناعة وقصور الأمراء.والرباطات.



الفاطميون وخلفاؤهم

- الدولة الفاطمية في المغرب.
- قيام الدولة الفاطمية في المغرب.
- انتهاء نفوذ الفاطميين وقيام الدول البربرية المستقلة

أ- دولة بني زيري الصنهاجية في المغرب الأدنى.

ب- دولة بني حماد في المغرب الأوسط.

الدول الفاطمية في المغرب «٢٩٦-٣٦٢هـ/ ٩٠٩-٩٧٣م»

• قيام الدولة الفاطمية في المغرب :

كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب التحدي الشيعي الوحيد الذي تمكن من أن يؤسس دولة قوية تنافس، بل وتهدد الدولة العباسية في قيادتها السياسية والدينية للعالم الإسلامي، واتخذ التشيع منذ نشأته الأولى اتجاهًا مضادًا للعصبية العربية، وكما أن التشيع في المشرق اعتمد على الموالي من الفرس، فكذلك في المغرب اعتمد على الموالي من البربر، ولهذا كانت بلاد المغرب تربة خصبة لإنبات بذور التشيع، هذا فضلاً أن بلاد المغرب كانت بعيدة عن السلطة المركزية في بغداد الأمر الذي كفل لدعوة التشيع فيها الحماية، وجعل من الصعب على العباسيين فرض رقابتهم التامة على تلك البلاد وتعقب العلويين فيها.

كان القائم بالدعوة الإسماعيلية رجلاً من الكوفة اسمه رستم بن الحسين بن فرج ابن حوشب، الذي عرف بمنصور اليمن لتغلبه على الوالي العباسي، وعلى أمراء اليمن، وقد دأب ابن حوشب على ارسال الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين ومصر والمغرب[١]، ومن الجدير بالذكر أن التشيع عرف طريقه إلى بلاد المغرب منذ وقت طويل، فيذكر القاضي النعمان أن الإمام جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ/ ٧٦٥م) أوفد إلى المغرب داعيين أحدهما يسمي الحلواني والآخر يعرف بأبي سفيان، وقال لهما: «إن المغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر»[٢]، فذهبا إلى قبيلة كتامة في

---

(1) ابن خلدون: العبر، المجلد الثالث، القسم الرابع، ص ٧٦، ومحمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص ٦٢، حسن خضيري:: قيام الدولة الزيدية في اليمن، ص ١٣٣ -١١٥.

(2) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٢٦ -٢٩.

بلدتي (مراغة وسوف)، وأخذا ينشران الدعوة بين الناس لطاعة آل البيت، حتى استمالا قلوب جمع كثير من قبيلة كتامة وغيرها، بيد أنهما ماتا أو قتلا في ظروف غامضة لم تفصح عنها المصادر التاريخية[١]، ولعل هذا يدل على وجود فراغ سياسي بهذه المنطقة وعدم انتمائها رسميًا إلى مذهب سياسي أو ديني معين.

لما بلغ ابن حوشب داعي الإسماعيلية باليمن نبأ موت هذين الداعيين عوَّل على أن يصطفي داعيًا آخرًا لاستكمال نشر الدعوة في بلاد المغرب، فوقع اختياره على الحسين بن زكريا الذي أصبح يعرف بأبي عبد الله الشيعي، وأبو عبد الله الشيعي أصله من الكوفة، ويعرف بالمعلم لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية، وذهب إلى اليمن، حيث كانت مركزًا هامًا للدعوة الشيعية لقربها من الحجاز مجمع الحجاج، وهناك اتصل بداعي الشيعة فيها واسمه ابن حوشب، وعوَّل على حضور مجالسه والاستفادة من علمه، والامتثال لأوامره، حتى وثق به ابن حوشب وأرسله إلى المغرب ليكمل رسالة أبي سفيان والحلواني[٢].

اتجه أبو عبد الله في موسم الحج إلى مكة وهناك التقى بحجاج من قبيلة كتامة سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م، وذكر ابن عذاري أنهم كانوا عشرة من رؤساء قبيلة كتامة بزعامة أحد شيوخهم، وقد استهوى أبو عبد الله الشيعي هؤلاء الحجاج بماله من قدرة على الاستقطاب والإقناع وفن الجدل والمناظرة ومعرفة بالعلوم الإسلامية، والفرق والمذاهب مع فصاحة اللسان، ولم يفصح لهم في البداية عن غرضه، واكتفى بأن قال لهم إنه يبحث عن وظيفة

---

(1) نفس المصدر، ص ٢٦، ابن خلدون: العبر، المجلد الثالث، القسم الرابع، ص ٧٧، حسن خضيري: قيام الدولة الزيدية، ص ١١٥ -١١٦.

(2) احمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٧٤.

لتعليم، الصبيان في مصر فرافقهم إلى مصر[1] ثم دعوه للقيام بتلك المهمة لديهم في بلاد كتامة فقبل، ووصل أبو عبد الله الشيعي صحبة الحجاج المغاربة إلى أرض كتامة سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م مخفيًا حقيقة أمره، واستمال البربر بالدعاية كوسيلة من وسائل الدعوة التي تلائم عقلية الناس في هذه المناطق، ويذكر ابن الأثير أنه حين نزل بافريقية سأل: أين فج الأخيار؟ وهو جبل من جبال كتامة ولم يكونوا قد ذكروه له، فعجبوا من ذلك ودلوه عليه فقال: ما سمي إلا بكم، ولقد جاء في الأثا ر أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان تنصره فيها الأخيار، قوم إسمهم مشتق من الكتمان،(يعني كتامة)، كذلك استخدم الداعي السحر، وصنع من الحيل والطلاسم والرقى والأحجبة ما أذهل العقول، فأتاه البربر من كل حدب وصوب، فأخذ يبشرهم بظهور المهدي، ويهيىء عقولهم لقبول فكرته واعتناق المذهب الإسماعيلي[2].

على أن أبا عبد الله الشيعي واجه صعوبات كثيرة، فما لبث أن أحدثت دعوته اضطراباً شديدًا بين البربر، وحاول بعضهم قتله، ولكنه نجا، كما حاول بعض رجال العلم مناقشته فقبل الداعي، بيد أن قبيلة كتامة رفضت هذا العرض واعتبرته إهانة لمكانته، وقامت حروب بين كتامة وبعض قبائل البربر، اضطر الداعي إلى الاختفاء خلالها، ولكن المحنة انتهت بانتصار الفريق الذي يحميه، فكان هذا انتصارًا للدعوة الفاطمية، وصار أبو عبد الله ذا جند عظيم، وسلاح كثير، خلاف الأموال التي كان يأخذها من الناس كرسم للدخول في المذهب الشيعي[3]، وهكذا توفر لأبي عبد الله الشيعي القاعدة الحصينة، والعصبية العسكرية، وهما دعامتان ضروريتان

---

(1) ابن عذاري : البيان، ج١، ص١٨٦ -١٨٧

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٨، ص ١٢ -١٣.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٧٤ -٧٧، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص ١٢٨.

لقيام الدول في المغرب، فتحول أبو عبد الله من مجرد داعية إلى قائد عسكري يقود الجند ويشهد الحرب ويباشرها، وأظهر في ذلك قدرة وكفاءة عالية.

لما قويت شوكت أبي عبد الله الشيعي، اعتزم القضاء على دولتي الأغالبة والرسمتيين، حيث قاد جيشًا مكونًا أغلبه من قبيلة كتامة المغربية، واستطاع به احتلال المدن الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت في يده القيروان، ورقادة، واضطر آخر أمير أغلبي وهو زيادة الله الثالث أن يهرب إلى المشرق[١]، كما سبق أن ذكرنا.

وأثناء هذه التطورات السياسية والحربية في المغرب، كان عبيد الله المهدي على علم بما يجري، فقد كان الشيعي يبلغه بذلك، ويرسل إليه أخباره بانتظام، ويبدو أن تزامن ما أحرزه أبو عبد الله الشيعي من نجاح في أفريقية، مع تزايد قدوم الرسل إلى الإمام من سلمية[٢]، لفت أنظار العباسيين إلى الإمام المتخفي في سلمية، واكتشفوا حقيقته، فلما أحس بذلك عبيد الله المهدي تخفى في زي تاجر وقرر الرحيل إلى المغرب، وقد نجا بأعجوبة من العباسيين الذين علموا بأمره، وأمروا بالقبض عليه، حيث رصدوا العيون على طرق القوافل من مصر إلى القيروان، ولأسباب لا تزال غير معروفة للمؤرخين فإن عبيد الله المهدي توجه من سلمية إلى سجلماسة ولم يشأ أن يلتقي بداعيته أبي عبد الله الشيعي الذي كان على مقربة منه، وإنما توجه مباشرة إلى سجلماسة، حيث رحب به أميرها اليسع بن مدرار، بيد أنه سرعان ما قبض عليه وأودعه في السجن عندما أخبره العباسيون

---

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٤٣ -٤٥، ابن عذارى: البيان، جـ١، ص ١٨٣.

(2) سَلَمِيّة: بفتح السين المهملة واللام وتشديد الياء، بلدة عامرة من اعمال حمص الشام.

والأغالبة بما ينوي القيام به، وظل في سجن ابن مدرار إلى أن أطلقه أبو عبد الله الشعي عندما احتل سجلماسة سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م[1].

ويتساءل احد الباحثين[2] عن سبب اختيار المهدي لسجلماسة دون غيرها من بلاد المغرب:" هل كان يطمح في اقامة كيان سياسي في هذه المنطقة، أم أنه كان يفكر في السيطرة علي مسالك تجارة الذهب؟"، ويبدو أن رحلة المهدي الي سجلماسة لم تكن عفو الخاطر، او محض الصدفة، وانما تمت وفق خطة دقيقة للدعوة ، متصلة بالتعرف علي مسالك تجارة الذهب بصفة خاصة، يدعم ما ذهبنا اليه نص مختصر لابن حماد[3] يقول فيه:"..الي أن وصل(المهدي) الي سجلماسة ، اما بعلم سبق ، وانما بشيء اتفق.."

وفي سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م، دخل عبيد الله المهدي مدينة رقادة في احتفال كبير، وتلقب بالإمام المعصوم المهدي، وتقبل البيعة واعترف به كسليل لفاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب، وأصبح قيام الدولة الفاطمية في المغرب انتصارًا لحركة الشيعة وأنصارها من قبيلة كتامة، وانقلابًا سياسيًا ودينيًا خطيرًا في تاريخ المغرب والمشرق الإسلاميين، لما ترتب عليه من نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية، مثل ظهور ثلاث خلافات في وقت واحد في قرطبة والقيروان وبغداد، ثم اجتياح قبائل بني هلال وبني سليم للمغرب فيما بعد بسبب سياسة الفاطميين، وما أدى إليه من تغير كبير في بلاد المغرب في شتى مناحي الحياة.

أقام عبيد الله المهدي في رقادة في البداية التي كانت المقر الرسمي للأغالبة، وقد أثبتت الأحداث أن عبيد الله المهدي حاكم قدير وإداري

---

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٨١، البكري: المسالك والممالك، جـ٢، ص ٦٧٩.

(2) Hrbek,K.,:"The emergence of the Fatimids"African from the seventh to the eleventh century,Heinemann,California,1981,p.318

(3) ابن حماد، ابو عبدالله محمد بن علي(ت٦٢٨هـ/١٢٣١م):أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم،الجزائر ١٩٢٧،ص٦ومابعدها

بادع، ومؤسس دولة بحق، فقد رأى بثاقب نظره وفكره أنه لا يمكن له في عالم عصر الحاكم المطلق أن يتعايش مع أبي عبد الله الشيعي وشقيقه أبي العباس اللذين كانا لهما الفضل الأكبر في تأسيس الدولة الفاطمية، وكان لابد من الاصطدام معهما، وبالفعل بدأت العلاقات تفتر بينهما، وأحس أبو عبد الله الشيعي بموقف عبيد الله المهدي منه، وعدم تقديره للجهود التي بذلها في تمهيد الدولة له، فتوجس منه خيفة، وندم على استقدامه إياه وتسليمه الأمر له، ثم جاءت مرحلة الاصطدام، فقد اكتشف عبيد الله المهدي أن الشيعي وأخاه يتآمران عليه ويؤلبان الناس ضده فحذرهما قائلاً: «لا تباشروا الناس لأنه مفسدة للهيبة»[1]، ولما لم يتوقف الشيعي وأخوه عن نشاطهما المعادي للمهدي، أمر قائده الكتامي عروبة بن حباسة بالتخلص منهما بالاغتيال ورأى عروبة في قتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه فرصة سانحة للارتقاء والتقرب من المهدي، فتربص بهما، ولما هم عروبة بقتل أبي عبد الله الشيعي قال الشيعي: «لا تفعل يا ولدي»،

فقال له عروبة:

«أمرني بقتلك من أمرت الناس بطاعته، وانخلعت له من الملك بعد توطئته» وقد تم قتلهما في أول ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م[2].

ويذكرنا مصير أبي عبد الله الشيعي كمؤسس للدولة الفاطمية بمصير مؤسس الدولة العباسية أبي مسلم الخراساني، الذي لاقى النهاية نفسها على يد أبي جعفر المنصور للأسباب نفسها.

وكان لقتل الشيعي وقع سيء في نفوس رجال كتامة وأصحاب أبي عبد الله، فقاموا بالثورة ضد المهدي، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت، وأقاموا

---

(1) ابن عذاري : البيان،ج١، ص ١٦١ - ١٦٢ ، وراجع: موسى لقبال: دور كتامة ،ص٤٢٣

(2) ابن عذاري: البيان، جـ١، ص ١٦٢

طفلاً، وقالوا هذا هو المهدي، مما حدا بالمهدي إلى استخدام القوة، وتسيير قواته بقيادة ابنه وولي عهده أبي القاسم، ونجح أبو القاسم في هزيمة الكتاميين، وقتل الصبي وإخماد ثورتهم، ثم وجه المهدي عنايته بعد ذلك في توطيد أركان دولته، والقضاء على المقاومة الخارجية، فأخضع قبائل صنهاجة بالمغرب الأقصى، وقضى على الأدارسة في فاس، ورأى أن يبني عاصمة لتدعيم أركان دولته، يتخذها ملاذًا عند الشدة، فوقع اختياره على مكان يقع على بعد (٦٠) ميلاً جنوبي القيروان، حيث وضع أساس مدينة سماها المهدية، ويذكر البكري أن المهدية يحيط بها البحر من ثلاث جهات، ويدخل إليها من الجانب الغربي، ومرساها منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركبًا، وفيها ستة عشر برجًا، هذا خلاف صهاريج المياه ومخازن الأقوات والمسجد والقصر والدواوين، ودار الصناعة تسع أكثر من مائتي مركب، ثم بنى حولها أسوارًا محكمة ذات أبواب ضخمة زنة كل باب ألف قنطار(١)، ويقال انه لما فرغ من بنائها قال: «الآن آمنت على الفاطميات»، وانتقل إليها سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م، واتخذها حاضرة له(٢).

لما كثر سكان المهدية أمر المهدي ببناء مدينة بجوارها سماها زويلة، نسبة إلى إحدى القبائل المغربية، وأحاطها بسور وأبواب وحراس وأمر التجار بأن يسكنوها بأسرهم وعائلاتهم(٣).

توفى المهدي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣/ وخلفه في الحكم ابنه أبو القاسم الذي تلقب بلقب الخليفة «القائم بأمر الله"، و قامت في بداية عهده عدة ثورات في طرابلس وفي المغرب الأوسط على يد رجال زنانة الناقمين على الفاطميين

(1) البكري: المسالك والممالك، جـ٢، ص ٦٨١ -٦٨٣.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٩٣ -٩٧، وراجع ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٨، ص ٣٥، ومحمود إسماعيل: المالكية والشيعة بإفريقية، ص ٤١.

(3) البكري: المسالك والممالك، جـ٢، ص ٦٨٣ -٦٨٤.

بسبب تفضيلهم قبيلة كتامة عليهم وإيثارهم بالمكانة والثروة دونهم، كذلك ثار ضدهم الخوارج من البربر بزعامة مخلد بن كيداد بهدف التخلص من حكم الفاطميين، هذه الثورة التي تعرف بثورة صاحب الحمار، وكادت ثورة ابن كيداد أن تطيح بحكم الفاطميين لولا انشقاق بعض القبائل عنه، مما أضعف موقفه، وقد استمرت ثورته ١٤ سنة طوال حكم الخليفة القائم، وامتدت إلى عهد المنصور الذي تمكن في النهاية من القضاء عليها سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م بعد معركة دامية وقع فيهاابن كيداد جريحًا وأخذ أسيرًا حيث قتل في مدينة القيروان، وقام المنصور بتعقب الزناتيين في إفريقية[١].

تولي المعز لدين الله الخلافة بعد موت أبيه سنة ٣٤١هـ/ ٩٥٢م وحاول تثبيت حكم الفاطميين في المغرب مستندًا إلى مهارة قائده العظيم جوهر الصقلي، ونجح المعز في القضاء على نفوذ الزناتيين في تاهرت وعلى نفوذ بني واسول في سجلماسة، وإخضاع معظم بلاد المغرب للفاطميين حتى شواطئ الأطلنطي.

تطلع الفاطميون إلى مصر ووجهوا ثلاث حملات لفتحها، بيد أن الدولة الإخشيدية وقفت سدًا منيعًا ضد أطماعهم، كما ساعدهم العباسيون وتعاونوا معهم للوقوف في وجه الخطر الفاطمي، ولم تلبث أن ساءت أحوال مصر بعد وفاة كافور الإخشيدي (٣٥٧هـ/٩٦٩م)، «فقد انتشرت الفوضى، وتعددت الفتن. واضطربت الأسعار وتعذر وجود الأقوات وهلك الضعيف من الناس، وكتبت جماعة من الإخشيدية، ووجوه البلد إلى المعز لدين الله يطلبون إليه التقدم نحو مصر ليستلمها، وضمنوا له المساعدة على أن يملك البلد بغير حرب ولا قتال»[٢].

---

(1) ابن الأثير: لكامل، ج٨، ص٤٣٥.

(2) يحيى بن سعيد الانطاكي: تاريخ يحيى بن سعيد، ص١٤، المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة ص٤١:٤٠.

وهكذا تهيأت الفرصة تمامًا لنجح الغزو الفاطمي على يد جوهر قائد المعز لدين لله الفاطمي الذي توجه إلى مصر على رأس جيش قوامه نحو مائة ألف فارس في ١٤ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ/ ٦فبراير ٩٦٩م، وتمكن من الاطاحة بآخر أمير إخشيدي في شعبان سنة ٣٥٨هـ/ يوليو ٩٦٩م، والاستيلاء على مصر. شرع جوهر الصقلي في بناء مدينة القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر، وتشييد قصر الخلافة ،و بدأ في إرساء قواعد الحكم الفاطمي في مصر، وبعث بالبشارة إلى الخليفة المعز لدين الله، وصار يحثه على الرحيل إلى مصر، وقبل أن يرحل المعز لدين الله إليها، أراد أن يبقى على النفوذ الفاطمي ببلاد المغرب، فاستخلف عيها أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي ومضى برجاله وأمواله إلى مصر حاملاً معه توابيت آبائه ليدفنوا في مصر، مما يدل على أنه قد ولي ظهره للمغرب ورغبته في الاستقرار نهائيًا في مصر.

على أية حال وصل الخليفة المعز لدين لله إلى القاهرة في ٥رمضان سنة ٣٦٢هـ/ ١٠ يونية ٩٧٣م، وأصبحت مصر منذ ذلك الوقت دار خلافة، بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب، وبذلك انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر والقاهرة بدلاً من القيروان والمهدية، وأصبحت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية.

ثانيا: انتهاء نفوذ الفاطميين وقيام الدول البربرية المستقلة.

أ- دولة بني زيري الصنهاجية في المغرب الأدنى:

لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر، أجال فكره فيمن يخلفه في المغرب ممن يتوافر فيه صدق التشيع، ورسوخ القدم في الدراية بأمور هذا الإقليم مع أنه كان يدرك أن نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب لن يدوم طويلا لما كان يعرفه من شدة مراس البربر، وطبيعتهم الثورية(١).

وقع اختيار المعز أولاً على جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسي وأسر إليه أنه يريد استخلافه بالمغرب، بيد أن جعفر اشترط لقبول هذا المنصب شروطًا تجعله شبه مستقل عن مصر، فيقول للمعز: تترك معي أحد أولادك، أو أحد اخوتك جالسا في القصر، وأنا أدبر وأعمل، وكأني أطالع من يأمرني ليتم أمري..ولا تسألني عن شيء من الأموال اذ كان ما أجبيه بازاء ما انفقه.واذا أردت أمرا فعلته، دون أن ننتظر ورود أمرك فيه، لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي، فأجابه المعز غاضبًا بقوله: «يا جعفر عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري، واستبددت بالأعمال والأموال دوني، قم فقد أخطأت حظك، وما أصبت رشدك ، ويستدعي الخليفة المعز بعد ذلك بلكين بن زيري أحد رجالات الدولة من صنهاجة، وقال له: «تأهب لخلافة المغرب»فاستعظم بلكين ذلك وقال:" يامولانا أنت وأباؤك الأئمةمن ولد رسول الله صلي الله عليه

(1) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير (العصر الإسلامي) الإسكندرية ١٩٦٦، ص٦٣٦.

وسلم ،ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفولي ، وانا صنهاجي بربري ؟ قتلتني يا مولانا بغير سيف ولا رمح فلم يزل به المعز حتى أجاب»[١].

خلع المعز على بلكين خلعته التي كانت عليه ، ونزع سيفه فقلده إياه بيده، وسماه اسما عربيا هو «يوسف» وكناه كنية عسكرية «أبو الفتوح»، ولقبًا ملكيًا هو سيف الدولة، كما أهداه أجمل خيوله، وألبسه زي قائد الجند، وقلده سلاسل ذهبية دليلاً على التقدير السامي، وعلامة للتبعية، وكتب له سجلا وأمر الناس له بالطاعة، وأصبح منذ ذلك الحين نائبا للفاطميين في حكم بلاد المغرب وامتدادا لهم ضد زناتة والخلافة الأموية في الأندلس[٢].

ومهما يكن من أمر فإن بلكين بن زيري، كان رجل الساعة فأمر توليته متوقع منذ وقت بعيد فقد كان له ولوالده وقبيلته صنهاجه السبق والفضل في انقاذ الفاطميين أثناء محنتهم مع أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي، الذي حاصر عاصمتهم المهدية، وكاد أن يقضي على الدولة الفاطمية، فضلاً عن مساندته لجوهر الصقلي في إخماد ثورات قبيلة زناته الموالين للخلافة الأموية بالأندلس، بما يعزز رغبة المعز في استخلاف بلكين ابن زيري بالمغرب، لقوته وكثرة أتباعه واعترافًا بفضل صنهاجة في الدفاع عن الخلافة الفاطمية[٣].

على أن الخليفة المعز وإن كان قد أعطى بلكين بن زيري ولاية إفريقية والمغرب، فإنه كان يخشى أن يتغلب بلكين على البلاد ، ويستقل بها بعد

---

(1) المقريزي الخطط، ج١، ص٣٥٣ اتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٤٢، حسن خضيري: علاقات الفاطميين في مصر، ص٢٩ - ٣٠.

(2) Idris- H.R. : La Berberie Orientale Sous Les Zirides. X-XII Siecles, Paris, 1963- Tom 1.pp. 42- 50.

(3) وراجع أيضا: حس خضري أحمد: علاقات الفاطميين في مصر بدول ا لمغرب ص٣١.

رحيله إلى مصر، يساعده على ذلك الصحراء الشاسعة بين مصر وبلاد المغرب، لذلك رأى المعز أن خير وسيلة للاحتفاظ بتبعية المغرب للفاطميين هي أن يعمل على أضعافه، وإثارة الفرقة والتنافس بين قبائله، حتى تظل في حروب بعضها مع بعض، فلا تفكر مطلقا في الخروج عن طاعة الفاطميين بمصر، لذلك رحب بالوحشة بين صنهاجة وزناتة[١]، كما حرض كتامة على منع صدقاتها عندما أرسل في طلبها، وهالهم ذلك، وقالوا لرسول المعز: كيف تؤدي كتامة الجزية ويصير عليها في الديوان ضريبة، وقد أعزها الله قديما بالإسلام.... وسيوفها بطاعتكم في المشرق والمغرب؟ فما كان من جواب المعز لو فد كتامة إلا أنه قال: .... هكذا أريد أن تكونوا، فإنما أردت أن أجربكم، فأنظروا كيف أنتم بعدي إذا سرنا عنكم إلى مصر، تقبلون هذا وتفعلونه، وتدخلون تحته ممن يرومه منكم»[٢].

وثمة وسيلة أخرى هي تقسيم أملاك الفاطميين بين عدة قوى سياسية، فوضعت إمارة صقلية وراثية في بني أبي الحسين الكلبي، كما جعل على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي، ولم يجعل لبلكين عليه ولاية ولا على صاحب صقلية، وكذلك أوجد المعز رقابة على الأموال في إفريقية فجعل زيادة الله بن القديم على الجباية بمساعدة عبد الجبار الخراساني، وحسين بن خلف الموصدي في إدارة الشئون المالية[٣].

وهكذا وضع الخليفة المعز بجانب بلكين بن زيري رجالا لهم نفوذ في الدولة، ليكونوا عيونا عليه وأعوانا له في نفس الوقت، خشية أن يستبد بالأمر.

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٦٢٤

(2) المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٥٢

(3) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٦٢١، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٠٣

لما اطمأن الخليفة المعز على استقرار الأوضاع في بلاد المغرب خرج في ٢١شوال سنة ٣٦١هـ/ أغسطس ٩٧٢م في موكبه الخلافي من المنصورية بصحبته بلكين إلى قرية سردانية -القريبة من القيروان - حيث لحق به رجال حاشيته، وعماله وأهل بيته، وجميع ما كان في قصره من أمتعة وأموال، وقد حمل معه «أموالا جليلة المقدار، ورجالا عظيمة الأخطار»[١].

وقد أسهبت المصادر في وصف الثروات التي نقلها الخليفة المعز إلى مصر «فقد أتاه بلكين بن زيري بألفي جمل من ابل زناتة، وحمل ماله بالقصور من الذخائر، وسبك الدنانير على شكل الطواحين، وجعل على كل جمل قطعتين، فاستعظم ذلك ا لجند والرعية، ثم خرج من سردانية بعد أن استكمل تجهيزاته في ٢٠من ذي الحجة ٣٦١هـ/ ٣١ أكتوبر ٩٧٢م متجها نحو مصر في موكبه الفخم، تتقدمه توابيت آبائه ليدفنوا في مصر، مما يدل على أنه قد ولي ظهره للمغرب ورغبته في الاستقرار نهائيا في مصر[٢].

وكانت وصية الخليفة الفاطمي الأخيرة لنائبه في سردانية تحوي المبادئ الأساسية التي يجب أن تقوم عليها السياسة الداخلية لحكومته في المغرب والتي حصرها في ثلاثة أشياء «إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا نرفع السيف عن البربر، ولا تول أحداً من أخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيرًا، كما عهد إليه أن يشرع في غزو زناته بالمغرب لحسم دائه، والقضاء على النفوذ الأموي فيه[٣].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، صـ٢٦٦.

(2)المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ١، صـ١٤٤.

(3) ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٣١٨، حسن خضيرى : علاقات الفاطميين، ص٣٥

وهكذا كان الخليفة المعز يدرك أن ولاء سكان البادية لا يتم إلا بخضوعها للنظام، ودفعهم المنتظم لما هو مقرر عليهم لبيت المال، والضرب بشدة على أيدي الخارجين من البربر، لما عرف عن البربر من الاضطرابات والقلاقل وعدم خضوعهم لسلطان الدولة، كما أولى أهل الحضر جل عنايته، فهم عصب الدولة الحقيقي، ومصدر ثروتها، وأما تحذير الخليفة للأمير الزيري من اخوته وأقاربه، وهو ما ستكشفه الأحداث في الأسرة الزيرية فيما بعد، وهذا يدل من غير شك على بعد نظر الخليفة الفاطمي وحسن سياسته.

وصل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٣٦٢هـ/ ١٠يونية ٩٧٣م، ومنها سار إلى القاهرة التي دخلها في رمضان سنة ٣٦٢هـ/ ١٠يوية ٩٧٣م[1]، وأصبحت مصر منذ ذلك الوقت دار خلافة، بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب، وبذلك انتقلت الخلافة إلى مصر والقاهرة بدلا من القيروان والمهدية، وأصبحت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية.

ما كاد الأمير يوسف بلكين يباشر شئون إمارته الجديدة حتى اضطربت الأوضاع في بلاد المغرب، وثارت عليه قبيلة زناتة، وهاجمت بلاد المغرب الأوسط، وعاثت فيه فسادا واضطرابا، فتجرد بكلين على رأس جيش من صنهاجة وكتامة، فهزم زناته وفتح معاقلهم، وقتل وسبى ونهب وأحرق البلدن[2] ثم توجه إلى تلمسان، حيث حشدت زناته جموعها هناك، فحاصرها وفتحها، وأخرج أهلها على مدينة أشير بيد أن بلكين ما لبث أن

(1) ابن ابي دينار: المؤنس، صـ٦٢.

(2) النويري : نهاية الادب، ج٢٤، ص١٧٠

عاد أدراجه الي القيروان حيث صدرت له أوامر من الخليفة المعز، بألا يتعدى هذه الحدود كما نهاه عن التوغل في المغرب.

ويبدو أن الأمير الزيري كان يرى أن تنظيمات المعز الإدارية والمالية تشكل عائقا يحول دون ممارسته لسلطاته، فعمل بلكين على تعيين رجال موالين له، على أعمال ولا يته المختلفة، فجعل على إفريقية عبد الله بن محمد الكاتب، الذي اتخذ صبره والقيروان مقرين له، وكان عبدالله الكاتب هذا فصيحا بلغة العرب ولسان البربر، وسبق له الخدمة مع بلكين ووالده زيري، ولم يشأ الكاتب أن يقبل هذا المنصب في بادئ الأمر، ولكن قبله مرغمًا تحت تهديد بلكين ورجاله بالقتل.

لما وصل عبد الله الكاتب إلى القيروان ليتسلم مهام منصبه، كان في استقباله عامل الخراج زيادة الله بن القديم، واتفق الرجلان وصارت كلمتهما واحدة، بيد أن هذا الاتفاق لم يستمر طويلاً، فما لبثا أن تحاربا بسبب تضارب السلطة بينهما، وكانت فتنة عظيمة في القيروان» فقد كان لكل من الرجلين طائفة من الأعوان، وكان من الطبيعي أن ينحاز بلكين الي جانب نائبه ضد عامل الخلافة، مما جعل كفة عبد الله ترجح، حيث ظفر بابن القديم، وأرسله إلى بلكين الذي أودعه في السجن حتى توفي في ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٦٦هـ/ ٦يناير ٩٧٧م، واستبد الكاتب بجباية الأموال وحده.

على أن اعتقال ابن القديم أثار ثائرة خلف بن خير أحد مساعديه الذي اعتصم بقلعة منيعة والتف حوله عدد كبير من سائر قبائل البربر غير أن بلكين استطاع أن يقمع الثورة، ويستولي على القلعة، يقول النويري: «وقتل في القلعة مالا يحصى، وبعث منها سبعة آلاف رأس طوَّفها عبد الله

(الكاتب) في القيروان، كما نفى اكثر ممن قتل....» وهكذا كانت نهاية خلف بن خير وقرابته، التشهير والصلب وإرسال رؤوسهم إلى مصر[1].

توطد مركز بلكين بما أحرزه من نصر على مناوئيه، وإذا كانت الخلافة لم تثر مسألة عزل عاملها ابن القديم، فمن المرجح أن مرد ذلك يرجع إلى السياسة الحكيمة التي كان ينتهجها الخليفة المعز، والتي تضمن له مظاهر تبعية بنى زيري دون تعارض مع ما كانوا يطمحون إليه من الاستقلال.

لما توفى الخليفة المعز لدين الله في ١١من ربيع الثاني سنة ٣٦٥هـ/ ١٨ديسمبر سنة ٩٧٥م ،خلفه ا لعزيز بالله، بعث هذا الخليفة إلى بلكين سجلا بتجديد ولا يته على المغرب، ودراهم من السكة التي ضربت باسمه، مما يضفي على بلكين الشرعية في حكمه، ويؤكد تبعية بلاد ا لمغرب للخلافة الفاطمية بالقاهرة واستمرت العلاقة طيبة بين الطرفين.

فقد بعث الأمير بلكين في جمادى الآخرة سنة ٣٦٥هـ/ فبراير ٩٧٦م بهدية ثمينة إلى الخليفة العزيز، كدليل على الطاعة والإخلاص، وخرج من رقادة ليشيعها، وفضلا عن ذلك أمر بكلين عبد الله الكاتب عامله على إفريقية والقيروان بجمع ضرائب إجبارية، لإرسالها إلى حاضرة الخلافة الفاطمية واشتط الكاتب في جمعها، وقد بلغت هذه الجباية أكثر من أربعمائة ألف دينار عينا، بيد أن الخليفة العزيز لما بلغه اشتطاط بلكين في جمعها أمره بإيقاف جبايتها، كما أعاد للناس جزءا من المبالغ التي وصلته، ونرى من ذلك أن الخليفة العزيز كان يتدخل في الإدارة المالية التي يديرها الأمير الزيري.

وفي إطار العلاقات الودية بين الخلافة الفاطمية والدولة الزيرية، كتب الأمير الزيري في سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م إلى الخليفة العزيز يسأله أن يضم إلى

---

(1) النويري: نهاية الأرب، صـ٤٢، صـ١٧٣.

عمله طرابلس وملحقاتها من أعمال سرت واجدابية، وما لبث أن استجاب الخليفة العزيز لمطلب الاميرالزيري، وعقد له عليها، وبعث بلكين إليها عماله، فولى عليها أبو الفتوح يحيى بن خلف المليانى، بعد أن رحل عنها عامل الخلافة عبد الله بن يخلف الكتامي، ولعل الخليفة العزيز قبل ذلك للتخلص من أعباء هذه الولاية، وفي الوقت نفسه تقربا لبني زيري، إلا أنه يبدو أن هذا التصرف لم يكن حكيما من قبل الخلافة فقد كانت هذه المنطقة بمثابة الشوكة في ظهر بني زيري، وعمقا سياسيا يمكن للخلافة من بث عيونها من خلالها والوقوف على الأوضاع الداخلية لبي زيري، فضلا عن أحكام السيطرة والحد من نفوذ بني زيري وطموحهم في الاستقلال.

عمل بلكين على توطيد سلطاته في بلاد المغرب الأقصى، لذلك خرج في سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م على رأس جيش لردع زناته، وأحكام السيطرة على المغرب الأقصى، فحاصر سبتة، فاستعصت عليه لمناعتها، مما حمله على التوجه إلى فاس التي استولى عليها، وعلى سجلماسة، وطرد جميع عمال بني أمية من الأندلسيين، وأعاد مطاردة زناته إلى سبتة آخر معاقل الأمويين الحصينة في المغرب الأقصى، بيد أن حصانة سبتة وكثرة الرجال والإمدادات القادمة من الأندلس حال دون فتحها، وقال بلكين: «هذه أفعى فغرت الينا فاها....»[١] وهكذا ظلت سبتة معقلا حصينا لزناتة، وبقيت وحدها دون كل بلاد المغرب، تحت سيطرة المنصور بن أبي عامر، ومضى بلكين نحو البصرة فهدمها، ثم توجه إلى مدينة أصيلا ومنها إلى برغواطه فحاربهم وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار، وسبى من نسائهم وذراريهم مالا يحصي عدده، وأرسلهم إلى عامله في إفريقية، فلقيهم مع أهل القيروان والمنصورية[٢].

---

(1) السلاوي: الاستقصا، جـ١، صـ٢٠٧.

(2) راجع: حسن خضيري: مدينة سبتة وخططها في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، علاقات الفاطمين، ص٤٠

وحدث أن توجس بلكين خيفة من اثنين من اخوته هما (كباب ومغنين)، وقبض عليهما وأودعهما السجن، غير أنهما تمكنا من الهروب والفرار إلى مصر، فأنزلهما الخليفة العزيز، ووصلهما بعطايا سنية ثم توسط الخليفة لدى بلكين وطلب منه أن يعفو عنهما، فعفا وأطاع الأمر.

وقد كانت المكاتبات الرسمية، والسجلات ترد على بلكين من حاضرة الخلافة الفاطمية فتصله على البريد أثناء تواجده في مواقع القتال، كذلك طلب الخليفة العزيز من بلكين أن يرسل له ألف فارس، ومعهم بقية إخوته أبناء زيري إلى القاهرة، وكان من الطبيعي ألا يستجيب بلكين، واعتذر بتغلب بني أمية على المغرب الأقصى، وأن الدعاء لهم فيها على المنابر، وأنه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال،و اكتفى الخليفة بهذا الرد، ولم يلح في طلبه[1].

واصل بلكين في حملته العسكرية في المغرب الأقصى حيث فرض سيطرته و هيمنته على البلاد، وقضى على نفوذ بنى أمية هناك، بيد أنه لم يكد يعود أدراجه إلى القيروان حتى تفجرت حركات التمرد والعصيان في المغرب الأقصى، فقد استولى بني خزرون على سجلماسة، كما استولى زيري ابن عطية الزناتي المغرواي على فاس، مما حمل بلكين أن يتجرد لهم مرة أخرى على راس جيش كبير، ولكن المنية عاجلته حيث توفى في موضع يقال له واركلان[2]، يوم الأحد ٢٣ من ذي الحجة سنة ٣٧٣هـ/ مايو ٩٨٤م قبل أن ينجح في ردهم على أعقابهم.

---

(1) جورج مايسيه : بلاد المغرب، ص ١٨٤

(2) واركلان : مدينة في طرف الصحراء ممايلي إفريقية، وهم اباضية خوارج (البكري : المغرب ، ص٨٩)

وهكذا شهدت الدولة الزيرية أوج اتساعها خلال فترة حكم بلكين، واتسمت العلاقات بين الخلافة الفاطمية والدولة الزيرية بالصفاء والهدوء، وقد تمثل ذلك في التبعية المطلقة للخلافة، والتي تجلت في سيادة المذهب الإسماعيلي، ونقش اسم الخليفة على السكة، والدعاء له على المنابر وإرسال الجباية إلى القاهرة.

تولى المنصور بن بلكين الحكم في أوائل سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م بعد أن أخذ البيعة على الأجناد، وأرسل إليه الخليفة العزيز تقليدا بولاية إفريقية والمغرب على سنن أبيه، بيد أن الأمير الجديد كان له رأي أخر في شكل هذه التولية وحقيقة ملكه، فقد خطب في المُعزِّين في وفاة والده، والمهنئين له بولايته، فقال: «...إن أبى وجدي أخذا الناس بالسيف قهرًا، وأنا لا أخذهم إلا بالإحسان وما أنا في هذا الملك ممن يولي بكتاب، ويعزل بكتاب لأني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير[1]، بمعنى أن إمارته ليست هينة فيولي عليها أو يعزل عنها بمجرد أمر كتابي يصدره الخليفة.

وهكذا أعلن حقيقة إمارته في إفريقية والمغرب بالنسبة للخلافة الفاطمية، كما أنكر نسبه البربري، وانتسب إلى قبيلة حمير اليمنية، أصحاب الحق في حكم إفريقية أمام أعين الناس، ومع ذلك فإن تأييد الفاطميين المعنوي لبني زيري في المغرب كان أمرًا لابد منه، ولهذا بعث المنصور هدية إلى مصر صحبة زوال بن نصر «قيل إن قيمة ما كان فيها من الأمتعة والدواب والطرف ألف ألف دينار عينا»[2].

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ١، صـ٣٤٣، وقارن ابن الأثير: ا لكامل جـ٩، ص٣٤، النويري: نهاية الإرب، جـ٢٤، ص٧٨ حيث بع الاختلافات في الرواية. وراجع: حسن خضيري: علاقات الفاطميين،ص٤٣ –ص٤٥

(2) النويري : نهاية الادب، ج٢٤، ص١٨٧

ومع كل ذلك فقد أراد الخليفة العزيز بالله تطبيق السياسة التقليدية التي اتبعها الفاطميون بإثارة قبائل البربر ضد بني زيري، فأرسل في سنة (٣٧٦هـ/ ٩٨٧م) داعيا إلى كتامة يدعي أبو الفهم حسن بن نصرويه الخراساني، بقصد تأليب الكتاميين أحلافهم القدامى ضد بني زيري، وبذلك يستطيع قتال المنصور وأخذ إفريقية منه، وعند وصول هذا الداعي إلى المنصورية، كان عبدالله الكاتب متواجدا بأشير في صحبة الأمير الزيري فنزل الداعي على إبنه ونائبه بالمنصورية(يوسف بن عبد الله الكاتب)، الذي أحسن استقباله، وأغدق عليه العطايا، وأعلمه أبو الفهم أنه يريد الذهاب إلى بلاد كتامة لدعوتهم، فكتب إلى والده بذلك، فما كان من عبد الله الكاتب إلا أن طلب من ابنه أن يعطي المبعوث الفاطمي ما يشاء، وأن يتركه يذهب حيث شاء، فحمله على أفراس بسروج محلاة، وحمل بين يديه تخوت ثياب وبدر دراهم، ويعقب النويري على ذلك بقوله: «وكان هذا من الأسباب التي حقدها المنصور على عبد الله وابنه...»[1]

ومهما يكن من أمر فقد نجح أبو الفهم في جذب كتامة إليه، فكثر أتباعه، وعظم شأنه واستقرت أموره عندهم، حتى صار يركب الخيل، ويجمع العسكر، ويعمل البنود ويضرب السكة، فعظم أمره وشاع خبره.

وفي سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م أرسل ا لخليفة العزيز إلى المنصور يخبره بترقية عبد الله الكاتب إلى مرتبة الداعي، ويبدو أن مرتبة الداعي كانت من الوظائف الخلافية المرموقة، التي يدخل في اختصاصها أخذ البيعة للخليفة من الأمير وأفراد أسرته.

---

(1) النويري : نهاية الادب، ج٢٤، ص١٨٢

كذلك تعاظم مركز عبد الله الكاتب، وبلغ ما لم يبلغه أحد من قرابة المنصور، ورجال دولته، وانحصرت أمور المنصور كلها تحت قبضته، الأمر الذي أثار عليه الأحقاد حتى من أقاربه، واتهموه بمكاتبة يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز، وأنه هو السبب في خروج الداعي أبي الفهم بكتامة، وأنه كان يصغر خبره حتى تفاقم أمره، وعندما تيقن المنصور بن بلكين من خطورة الداعي عبد الله الكاتب بما يهدد دولته بشكل مباشر، طلب منه أن يعتزل عمالة إفريقية، بيد أن الكاتب لم يقبل ذلك، وقال للمنصور «القتلة ولا العزلة»، وكأنه وضع نهايته بقوله، حيث مات قتيلا بطعنات الرماح من قبل المنصور وأخيه وهو يغطي وجهه بأكمامه ويقول: «على ملة الله وملة رسوله»، كما لقي ابنه يوسف نفس المصير على يد المنصور وعمه ماكسن بن زيري في رجب سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م(١).

ثم التفت المنصور إلى الداعي الفاطمي الثاني أبي الفهم الخراساني الذي عظم أمره وعظم شأنه في كتامة، فكاتب الخليفة العزيز في أمره، فبعث إليه الخليفة مبعوثين برسالة ينهاه فيها عن التعرض لأبي الفهم وكتامة، وحذره من عصيان هذا الأمر ، وينذره بقيام كتامة بالقبض عليه وإرساله للقاهرة مكبلاً بالحبال، مما أثار سخط المنصور.

لم يهتم المنصور بتهديدات الخليفة العزيز، وقد عقد العزم على الخلاص من هذا الداعي، فقام بحجز مبعوثي الخليفة، وجمع قواته من صنهاجة وحرسه الأسود، وزحف على بلاد كتامة في سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م(٢). حيث استولى على ميلة، وخرب قصورها ومنازلها وقال لمبعوثي الخلافة:

---

(1)ابن عذاري: البيان، جـ١، ص٣٤٧.

(2)نفس المصدر، جـ١ن ص٣٤٨. ، وراجع:حسن خضيري: علاقات الفاطميين ،ص٤٥ وما بعدها

«هؤلاء الذين زعمتم أنهم يمضون بي بحبل في عنقي إلى مولاكما»، وسار المنصور حتى بلغ مدينة سطيف، مركز التمرد حيث هزم كتامة وأجبرها على تسليم أبا الفهم، الذي مثل به بطريقة تثير الفزع في قلوب الكتاميين، وقام عبيد المنصور بتقطيع جثته، وأكلوا لحمها أمام مبعوثي الخليفة لكي يقولا له عند عودتهما للخليفة أنهما أتيا من عند شياطين يأكلون بني آدم، ليسوا من البشر في شيء[1].

لم تمض سنتان حتى ظهر داعيًا، يدعى أبو الفرج الخرساني، فزعم أن أباه من ولد الخليفة القائم جد المعز لدين الله الفاطمي، فانضوت تحت لوائه كتامة وكثرت جموعه، واتخذ البنود والطبول، وضرب السكة، وقد عمل أبو الفرج أكثر مما عمله أبو الفهم، مما حمل المنصور على أن يتجرد مرة ثانية على رأس جيش، وتمكن من هزيمة أبي الفرج وقتله، وقتل من كتامة عددا غير قليل.

وقد أدت هزيمة كتامة وأعمال القتل فيها مرتين على إضعافها بشكل مكن صنهاجة من بسط سيطرتها التامة على جميع النصف الشرقي من شمال إفريقيا، أما النصف الغربي فقد رأى المنصور أن يتركه لزناتة و الأمويين في الأندلس، وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين القبيلتين المتنازعتين في المغرب وهما صنهاجة وزناتة.

كذلك رأى الخليفة العزيز بعد فشل محاولات تحجيم سلطان بني زيري، تحقيق السيادة الفاطمية بالشكل التقليدي بطريق آخر بأن أرسل عام (٣٨٢هـ/٩٣٣م) سجلا للمنصور «يعترف فيه بابنه باديس وليا للعهد فسر المنصور بذلك، وجاءته الهدايا من كل جهة ومكان» ، وفي سنة ٣٨٤هـ /٩٩٤م

---

(1) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص٥٢

أرسل الخليفة العزيز هدية جليلة إلى المنصور مع جعفر بن حبيب فيها فيل عظيم، فركب المنصور بعسكره وتلقاها وتحسنت العلاقات بين الطرفين كما ظهر في الأحداث التالية.

فقد توفى المنصور بن بلكين في ٣ من ربيع الأول سنة ٣٨٦هـ/ مارس ٩٩٦م، وخلفه ابنه باديس، الذي عمل على توطيد الروابط بين إفريقية والقاهرة، فافتتح عهده بتجهيز هدية إلى الخليفة العزيز، وبينما هو يعدها، إذ وصله طلب الخلافة بإرسال القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم –الذي كان مريضًا - إلى القاهرة، فأجاب باديس هذا الطلب، فأمر رجاله بحمل القاضي على بساطه نحو رقادة، في صحبة الهدية المسافرة إلى القاهرة.

توفي الخليفة العزيز في ٢٨ رجب سنة ٣٨٦هـ/ يوليو ٩٩٦م، وخلفه ابنه الحاكم بأمر الله أبو على المنصور، الذي بعث في سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م الشريف الداعي على بن عبد الله العلوي المعروف بالقاضي الباهري إلى المنصورية بسجلين، أحدهما بولاية أبي مناد وتلقيبه نصير الدولة، والثاني بوفاة العزيز بالله، وخلافة الحاكم بأمر الله، والجواب عن وفاة المنصور، والعزاء عن نزار وعن المنصور، فضلا عن سجل ثالث بأخذ البيعة على باديس وأهله من بني مناد للخليفة الحاكم(١).

وعلى الرغم من هذه العلاقات الودية فقد أراد الخليفة الفاطمي إزالة سلطان بني زيري على إقليم طرابلس، منتهزا تحرك زناتة هناك بزعامة فلفل ابن سيعد الزناتي، وواتت الحاكم بأمر الله الفرصة عندما أرسل إليه (تموصلت بن بكار) نائب باديس على طرابلس، أن يسلم إليه طرابلس ويلتحق به في القاهرة، وعلى الفور أمرالحاكم بأمر الله واليه على برقة

(1)ابن عذاري: البيان، جـ١، ص٣٥٦. ،النوير: نهاية الارب،ج٢٤

بالتقدم للإستيلاء على طرابلس، وكان أن استولى يأنس الصقلي على طرابلس سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م ،وأرسل باديس يسأله عن سبب وصوله طرابلس، وهل لديه عهد من الخليفة بالولاية، فكان رد يأنس بقوله: «إنما أرسلني معينا ونجدة إن احتيج إلى،ومثلي لايطلب منه عهد بولاية لمحلي من دولة الحاكم»[1].

لم يرض الأمير الزيري عن خروج طرابلس من سلطانه ، كما لم يقنع الأمير الزيري بهذا الرد الاستفزازي، وعزم على استعادة طرابلس فأرسل جيشا بقيادة جعفر بن حبيب، اصطدم بالجيش الفاطمي خارج المدينة في معركة حامية الوطيس انتهت بمقتل الوالي الفاطمي، ولاذ بقية الجيش بأسوار المدينة التي ضرب عليها الحصار، وطلبت القوات الفاطمية النجدة من الخليفة الحاكم، واستجاب لذلك حيث عقد ليحيى بن على بن حمدون الأندلسي –أحد أعداء الزيريين - على رأس جيش ومنحه مال برقة بيد أن يحيى وجد الخزانة خاوية، مما أثار عليه سخط الجنود فاضطر إلى الاعتصام بأسوار طرابلس، وما لبث أن انضم بقواته إلى جيش فلفل بن سعيد للقيام بعمل مشترك ضد الأمير الزيري، ولكن هذا التحالف لم يقدر له النجاح، لتنازع القيادة بين الزعيمين، واعتداء جنود فلفل بن سعيد على معسكر يحيى، هذا إلى جانب قلة المال؛ مما اضطر ابن حمدون إلى الرجوع إلى مصر، والتعرض لمسألة الحاكم، وسخطه وإن نجح في إقناعه بقبول عذره، في الوقت الذي عاد فيه فلفل بن سعيد إلى طرابلس، واستوطنها هو وقبيلته زناتة حتى وفاته سنة (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)[2].

---

(1)ابن الأثير: الكامل، جـ٩، صـ١٥٤.

(2) ابن عذاري: البيان، جـ١، ص٣٧٢. النويري: نهاية الأرب، جـ٢٤، صـ١٩١.

ومن المرجح أن الخليفة الحاكم هو الذي لجأ إلى قبيلة زناتة، وأطمعها في الاستقرار هناك، لاستغلالها في ميدان المنافسة ضد بني زيري، وقد نتج عن هذا العمل أن سادت ولايتي برقة وطرابلس حروب واضطرابات شديدة هلك فيها خلق كثير من الزناتيين.

على أن أخطر الثورات التي واجهت الخليفة الحاكم هي الثورة السنية التي قامت في برقة، والتي قام بها أحد أفراد البيت الأموي ويسمى الوليد بن هشام ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل، ويلقب بأبي ركوة.

بدأ في شعبان سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥م ثورته على الحاكم بأمر الله، حيث تم الاستيلاء على برقة بمساعدة عرب بني قرة وبربر لواتة وزناتة، وعرف أهل برقة أن عنده روايات وعلما، وأنه هو الذي يملك مصر ويقتل الجبابرة وادعى أبو ركوة الخلافة، واتخذ لقب الناصر لدين الله، أو الثائر بأمر الله، والمنتصر من أعداء الله.

واستطاع أبو ركوة أن ينفصل ببرقة، وأن يهزم جيشا عظيما أرسله الخليفة الحاكم بأمر الله، وتقدم في الدلتا بعد هزيمة عددا من جيوش الفاطميين، وهدد القاهرة، إلى أن تمكن من هزيمته في الفيوم القائد الفضل بن صالح، ففر أبو ركوة قاصدا الاحتماء بملك النوبة الذي سلمه للقائد الفضل بن صالح، وعرضه الحاكم في شوارع القاهرة عرضا مزريا، إذا جعل وراءه قردا يصفعه على رأسه، ثم قتله وصلبه في منتصف شوال سنة (٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م)[1].

وعلي الرغم من فشل ثورة أبي ركوة في القضاء على الدولة الفاطمية، إلا أنها قد أشاعت الرعب والفزع، وأدت إلى غلاء الأسعار وندرة الأقوات،

---

(1) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٢٠٣. ، ابن عذاري البيان،ج١،ص٣٧١

هـذا فضـلا عـن آثارهـا النفسـية السيئة علـى قطاعـات الشـعب المصـري، يتجلى ذلـك مـن قـول صـاحب اتعـاظ الحنفـا: «... والنـاس جلـوس في الشـوارع، وعلى أبواب الدور ليلهم كله... وعظـم البكـاء والضـجيج على شـاطئ النيـل لكثـرة القتلـى في العسـكر» وفي موضـع آخـر يقـول المقريـزي، وتزايـد سـعر الدقيق والخبز، وروايا الماء وازدحـم النـاس عليهـا...»[1] وأمـا آثارهـا الخـارجيـة فإنها تركت آثارا سنية معادية للفاطميين في مناطق نفوذهم بالمغرب الأدنـى، مما سيترتب عليها أسوأ النتائج في الدولة الزيرية فيما بعد.

ومما يجدر ذكره أن موقف أمراء بني زيري من هذه الثورة السـنية كـان يشـوبه الغمـوض، فلـم يهبـوا لنصـرة الخلافـة الفاطميـة في أحلـك أوقاتهـا، واكتفوا بالحياد ربما سبب ذلك يعود إلى أن بني زيـري كـانوا يرجـون سـاعة الخـلاص مـن تبعيـة الفـاطميين في القـاهرة، ووجـدوا في هـذه الثـورة السـنية ضالتهم المنشـودة، في الاسـتقلال بإمـارتهم والسيطرة علـى مقدرات بلادهـم، يـدعم هـذا الـرأي مـا ذكـره الـداعي الفـاطمي عمـاد الـدين إدريـس نقـلا عـن صـاحب السـيرة الحميريـة الكتاميـة، أن الأمـير الزيـري بـاديس وصـل إلى القاهرة وهو في طريقه للحج أثناء ثورة أبـي ركـوة في سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م، فسـأل الخليفـة الحـاكم بـأمر الله الأمـير الزيـري عـن أبـي ركـوة، «فعظـم بـاديس حالـه، وذكـر قوتـه وكثـرة جموعـه، والحـاكم صـامت» فلمـا حـج بـاديس ورجـع إلى مصـر، واسـتأذن الحـاكم في المسـير إلى إفريقيـة، أَخَّـره الحاكم، الذي كان قد انتصر على أبي ركوة ليشهد احتفالات النصر.

ومـن المـرجح أنـه قصـد بتـأخير بـاديس إرهابـه أو علـى الأقـل عتابـه علـي تقاعسـه في نجدة الخلافة.

---

(1) المقريزي: الحنفا، ج٢، ص٦٢ - ٦٣

وعلي الرغم من محاولات الخلافة الغير مباشرة لحصر سلطان بني زيري، أو ردع عزيمتهم للتحرر، إلا أننا نجد الخليفة الحاكم يرسل سنة (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) مركبا فيه هدية جليلة إلى نصير الدولة باديس أمير إفريقية، وإلى ولي عهده عزيز الدولة منصور، فخرج لاستقبالها المنصور مع أهل القيروان على قصر الماء بالبنود والطبول، ومما يجدر ذكره أن هذه السفارة كانت تحملا سجلا بإضافة ولاية برقة وأعمالها إلى ولاية باديس(١).

ولعل الخليفة الحاكم أراد بإضافة ولاية برقة إلى أعمال بني زيري أن يحملهم عبء حكمها، وخاصة بعد اندلاع ثورة أبي ركوة، وانضمام أهلها إليه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أراد أ يتودد إلى بني زيري، بعد أن أخفق في محاولة ضم طرابلس للخلافة، وفي سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م، وصل سجل من الخليفة الحاكم بأمر الله إلى نصير الدولة باديس يذكر فيه أنه جعل ولاية العهد في حياته لابن عمه أبي القاسم عبد الرحيم بن إلياس بن أبي على بن المهدي، فقريء في جامع القيروان، الأمر الذي تطلب إثبات اسمه في البنود ونقشه على السكة إلى جانب اسم الحاكم، غير أن باديس لم يرض على النهج الذي انتهجه الخليفة الحاكم في تحويل ولاية العهد من ابنه إلى ابن عمه، وقال: «لولا أن الإمام لا يعترض عليه في تدبير لكاتبته، ألا يصرف هذا الأمر عن ولده إلى بني عمه» (٢).

ازدادت الصلات والعلاقات الودية بين الخلافة الفاطمية، ودولة بني زيري، فنجد نصير الدولة باديس، يبعث بهدية جليلة في سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م إلى الخليفة الحاكم، كانت تحوي الأفراس الأصيلة، والسروج المحلاة،

---

(1) حسن خضيري: علاقات الفاطميين، صـ٥٣.

(2) المقريزي : الحنفا، ج٢، ص١٠١

وأحمال الخز والسمور، والأقمشة السوسية المذهبة، فضلا عن عشرين وصيفة وعشرة من الصقالبة، وكانت ترافق هذه الهدية هدية أخرى من السيدة أم ملال أخت باديس إلى السيدة ست الملك أخت الخليفة الحاكم، بيد أن هذه الهدايا راحت نهبا لعرب برقة.

على أن الخليفة الحاكم رد على الهدية المنهوبة في نفس السنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م بهدية احتوت على خلع سنية، وسيف مكلل إلى جانب تشريف لولي العهد المنصور بن باديس، الذي توفي بعد وقت غير طويل من نفس السنة.

وهكذا كان ولاء الزيريين للمذهب الإسماعيلي يتوقف إلى حد كبير على علاقتهم بالخلافة الفاطمية، فكلما سادت المودة أمعن الزيريون في إخلاصهم وولائهم، وإذا ساءت العلاقة فتر ذلك الولاء بعدم التشدد على أهل السنة، أو الاهتمام بنشر المذهب الإسماعيلي، كما كانوا من قبل مماترتب على ذلك أاخطر النتائج في إمارة المعز بن باديس فقد خلف المعز بن باديس أباه بعد وفاته في أواخر ذي القعدة سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٦م، وكان عمره حوالي ثمان سنوات، ومارست عمته السيدة أم ملال مهامها كوصية على الأمير الصغير.

افتتح المعز بن باديس عهده بمذبحة الشيعة في سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م وتعددت أسبابها، فيروى ابن الأثير أن المعز بن باديس خرج إلى القيروان في المحرم سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م، والناس يسلمون عليه، فمر بجماعة كانت هناك فسأل عنهم فقيل هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر، فقال المعز: رضي الله عن أبي بكر وعمر، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المعلي بالقيروان فقتلوا منهم، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعا في النهب، وكان ذلك بإغراء وتحريض عامل القيروان الذي كان يحقد على

الأمير الزيري، عندما بلغه أنه يريد عزله، فأراد أن يوقع بينه وبين الفاطميين ويظهره بمظهر المتقاعس عن نصرة الدعوة وحماية أرواح المشارقة.

بينما يذكر ابن عذاري أن المعز خرج في بعض الأعياد إلى المصلى، وهو غلام، فكبا به فرسه، فاستنجد بالشيخين أبي بكر وعمر، فكادت الشيعة التي في عسكره تقتله لولا عبيده ورجاله الذين كانوا يكتمون السنة، ووضعوا السيف في الشيعة، فقتلوا منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف، وجرى الدم غزيرا حتى غطى بقعة كبيرة من الأرض أطلق عليها فيما بعد اسم بركة ا لدم، ونكلوا بالشيعة في شتى مدن إفريقية، ويضيف ابن عذاري أن المعز كان مدفوعا إلى ذلك بتأثير معلمه ومربيه أبي الحسن بن أبي الرجال الذي أدب المعز من صغره على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان(١).

ويذكر ابن بسام أن المعز كان وراء المأساة التي لحقت بالشيعة يتجلى ذلك من قوله: «فأول ما افتتح به شأنه، وثبت به فيما زعم سلطانه، قتل الرافضة، ومراسلة أمير المؤمنين ببغداد، فبعث إليه بعهد، وجاءت الخلعة واللقب من عنده، بينما يذكر ابن خلدون أن المعز كان منحرفاً عن مذاهب الرافضة. منتحلا للسنة، وأعلن بذلك في أول ولايته(٢)، وهو الذي حمل أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس(٣).

والملاحظ أن هؤلاء المؤرخين من أهل السنة، الذين يكرهون الشيعة كرها عظيما أدى إلى مبالغتهم في التقدير، فان صنهاجة التي تمثل قطاعا كبيرًا من

---

(1) ابن عذاري: البيان، جـ١ صـ٣٩٥، وراجع: ، الدباغ: معالم الايمان،ج٣،ص١٥٤، وانظر:
Marcais (G): Les Arabes en Beriberie, P.40.

(2) ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٣٢٥

(3) ابن خلكان: وفيات ا لأعيان، جـ٥ن صـ٢٣٤.

السكان، كانت تدين بمذهب الدولة الرسمي، وهو المذهب الإسماعيلي، مما يشكك فيما ذهب إليه المؤرخون من القضاء على الشيعة قضاء تاما.

ثم إن استنجاد المعز بالشيخين أبي بكر وعمر عندما كبا به جواده ليس سببًا قويا لهذه المذبحة، فيذكر صاحب نهاية الأرب أن المعز مر بجماعة فسأل عنهم فقيل رافضة والذي قبلهم سنة، فقال : وأي شيء الرافضة والسنة ؟، فكأنه لم يكن يعرف شيئا أصلا عن الشيعة ولا عن السنة، فصغر سن المعز لم يهيئ له بعد التفقه في المذاهب وإنما هي ثورة تزعمها فقهاء أهل السنة ضد الشيعة كما ذكر الدباغ[1] أن الفقيه على بن خلدون كان يثير العامة من السنة ضد الشيعة، ولم يقتصر الأمر على القيروان معقل ا المالكية، بل قام كل شيخ على من في بلده[2].

من ذلك كله يتضح أن هذه المحنة الدامية لم تكن الدولة الزيرية مسئولة عنها، ولم تغير من سياسة الدولة الزيرية تجاه الخلافة الفاطمية، بيد أن عامل القيروان استطاع أن يستغل صغر سن الأمير الزيري، ويذكي لهيب هذه الثورة مما أتاح لأهل السنة في القيروان أن ينقضوا على الشيعة، الذين أصبح وضعهم غير محتمل في القيروان، هذا فضلا عن تسلل السنة إلى البلاط الزيري نفسه،وإن كان ذلك بدأ منذ عهد المنصور بن بلكين حيث ذكر أن عبدًا من عبيده قذف بعض الصحابة، فأمر بقتله وصلب جثته، بينما قطعت رأسه، وطيف بها في ا لقيروان تشهيرا مع المناداة عليها بسبب العقوبة[3]، ومما يجدر ذكره أن تربية المعز وتنشئته على يد فقيه سني

---

(1) الدباغ : معالم الإيمان، ج٣، ص١٥٤

(2) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٤، صت٢٠٤، حسن احمد محمود، محنة الشيعة في إفريقية ، ص٩٥ -٩٦.

(3) ابن عذاري : البيان، ج١، ص٣٣٨، ابن الأثير : الكامل ، ج٩، ص٢٥٨

مثل أبي الحسن بن أبي الرجال لدليل على اتجاه الدولة الزيرية. لمذاهب السنة، مما سيترتب عليه أسوأ النتائج في مستقبل العلاقات بين الفاطميين، وبنى زيري عند تغلب مذهب مالك واتجاه المعز بن باديس إلى المذهب السني.

ويبدو أن هذه المذبحة لم تحدث أثرا سيئا في العلاقات بين الخلافة الفاطمية وبين بني زيري، فقد استمر الخليفة الحاكم في سياسة التودد والمصانعة، فتذكر المصادر أنه بعث في آخر ذي الحجة سنة ٤٠٧هـ/ مايو ١٠١٧م إلى المعز بن باديس السفارات والهدايا النفيسة، ولقبه بشرف الدولة، ولم يذكر شيئا عن الاضطهاد الدامي الذي راح ضحيته الكثير من الشيعة.

كذلك أرسل الخليفة الحاكم سنة ٤١١هـ/ مايو ١٠١٩م بصحبة أبي القاسم بن يزيد هدية أخرى جليلة إلى شرف الدولة أبي تميم المعز، تحوي سيفا مكللا بنفيس الجوهر، وخلعة رائعة من ثياب الخليفة لم ير مثلها، وقرئ على المعز سجل من التشريف لم يصل لأحد قبله[١].

وفي سنة ٤١١هـ/ مايو ١٠١٩م أرسل الخليفة الحاكم بأمر الله إلى المعزبن باديس سجلا آخر بصحبة محمد بن عبد العزيز بن أبي كدية، ومعه خمسة عشر علما منسوجة بالخيوط الذهبية.

وتستمر العلاقات الودية بين الدولتين بعد مقتل الحاكم بأمر الله وخلافة ابنه الظاهر في ذي الحجة سنة ٤١١هـ/ مايو ١٠٢٠م، بتبادل الهدايا، فقد بعث الخليفة الظاهر في سنة ٤١٨هـ/ مايو ١٠٢٧م رسولا إلى إفريقية ومعه تشريف جليل لشرف الدولة أبي تميم المعز بن باديس، و ثلاثة أفراس مسرجة، وخلعه ومنجوقان، وعشرون بندا مذهبة، وسجل لقب فيه بشرف الدولة وعضدها، فاستقبله المعز، وقرئ السجل بجامع القيروان وبالتالي أرسل المعز

---

(1) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، صد ٢٥٨، ابن عذاري: البيانن جـ١/ ٣٨٨.

ابن باديس سنة ٤٢٠هـ/ مايو ١٠٢٩م إلى الخليفة الظاهر هدية جليلة من جملتها، «عشرون جارية حسان، وثلاثة من جياد الخيل الثمينة بسروج من الذهب واللؤلؤوالفضة، فضلاً عن ألف وخمسمائة ثوب من سائر ألوان الخز المغربي ومن الرماح الزان، ... والثياب الصقلي، والثياب السوسي».
ثم إن الخليفة الظاهر أرسل هدية ثانية إلى المعز بن باديس، اشتملت على غرائب طرف بلاد الهند والصين، وبلاد خراسان من سائر أنواع الطيب والجواهر، وغير ذلك من الملابس والفرش والأعلام والبنود هذا فضلا عن الجواري الحسان المغنيات والراقصات، والخيل العربية، وقد تغنى الشعراء بهذه الهدية، مثل أبو محمد الحسن بن رشيق في قصيدته التي مدح بها المعز بن باديس[1].

وعلى الرغم من الصلات الودية بين القاهرة والقيروان، إلا أن الصعوبات والقلاقل التي واجهت الخلافة الفاطمية في عهد الخليفة الظاهر، وعدم استقرار الأمور في بلاد الشام، والفتن والحروب المحلية، فضلا عن الغلاء وانعدام الأقوات «ما لم ير مثله من زمن بعيد....»، وهذا بالإضافة إلى انصراف الخليفة الظاهر عن شئون الدولة إلى نزهه وملذاته وسماع المغنى، علاوة على أنه كان معتل الصحة، ضعيف البنية، وهذا كله كان سببا في عدم اهتمام الخلافة بشئون إفريقية وبلاد المغرب في الوقت الذي قويت فيه شوكة أهل ا لسنة هناك بفضل انتشار تعاليم المدرسة المالكية سواء من القيروان أو تونس اللتين أصبحتا مراكز لنشر الدعاية السنية، فكان من الطبيعي أن يضعف التيار الشيعي ويشتد أزر أهل السنة.

---

(1)الحسن بن رشيق: العمدة، صـ ٢٢٨، ٢٢٩.

ثم أن المعز بن باديس كان يبطن العطف على أهل السنة، بل يأخذ رأيهم في بعض الأمور، فقد أرسل الي فقيه سني بالقيروان يسأله الفتوى في الطرز التي فيها أسماء الخلفاء الفاطميين وغيرها مما يلبس أو يصلى بها فأجابه الفقيه بقوله: «يجب على من بسط الله يده أن يمنع ذلك» بيد أن المعز احتج بقوله: «ما أبقيت السكة والبنود إلا مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين»[1].

كما ذكر أيضا أن المعز بن باديس كان يسب بني عبيدًا سرًا وانه كاتب الجرجرائي وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤١٨ - ٤٣٦هـ) يحاول الوقيعة بينهما، تمثل ذلك في بيت من الشعر نصه:

وفيك صاحبت قوما لا خلاق لهم لو لاك ما كنت أدري أنهم خلقوا

فهو يبجل الوزير، ويحتقر الخليفة ويغريه به، ثم نجد أن الجرجرائي كان فطنا فقال لأصحابه يوما: «ألا تعجبون من صبي بربري مغربي أن يخدع شيخاً عراقيا؟»[2].

ومن جهة أخرى ذكر أن كثيرا من أهل القيروان، قاطعوا صلاة الجمعة فكانوا يصلونها ظهرا، بسبب الدعاء للخليفة الفاطمي، «واستمر ذلك حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد».

وهكذا باتت مسألة إلغاء هذه الدعوة الفاطمية، وبعبارة أخرى باتت مسألة قطع العلاقات مع الخلافة الفاطمية من جانب بني زيري بصفة رسمية أمرا متوقعا.

---

(1) الدباغ: معالم الإيمان، ج٣، ص١٦٨

(2) التجاني: رحلة التجاني: ص١٩، ابن أبي دينار: المؤنس، ص٨٣.

على أن قطع الخطبة للخليفة الفاطمي والدعوة للخليفة العباسي في خطبة الجمعة كان ذلك عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م كما يحددها المؤرخان المصريان المقريزي وأبو المحاسن بالقول [١]:... وفيها أظهر المعز بن باديس صاحب إفريقية الخلاف على المستنصر، وسير رسولاً إلى بغداد ليقيم الدعوة العباسية، واستدعى منهم الخلع، فأجيب إلى ذلك».

ويقرر ابن عذاري [٢] هذا التاريخ بما ذكره عن بعض الإجراءات التنفيذية بما أمر به المعز بن باديس بلبس السواد شعار العباسيين، وتكليف صباغي القيروان بصباغة الأقمشة البيضاء باللون الأسود، وأيضا تخريب دور الإسماعيلية، ومدارسها بالقيروان، والتنكيل بالمشارقة، وتشريدهم في البلاد، هذا بالإضافة إلى لعن الفاطميين على منابر البلاد كما تظهر أقدم وثيقة مكتوبة بخط المعز بن باديس على غلاف مصحف أهداه المعز للمسجد الجامع في القيروان.

وهكذا انتهت التبعية السياسية والمذهبية لدولة بني زيري بالخلافة الفاطمية الأمر الذي لم يكن بطبيعة الحال يرضى كلا من الخليفة المستنصر ووزيره اليازوري، فقد أرسل المستنصر إلى المعز بن باديس يدعوه إلى العودة إلى حظيرة المذهب الإسماعيلي يقول: «هلا اقتفيت آثار من سلف من آبائك في الطاعة والولاء» ويتوعده بإرسال الجيوش بيد أن المعز كتب إليه يقول: «إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب، قبل أن تملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقدم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم» [٣].

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، صـ٢١٤، ابن تغربردي: النجوم الزاهرة جـ٥، صـ٥١.

(2) ابن عذاري: البيان، جـ١، صـ ٤٠٢، ٤١٧.

(3) النويري: نهاية الأرب جـ٢٤، صـ٢٤٠.

امتدت الحركة الانفصالية إلى باقي أجزاء بلاد المغرب، حيث أعلن جبارة بن مختار العربي والي برقة سنة ٤٤٣هـ -/ ١٠٥١م أنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يدعي عليها للفاطميين، وأحرقوا راياتهم، وتبرءوا منهم، ولعنوهم على منابرهم، ودعوا للقائم بأمر الله العباسي[١].

لم تقف الخلافة الفاطمية مكتوفة الأيدي أمام هذا الانفصال السياسي والمذهبي بيد أن الضعف الذي أصاب دولة الخلافة، نتيجة لما انتاب مصر من فتن ومجاعات، والتخوف من مغامرة عسكرية في إفريقية غير محمودة العواقب، جعلها عاجزة عن التدخل مباشرة في شئون المغرب فلجأت إلى وسيلة أخرى

رأى الوزير اليازوري أن يقنع الخليفة الفاطمي المستنصر بنقل عرب بني هلال إلى إفريقية، وتحقيق هدفين في نفس الوقت، الأول تخليص البلاد منهم، و الثاني إطلاقهم على إفريقية للقضاء على الدولة الزيرية، وإنشاء دولة تابعة بدلا منها، وهو كما يقول ابن خلدون[٢]: «فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة، كانوا أولياء للدعوة، وعمالا بتلك القاصية، وارتفع عدوانهم عن ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها، وأمر العرب، البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك».

بعث الوزير اليازوري رسوله (مكين الدولة أبو علي الحسن بن علي بن ملهم العقيلي)، يدور بأمر الخليفة المستنصر على الهلالية، فبدأ بإصلاح ذات البين بين زغبة ورياح، وحمل إلى مشايخهم الأموال ووصلهم بصلات سنية، وأنعم على سائرهم ببعير ودينار لكل واحد منهم ووعدهم بالمدد

---

(1) ابن عزاري : البيان، جـ١، صـ٤١٦.

(2) ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٣٠

والعدد وأذن لهم بالمسير إلى إفريقية، «حيث أقطعهم إفريقية والمغرب، وملك المعز بن باديس بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون»، وأنفذ اليازوري كتابا إلى المعز بن باديس يقول فيه: «أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً، وحملنا عليها رجالاً كهولاً ليقضي الله أمر كان مفعولاً»(١).

اجتاحت القبائل العربية بلاد برقة، وطرابلس، و إفريقية، وعاثت فيها فسادا وتخريبا، على أن المعز بن باديس ما لبث أن حشد ثلاثين ألفا من قواته، وزحف بهم إلى موضع يسمى (حيدران) بالقرب من القيروان، والتقى مع قوات العرب، التي بلغ عددها ثلاثة آلاف فارس، فلما رأت العرب عساكر المعز وهم مدججين بالسلاح، وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر، هالهم ذلك، بيد أن قائدهم مؤنس بن يحيى الرياحي هدأ من روعهم، وأشار عليهم أن يطعنوا في العيون، الأمر الذي أدى إلى إطلاق اسم العين على هذه المعركة ، وما كادت المعركة تبدأ حتى بدأ عرب الفتح بالتحيز جانبا فانضموا إلى بني جلدتهم الهلالية، فضلا عن تخاذل الصنهاجيين، وفرارهم من ميدان القتال، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة، وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعهلم، ويقتل أكثرهم»(٢).

وعلى الرغم من كثرة العدد والعتاد في عسكر المعز بن باديس إلا أن الغلبة كانت للعرب، الذين هزموا عساكر المعز، وغنموا الخيل والخيام، وما فيها من الذهب والفضة والأمتعة، وتعتبر موقعة حيدران بداية النهاية للدولة الزيرية.

لم يرض ا لمعز على هزيمته أمام هؤلاء الهلالية، فأعاد تنظيم قواته، وخرج على رأس جيش كبير قوامه سبعة وعشرين ألف فارس في العاشر من

---

(1) ابن الأثير:الكامل، جـ٩، صد ٥٦٦.، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٤، صد ٢١٠، ٢١١.

(2) ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص٥٦٨، ابن عذاري : البيان، ج١، ص٤١٩

ذي الحجة سنة ٤٤٣هـ/ أبريل ١٠٥٢م، ورأي أن يفاجئ العرب ويأخذهم على حين غرة وهم في صلاة العيد بيد أن العرب فطنوا إلى الخدعة وركبوا خيولهم وحملوا على صنهاجة حملة رجل واحد، مما أسفر عن هزيمة المعز وقواته للمرة الثانية وقتل من عسكره عددا غير قليل، واستولى الهلالية على مدينة القيروان مركز الثقافة وكعبة الحضارة سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م، وعملوا فيها الخراب والدمار[١].

استنفذت المعارك التي قام بها المعز بن باديس ضد الهلالية ما لديه من مال وعتاد، وفرغت خزانته، وخسر معظم أجزاء دولته فقد اقتسم العرب البلاد، حيث استقرت زغبة في طرابلس، ورياح في برقة، كما استقر بنو هلال وبنو سليم في تونس وما يليها غربًا وضاق بالمعز الحال، وانتقل من القيروان إلى المهدية واتخذها عاصمة لدولته التي انحصر نفوذها في المهدية وشريط من الأرض حولها، واستولت العرب على حرمه وداره وغلمانه، وقتلوا الرجال،و سبوا النساء، ونهبوا دوره وقصوره، وعاثوا في القيروان فسادًا وتخريبًا ،كما بعث العرب إلى القاهرة الكثير من الغنائم التي ظفروا بها من قصور المعز، والتي اشتملت على الأسحلة، والعتاد، والذخائر،و الخيام، وآلات القتال والطرف، فكان يوم دخولها إلى القاهرة أمر عظيم»[٢].

وأعاد العرب الدعوة الإسماعيلية، بعد أن قطعت من على منابر إفريقية، فضلا عن عودة التعامل بالسكة المستنصرية.

علي اية حال قضى المعز بن باديس السنوات الأخيرةمن حكمه في المهدية وشريط من الأرض حولها، حتى توفى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٣م، بعد أن

(1) ابن خلدون: العبر، المجلد السادس، القسم الثاني صـ٣٢٦.

(2) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢١٥

كان ملكه أضخم ملك عرفه المغرب، وبوفاة المعز بن باديس ينتهي العصر الذهبي للدولة الزيرية في القيروان، لكي يبدأ عصر جديد ليس في إفريقية وحدها فحسب، بل في بلاد المغرب، هو عصر دويلات الطوائف، حيث استقل بصفاقس حمو بن مليل البرغواطى في ٤٥١هـ/ ١٠٤٩م. أما سوسة فقد امتازت بكونها إمارة استقلت تحت حكم شوري، بينما قابس كان أمراؤها من بني هلال، حيث استقر الحكم في أسرة بني جامع، وفي قفصة، استقل حاكمها الزيري ابن الرند الذي خرج على سيده، واستعان بالعرب على مد ملكه في مقابل ضريبة سنوية، كما استقل ابن خراسان بتونس سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م، وكان من الطبيعي والحال كذلك أن يطمع النورمان في سواحل إفريقية، وكانوا قد غزوا صقلية في ذلك الوقت، وما لبثوا أن تطلعوا إلى السيادة على إفريقية[1].

يتضح لنا مما سبق أن المعز بن باديس قد أخطأ في تقديره، عندما خلع طاعة الفاطميين، الأمر الذي أدى إلى انحسار الدولة الزيرية،و سقوط البلاد فريسة بين جحافل العرب والنورمان، كما أن هذه الحملة البدوية، وإن أضرت في اقتصاديات البلاد وخربت موارد الرزق، وأبادت نفوسا كثيرة، وعرضت المغرب لحروب صليبية من قبل الدول المسيحية، فإنها قدمت عملا جليلا لعروبة المغر ب، فقد عملت على تعريب المغرب، ولولا الهلاليون لما صار المغرب عربيا على الصورة التي نراها الآن.

تولى الأمير تميم بن المعز خلفا لوالده في المهدية، وكان من الطبيعي والحال كذلك أن تضطرب عليه الأمور، فقد كثرت في أيام تميم الثوار من كل فج، وغلب العرب على إفريقية ، فلم يكن له إلا ما ضمه السور، وثار

(1)ابن عذاري: البيان، جـ١، صـ٤٢٧ ابن خلدون العبر، المجلد السادس القسم الثاني ص٣٤٦.

عليه أقرباؤه وأبناء عمومته «بنو حماد» الذين أسسوا دولة بني حماد منذ سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م، واستمر سلطان الأمير محدودا في المنطقة الساحلية المحيطة بعاصمتهم المهدية، فأصبحت دولتهم بحرية بعد أن فقدت المناطق الداخلية التي غلب عليها العرب، وقد دفعهم هذا الوقع إلى احتراف القرصنة، ومهاجمة السفن المسيحية.

توفى الأمير على بن يحيى بن تميم سنة ٥١٥هـ/١١٢١م وخلفه ابنه الأمير حسن،و بدا واضحا أن النورمان سيتمكنون من الاستيلاء على المهدية، وبالفعل نقض (روجار) ملك صقلية الهدنة مع الأمير الزيري التي سبق أن عقدها معه، وما لبث أن استولى روجار على المهدية سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وكذلك سقطت كل مدن ساحل إفريقية وطرابلس في يد النورمان، وظلت المهدية خاضعة للنورمان فترة قصيرة إلى أن جاء الموحدون فاستولوا عليها، وأجلوا عنها النصارى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٥٩م وعاد إليها الأمير الزيري الحسن بن يحيى، للمرة الثانية إلى أن انتهت الدولة الزيرية بوفاته سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م[1].

والخلاصة أن الدعوة الإسماعيلية قد قضى عليها في بلاد المغرب في سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م، وعلى الرغم من أن العرب قوضوا ملك بني زيري، إلا أنهم لم يفلحوا في رد المغرب إلى طاعة الفاطميين، مصر.

ب- دولة بني حماد في المغرب الأوسط

عجز بنو زيري عن بسط سلطانهم وهيمنتهم على كل أنحاء المغرب الأدنى والأوسط بسبب الثورات المتعددة من زناتة وكتامة، ومن ثم رأي

(1)ابن خلدون العبر، المجلد السادس، القسم الثاني، صـ٣٣٢.

المنصور بن بلكين ابن زيري توزيع السلطات بتولية أخيه حماد على أشير والمسيلة، فكان حماد يتداول ولا يتها مع أخيه يطوفت، وعمه أبي البهار[١].

وصف المؤرخون حمادا بأنه «نسيج وحده، وفريد دهره، وفحل قومه، ملكا كبيرًا.... وداهية حصيفا وأيضا كان ذا دهاء وفطنة، وتجربة في الحروب، وكانت له فراسة وذكاء، وهو بهذا التقييم يمثل شخصية قوية يستطيع قتال زناته وإخضاعها من جهة، ثم ينطلق سريعا نحو تأسيس دولة خاصة به في تلك البلاد في ظروف ضعف الأمراء الزيريين من جهة أخرى.

فقد أمد حماد يد المساعدة إلى ابن أخيه باديس ضد زناته التي استضعفته لصغر سنه وخالفوا عليه فكان أن أفرد باديس ولاية أشير والمغرب لعمه حماد سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م ليواجه ثورات زناته،و تمردها المستمر، كما أعطاه من الخيل والسلاح شيئا كثيرا، وظفر بهم، كما قاتل المعارضين من أهل بيته على عمه، فقتل ماكسن وولداه محسن وباديس سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م بعد حروب كثيرة[٢].

ثم انتهز حماد تكليف الأمير باديس له بالقضاء على زناتة، فاشترط على ابن أخيه أن يوليه المغرب الأوسط، وكل بلد يفتحه، فضلاً عن إتاحة الحرية له في اختيار مكان إقامته بالبلاد، واضطر باديس إلى قبول هذه الشروط أمام الخطر الذي يتهدد دولته، ويتمثل في ثورات وتمرد زناتة، وتجرد حماد في سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م للقضاء على تلك الحركات المعادية، وإخماد فتنتها، وتمكن من إيقاع الهزيمة بزناتة، وشرع حماد في سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م في بناء مدينة جديدة عرفت بالقلعة (قلعة بني حماد) لاتخاذها عاصمة لدولته، واستقر بها ،يصفها

---

(1)ابن خلدون: العبر، المجلد السادس، القسم الثاني، صـ٣٤٩.

(2)ابن عذاري: البيان، جـ١ ، صـ٣٦١.

الإدريسي: «بأنها من أكبر البلاد قطرًا، وأكثرها خلقًا، وأغزرها خيرًا، وأوسعها أموالاً.، ،و أحسنا قصورًا".

اشتهر حماد وذاع صيته، وبات الأمرمتوقفا على سبب مباشر للاستقلال، وأخذت بطانة باديس في السعايةو الوشاية، وذكروا له أشياء أنكرها باديس على عمه حماد، وجعلته يحس بما يتأهب له عمه حماد وبات الطرفان يترقبان، ،وحدثت بداية انشقاق حماد عن الدولة أو الاستقلال عنها، عندما بعث الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م تقليدا بولاية المنصور بن باديس وليا للعهد ولقبه بعزيز الدولة، وانتهز باديس الفرصة ليحد من سلطان عمه حماد فطلب منه التنازل عن قسنطينة، وتيجس وقصر الإفريقي لولي عهده المنصور(١).

وكان من الطبيعي أن لا يرضى حماد عن انتزاع هذه المنطقة من سلطانه، بل امتنع ورفض الاعتراف بولي العهد، وأكثر من ذلك فإنه قطع الدعوة الإسماعيلية، وقتل الرافضة، وأظهر السنة، ورضي عن الشيخين، ونبذ طاعة العبيديين جملة، وراجع دعوة بني العباس وذلك سنة خمس وأربعمائة.

وبعبارة أخرى يمكن القول أن حمادا كان أول من أعلن انفصاله السياسي والروحي عن الخلافة الفاطمية في مصر، وأنه سبق المعز بن باديس بنحو أربعين عاما حين شق عصا الطاعة على الخليفة المستنصر.

وهكذا شهدت منطقة من بلاد المغرب أول خروج عن الخلافة الفاطمية بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، وانحسر بذلك المد الشيعي، ويبدو أن الخروج على الفاطميين كان الشعار الذي يرفعه كل ثائر في المغربيين

---

(1)ابن الأثير: الكامل/ جـ٩، صـ٢٥٣.

الأوسط والأدنى يريد لنفسه استقطاب الجماهير، والحصول على ولائها، وهو مايرضى المغاربة ويتمشى مع ميولهم.

لما اتضح لباديس موقف عمه حماد العدائي تجاه دولته والخلافة الفاطمية، أعد جيشا بقيادة هاشم بن جعفر، فلقيه حماد على رأس جيش عدته ثلاثين ألف مقاتل، مما أسفر عن هزيمة هاشم بقلعة شقبنارية، وسرعان ما أعاد باديس تنيظم قواته، وتمكن من هزيمة حماد في وادي شلف، ثم حصاره في القلعة، بيد أن باديس توفى فجأة أثناء هذا الحصار سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م[١].

استغل حماد وفاة ابن أخيه، فاستعاد المسيلة وأشير وحاصر بجاية، لكنه منى بالهزيمة على يد كرامة بن المنصور، وما لبث المساعي حتى عقد صلح بين حماد والمعز بن باديس في سنة ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م ،نص على استقلال حماد بعمل المسيلة، وطبنة والزاب، وآشير، وأعطي البنود والطبول وهكذا افترق ملك بني زيري إلى دولتين ا لدولة الزيرية في القيروان، ودولة بني حماد في القلعة، واقتطعت الدولة الحمادية جزءا غير قليل من ممتلكات الدولة الزيرية، وبذلك فقد المعز بن باديس السيطرة على الجزء الأكبر من دولته، في الوقت الذي صار حماد حاملا للواء السنة في المغرب الأوسط.

لما توفي حماد سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م، خلفه ابنه القائد الذي سار على نهج أبيه، وخلع طاعة المعز بن باديس، والدولة الفاطمية مما حمل المعز بن باديس أن يتجرد له على رأس جيش، ويحاصره في القلعة لمدة عامين، حتى تم الصلح بينهما، ولم تشر المصادر إلى شروط هذا الصلح[٢].

---

(1)ابن خلدون: العبر، المجلد السادس القسم الثاني:،صـ٣٥١ - ٣٥٢.

(2)ابن الأثير: الكامل جـ٩، صـ٤٩٢، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، صـ٨٦.

استفاد الحماديون من الأوضاع المواتية، فعندما انفصل المعز بن باديس عن الخلافة الفاطمية، واجتاحت القبائل الهلالية ملكه في إفريقية، اضطر القائد بن حماد إلى الاعتراف بسيادة الفاطميين، فلقبوه بشرف الدولة.، وإذا كان ابن خلدون تفرد بهذه الرواية فنحن أمام وثيقة فاطمية معاصرة للأحداث وتؤيدها وتضيف أن التعامل في الدولة الحمادية أصبح بالسكة المستنصرية.

ويبدو أن هذه الطاعة للفاطميين التي أعلنها القائد، لم تكن بنية خالصة، وإنما هي مداراة سياسية، فرضتها الظروف للمحافظة على دولته ومقدراتها، مما يبرهن على مدى حنكة وسياسة بني حماد، فكانت هذه الطاعة للفاطميين تمثل حلقة في لعبة التوازن وتغيير المعسكرات، والاستفادة من وضع خسره أبناء عمومته، فضلا عن تجنب عقاب محتمل وقوعه على يد بني هلال[١].

ومهما يكن من أمر فقد استفاد الحماديون من هذا كله ليقيموا علاقات طيبة مع الفاطميين، مما أتاح لمدينتي القلعة وبجاية احتلال مكانة القيروان التجارية والفكرية في المغرب، وخاصة بعد أن هاجر الناس إلى بلاد بني حماد بسبب ا لغزوة الهلالية، وتفرقوا في كل وجه[٢].

توفي القائد بن حماد سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، وخلفه ابنه محسن، بيد أنه لم ينعم بالحكم أكثر من تسعة أشهر، فقد قتل بيد عمه بلكين بن محمد ابن حماد، الذي اعتلى الإمارة سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وكان بلكين سفاكا للدماء، غير أنه شرب من نفس الكأس بأن قتل على يد ابن عمه الناصر بن علناس، انتقاما لقتله أخته، وبذلك وصل الناصر بن علناس إلى الحكم سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٧م، وقد اتسعت الدولة في عهده، إلى أن بايعه أهل القيروان سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م[٣].

---

(1) جورج مايسية : بلاد المغرب، ص٢٢٧

(2) المراكشي : المعجب، ص٤٤١

(3) ابن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثالث ص٩٦.

أدى التدخل المتزايد من جانب عرب بني هلال في حياة دولة بني حماد، فضلا عن عيثهم في البلاد أن جعل من المتعذر الإقامة في القلعة، مما حمل الناصر بن علناس على اختيار موقع آخر، حيث اختط مدينة بجاية، وانتقل إليها سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٩م، والتي عرفت على عهده بالناصرية، إلا أنه لم يقدر لهذه التسمية أن تستمر، إذ غلب على المدينة اسمها القديم المنتسب إلى اشهر قبيلة سكنتها، وهي قبيلة بجاية.

توفى الناصر بن علناس سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، وخلفه ابنه المنصور الذي بلغت الدولة الحمادية في عصره أوجها، وكان أخر أمراء دولة بني حماد يحيى بن العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علناس (٥١٤ - ٥٤٧هـ/ ١١٢٠ -١١٥٢م)، «وطالت أيامه، مستضعفاً، مغلبا للنساء، مولعا بالصيد»، وفي عهده هاجم العرب الهلالية المغرب الأوسط وقضوا على عمرانه، ولم يستطع هذا الأمير إعادة الدولة إلى ما كانت عليه[1].

على أن العلاقات الودية ظلت قائمة بين الفاطميين في مصر وأمراء بني حماد، فيذكر ابن عذاري في حوادث سنة ٥٣٦هـ عن مركب فاطمي رحل من الإسكندرية ببضائع عظيمة، وهدية من الخليفة الفاطمي الحافظ إلى الأمير يحيى صاحب بجاية[2].

ومع كل فإن طاعة وولاء بني حماد للفاطميين كانت اسمية لا تعدو نقش اسم الخليفة على السكة وان ظل تبادل ا لهدايا، حتى أواخر عهد الأمير الحمادي يحيى بن العزيز بن منصور بن الناصر بن علناس، كما أعاد ولاءه للخليفة العباسي بأن نقش اسمه على السكة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م.

---

(1) ابن خلدون: العبر، المجلد السادس، القسم الثاني، ص٣٦٢.

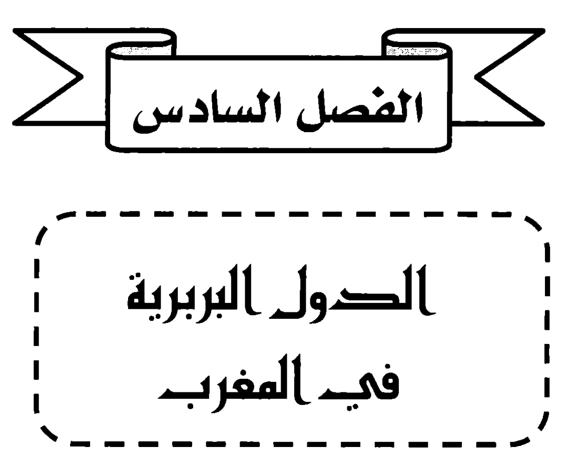
(2) ابن عذاري : البيان، ج١، ص٤٥٠

و نقش على ديناره اسم الخليفة العباسي «الإمام أبو عبد الله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي».. وكان من الطبيعي أن يحدث ذلك والخلافة الفاطمية تعاني من المشاكل التي أحاطت بها فضلا عن سيطرة الوزراء وهيمنتهم على الحكم.

وصفوة القول أن الخلافة الفاطمية بدأت تدخل دور الضعف منذ أواخر القرن الخامس الهجري، كما أدى التراجع الإسلامي في الأندلس، والوضع الخطير في الشرق إلى اختلال ميزان القوى في وضع المغرب السياسي، في الوقت الذي ظهر فيه ثقل جديد في الجنوب الغربي من الصحراء يبشر بميلاد دولة المرابطين، ثم خضوع الحماديين لسلطان الموحدين سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢ [١].

---

(1) حسن خضيري: علاقات الفاطميين، صـ٨٠ - ٨١.



أ- دولة المرابطين (الملثمين)

- ظهور دولة المرابطين
- ضم المرابطين لبلاد المغرب
- دور المرابطين في الأندلس
- سقوط الدولة المرابطية

ب- دولة الموحدين

- المهدي بن تومرت
- عبد المؤمن بن علي وتأسيس دولة الموحدين
- سقوط الدولة الموحدية

دولة المرابطين (الملثمين)
(٤٤٨ - ٥٤١ هـ/ ١٠٥٦ - ١١٤٧ م)

ينتمي المرابطون إلى قبيلة لمتونة وجدالة ومسوفة وكلها تتفرع من صنهاجة الصحراء، وكانت لمتونة تقطن المنطقة الصحراوية الممتدة بين جنوب بلاد المغرب وبلاد السودان، وهم رحالة لا يطمئن بهم منزل وليس لهم مدينة يأوون إليها، وكانوا لا يعرفون حرثًا ولا ثمرًا، إنما أموالهم الأنعام، وأقواتهم لحومها وألبانها، وتنقسم صنهاجة الصحراء إلى سبعين قبيلة منها لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وتكلانة ومنداسة وبنى وارث وغيرها ومن أشهرها جميعًا واعظمها مكانة لمتونة وجدالة ومسوفة[١].

تسميتهم بالملثمين

تميز المرابطون بارتداء اللثام حتى تسموا بالملثمين أو أهل اللثام أو الملثمة، وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تفسير اتخاذهم اللثام، فيرى بعضهم أنهم اتخذوه لحماية أفواههم من الغبار الذي تثيره العواصف الرملية في الصحراء، ويرى آخرون أنه حدث ذات مرة في بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات، حتى يحسب بذلك في عداد الرجال، ويقال كذلك أنهم اتخذوه أسوة بأجدادهم من أهل اليمن، فصار زيًّا لهم ولأعقابهم، أو لأنهم كانوا يتخذون في أعراسهم نوعًا خاصًا من الحجاب، ولا يزال اللثام موجودًا حتى اليوم عند الطوارق وهم من بقاياهم.

---

(1) البكري: المسالك والممالك، ج٢، ص٨١٩ -٨٢٠، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ٢٢٥، حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٤٩ – ٥٢.

وقد عرف المرابطون بأسماء أخرى كالصحراويين ولمتونة، كما أن خصومهم من الموحدين الثائرين عليهم فيما بعد نعتوهم بالزراجنة، ومن أغرب ما تمتاز به قبائل الملثمين مكانة المرأة الممتازة في المجتمع المرابطي، فهي ند للرجل، ولا تباشر الأعمال المنزلية، بل تشترك في مجلس القبيلة، وينسب الرجل إلى أمه في بعض الأحيان، كما لم يعرف المجتمع الملثم عادة تعدد الزوجات، وقد درجت هذه القبائل على الرحلة في الصحراء، لنقل التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وأكسبتهم هذه الحياة خشونة، ظهرت آثارها فيما بعد عندما شرعوا في القيام بدورهم التاريخي.

ظهور دولة المرابطين:

كانت رياسة صنهاجة ليحي بن إبراهيم الجدالي زعيم قبيلة جدالة، وذلك حتى عام ٤١٦ هـ/ ١٠٥٣ م، حيث استخلف على صنهاجة ولده إبراهيم ابن يحيى ويمم وجهه شطر المشرق مع بعض رؤساء قومه لأداء فريضة الحج، وفي أثناء عودته مر بمدينة القيروان حيث حضر فيها مجلسًا علميًا كان يديره الفقيه أبو عمران الفاسي فبهره ذلك، ولذا طلب من الفقيه المذكور أن يبعث معه أحد طلبته لتعليم أبناء قبيلته قواعد الإسلام وتعاليمه، لجهل قومه بها نظرًا لانقطاعهم في الصحراء، فقام وحمّله كتابًا إلى أحد فقهاء المغرب الأقصى من الذين نقلوا عنه العلم يدعى وجاج بن زلو اللمطي، وهو مقيم في داره التي بناها بالسوس للعلم والخير وسماها دار المرابطين، فلما وصل إليه يحيي بن إبراهيم أكرم وفادته، ثم أخذ منه كتاب الفقيه الفاسي وقرأه على تلاميذه فاستجاب لذلك أحد طلبته ويسمى عبد الله بن ياسين الجزولي وهو من أحذق طلبته وأوفرهم علمًا وورعًا.

صاحب ابن ياسين يحيى بن إبراهيم إلى قبيلة جدالة حيث لقي منها ومن لمتونة إكرامًا بالغًا وسرورًا كبيرًا، لما ذكر لهم يحيى عنه من العلم والفضل والدين، عندئذ بدأ عبد الله بن ياسين بتعليم أهل جدالة أحكام الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وواصل مهمته في الصحراء فبنى رباطه بإتقان مع يحيى بن إبراهيم وذلك في مكان ناءٍ من الصحراء اختلف المؤرخون في تعيينه فقيل إنه على ساحل المحيط، وقيل بل هو في حدود السنغال على مصب نهرها[١]، وسرعان ما كثر أتباعهم من أهل صنهاجة الراغبين في العبادة والزهد حتى بلغوا نحوا من ألف رجل أطلق عليهم ابن ياسين اسم المرابطين لملازمتهم لرباطه، وعكف على تعليمهم قواعد الصلاة والزكاة وغيرها، وترغيبهم في الجهاد في سبيل الدين ومحاربة من خرج على مذهبهم، ثم بعث بعضًا من تلاميذه إلى أقوامهم يحثونهم على ترك المنكر والتمسك بقواعد الإسلام ولكنهم لم يجدوا منهم أذانًا صاغية.

عند ذلك خرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وخاطب رؤساء قبائلهم، ودعاهم إلى التوبة واتباع تعاليم الدين، ولما أصروا على عدم انصياعهم إلى قوله، رفع عبد الله بن ياسين السيف وغزا قبيلة جدالة في نحو ثلاثة آلاف من المرابطين وانتصر عليهم بعد أن قتل منهم عددًا كبيرًا، وأسلم من بقي من أهلها إسلامًا جديدًا، وكان هذا في سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م[٢].

ثم سار إلى قبيلة لمتونة فأطاعته وحذت حذوها مسوفة فأذعنت له بالطاعة هي الأخرى، فلما رأت ذلك بقية صنهاجة سارعت إلى التوبة وأقرت له بالطاعة، فجعل يعلمها القرآن وشرائع الإسلام، وأخذ في غزو القبائل

---

(1) عصمت عبد اللطيف دندش (الدكتورة): دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، دارالغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨، ص ٧٠ – ٧٣.

(2) ابن خلدون العبر، المجلد السادس، القسم الثاني، ص ٣٧٥.

القاطنة في الصحراء حتى دانت له كثير منها، ثم توفي يحيى بن إبراهيم فولي عليهم يحيى بن عمر اللمتوني[1].

علي ان الوضع السياسي في بلاد المغرب، جعل صنهاجة تطمح في تجاوز دور الوساطة التجارية في منطقة صحراوية، لتصبح لها السيادة الكاملة في المنطقة العمرانية في الشمال، وعلي شبكة المسالك التي تربط بين مدنها وقراها، ان هذا الامل يتحقق اثر ظهور دعوة المرابطين، وقد قامت هذه الدعوة كما اسلفنا علي التحالف بين لمتونة، وجدالة ومسوفة، ولمطة، ولعل هذا التحالف كان يمثل تجسيدا حيا لواقع المصالح الاقتصادية، التي تربط بين مختلف المناطق الاقتصادية، يقول ابن خلدون[2] :" ان القبيل الواحد،وان كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة، فلا بد من عصبية تكون أقوي من جميعها، تغلبها وتستتبعها، وتلتحم جميع العصيبات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبري"

علي أن الدولة المرابطية، وان كانت قامت علي اساس العصبية وتحالف قبائلها، فانها في الوقت نفسه رفعت شعار مذهب مالك والعودة الي تعاليم الدين الاسلامي الصحيح، وقد تكتب السيادة لقبيلة بسبب دعوة دينية تنشرها بين القبائل الأخري، وقد فطن لذلك ابن خلدون[3] بقوله:"ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة علي قوة العصبية التي كان لها من عددها"، ولكن يجب الا نغفل أهمية العامل الاقتصادي، بل لانكون مغالين اذا قلنا ان الدوافع الاقتصادية كانت ذات أثر با لغ في توجيه غزوات المرابطين، واستنهاض هممهم لفتح بلاد المغرب وتثبيت أركان الدولة حتي غدت امبراطورية مترامية الأطراف.

---

(1) عصمت دندش: المرجع السابق، ص ٧٦ – ٧٧.

(2) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون،ص٩٩

(3) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون،ص١١١، وحسن خضيري : اهم مراكز تجارة الصحراء،٢٥،٢٦

ضم المرابطين لبلاد المغرب

كان للانتصارات التي أحرزها المرابطون وامامهم عبد الله بن ياسين أصداء واسعة النطاق امتدت حتى بلاد المغرب، فقد تلقى عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمران كتابًا من أهل سجلماسة، ودرعة بالمغرب يرغبون فيه في تطهير بلادهم من الظلم والجور تحت وطأة أميرهم مسعود المغراوي، فعرض ابن ياسين الأمر على رؤساء المرابطين فوافقوه على ذلك.

على آية حال خرج عبد الله بن ياسين في جيش كبير من المرابطين والتقوا بمسعود المغراوي في معارك كثيرة دارت رحاها علي أرض سجلماسة، وقد أبدي الزناتيون ضروبا من البسالة في دفاعهم عن المدينة ، وكادت سجلماسة تخرج من يد المرابطين ، لولا ان تداركوا امرهم ، وجمعوا صفوفهم وحملوا حملة رجل واحد علي الزناتيين اصحاب سجلماسة انتهت بانتصار المرابطين وقتل المغراوي ومعظم جيشه، ثم دخل ابن ياسين مدينة سجلماسة فقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح أحوالها، وغير ما وجد بها من المنكرات فقطع آلات الطرب، وأحرق الديار التي كانت تباع بها الخمور، وأزال المكوس، وأسقط المغارم، ثم ما لبث أن قفل عائدًا إلى الصحراء بعد أن ولى عليها عاملاً من المرابطين[1] ولعل اصرار المرابطين علي فتح هذه المدينة يفسر لنا أهمية الدور الاستراتيجي الذي يلعبه هذا المركز التجاري الحساس في قيام كيانهم السياسي ودولتهم الفتية..

لما توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، قدم ابن ياسين عوضًا عنه للقيادة أخاه أبا بكر بن عمرالذي كان كأخيه صلاحًا وورعًا، وفي هذه السنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م اتجه المرابطون لغزو بلاد السوس، وكان على

(1) ابن ابي زرع: الأنيس، ص ١٢٨، عصمت دندش: دور المرابطين، ص ٨٠.

مقدمة الجيش يوسف بن تاشفين ابن عم الأمير أبي بكر، فقاموا بغزو بلاد جزولة ثم فتحوا مدينة ماسة واشتبكوا مع قوم من الشيعة يقال لهم البجلية نسبة إلى علي بن عبد الله البجلي بتارودانت، فانتصروا عليهم وفتحوا مدينتهم تارودانت عنوة، وقضوا عليهم حتى آل إليهم كل بلاد السوس(١).

وفي سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، قصدوا مدينة أغمات التي دافع عنها أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي دفاعًا شديدًا، ثم اضطر إلى تسليمها، والتجأ إلى تادلا في حمى بني يفرن المغراويين، ثم دخل المرابطون أغمات في السنة المذكورة حيث استراحوا بها شهرين، ثم فتحوا تادلا وقتلوا من وجدوه من بني يفرن ملوكها كما ظفروا بلقوط المغراوي وقتلوه، وكانت زوجته قد اشتهرت بالجمال والرياسة والفطنة، وتدعى زينب بنت اسحاق النفزاوية فتزوجها الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني(٢).

ثم اتجه عبد الله بن ياسين إلى بلاد تامسنا ففتحها، وعلم أن هناك أعدادًا كثيفة من قبائل برغواطة المارقين عن الدين يقيمون بساحلها والبرغواطيون هؤلاء أخلاط من قبائل شتى اجتمعوا إلى رجل يهودي يدعى صالح بن طريف بن شمعون البرباطي القائم بتامسنا، حين ادعى النبوة في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان في القرن الثاني لوفاة الرسول ﷺ، وكان أصله من «برساط» بجنوب الأندلس، فكان يقال لمن تبعه ودخل في ديانته برناطي فعربته العرب وقالوا برغاطي فسموا برغواطة، وكان قد وضع لهم ابن طريف قرآنًا جديدًا، كما كانوا يصومون رجب ويفطرون رمضان، ويصلون خمس

---

(1) نفس المصدر، ص ١٢٩.

(2) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٢٩، البكري: المسالك، جـ٢/ص ٨١٩ – ٨٢٢، ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٣٧٦.

صلوات بالنهار وخمس بالليل،وأباح لهم الزواج بأي عدد من النساء، واستمر حالهم على الضلالة والكفر حتى قيام دولة المرابطين[(١)].

وكان من الطبيعي أن يتجه المرابطون إلى قتال هؤلاء القوم، فسار عبد الله بن ياسين، وقائده الأمير أبو بكر اللمتوني في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة، وكان الأمير على برغواطة يومئذ أبو حفص عبد الله بن أبي غفير ابن محمد بن معاذ ، فدارت بين الفريقين حروب عظيمة أصيب فيها عبدالله ابن ياسين إمام المرابطين بجراح خطيرة أدت إلى وفاته سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م، ولكنه عندما أحس بدنو أجله جمع شيوخ صنهاجة وحثهم على التمسك وعدم التحاسد واختيار من يقودهم فاتفقوا على الأمير أبي بكر بن عمر.

وهكذا توفى ابن ياسين في سبيل عقيدته ومبادئه، واستطاع هذا الفقيه أن ينشر الإسلام الصحيح في المنطقة الشاسعة الممتدة من جبال درن (جبال أطلس) في الشمال إلى منحنى نهر النيجر في الجنوب، وهنا يمكن القول أن عبد الله بن ياسين كان رجل دين وسياسة وشخصية فريدة أوتي القدرة على قيادة الرجال، وصنع التاريخ فقد وضع حجر الأساس لدولة المرابطين الذين بلغوا فيما بعد شأوًا بعيدًا في الجهاد في سبيل الإسلام، وبذلوا الكثير من أموالهم ودمائهم حتى أمدوا في عمر الإسلام بالأندلس قرونًا أخرى بعد أن أشرفت تلك البلاد على الضياع.

لما آلت زعامة المرابطين الروحية والسياسية إلى أبي بكر بن عمر اللمتوني عمل على توحيد صفوفه بعد تلك الكارثة التي منيت بها جيوشه من جراء وفاة ابن ياسين، واندفع بجنوده نحو برغواطة ، فاستأصل شأفتهم، ومحا دعوتهم، وقسم بين المرابطين غنائمهم، ثم دانوا له بالطاعة بعد أن

---

(1) نفس المصدر، ص ١٣٠، وراجع.

Slouch, Nahum: L'Empire de Berghouata et Les origines de Blad es Siba, Revue de Monde Musulman, Tomx. 1910, pp. 41-50.

جددوا اسلامهم، بعد ذلك قفل الأمير أبو بكر راجعًا إلى مدينة أغمات التي كانت أول حاضرة للمرابطين بالمغرب[١].

يوسف بن تاشفين :

كان أبو بكر بن عمر حريصًا كل الحرص على مكاسب دولته التي كانت لا تزال في مرحلتها المبكرة، ولذا عهد إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني قائده على الجيوش بأمر المغرب، وهكذا فإن الاختيار الموفق لهذا القائد يدل على بعد نظر الأمير أبي بكر بن عمر وسعة أفقه، كما قام الأمير أبو بكر بطلاق زوجته زينب بنت اسحاق النفزاوية ذات الجمال الرائع والرأي حتى لا يحملها مالا تطيقه من حرارة الصحراء، وأوعز إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين بالزواج منها، وقال له: «تزوجها فإنها امرأة مسعودة» فكان ذلك، وهكذا تقلد يوسف بن تاشفين زمام الأمور في بلاد المغرب بعد أن أجمع أشياخ المرابطين على إمرته نظرًا لما يعرفون «من دينه وشجاعته وحزمه وعدله وورعه وسداد رأيه»[٢]، وترك له الأمير أبو بكر جزءًا من جيشه وسار بالباقي إلى بلاد السودان، وفي تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين يؤدي مهمته العظيمة في بلاد غمارة، فبدأ بأن قسَّم جيشه الذي بلغ يومئذ أربعين ألف مقاتل إلى أربعة أقسام اختار لها أربعة من أقدر قواده، وجعلهم في مقدمة قواته، وأخذت تلك الجيوش في محاربة القبائل القوية في المغرب، ولا سيما مغراوة وزنانة وبني يفرن، فغلبتها واستولت على أراضيها، ولم تمض بضعة أشهر، حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحي المغرب الجنوبية والوسطى، ثم عاد من غزواته إلى أغمات في أواخر سنة ٤٥٤هـ/

---

(1) ابن عذارى: البيان، ج٤، ص ١٦ – ١٧.

(2) نفس المصدر، جـ٤، ص ١٨، ٢١، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٣٤.

١٠٦٢م وقد عظم أمره وذاع صيته في أنحاء المغرب حتى خطب له في بلاد المغرب على نحو ألفي منبر[١].

وفكر يوسف بن تاشفين في تأسيس قاعدة لجيوشه فوقع اختياره على أرض تقع شمال غربي مدينة أغمات، كانت لبعض المصامدة فاشتراها يوسف، وبنى بها مسجدًا، وكان يعمل في بناء المسجد بنفسه مع الفعلة، فكان مولد مدينة مراكش الشهيرة سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م، وكان هذا الاسم يطلق على هذا المكان، ومعناه بلغة المصامدة «امش مسرعًا»، إذ كان مأوى اللصوص وقطاع الطريق، ويرى الدكتور/ مؤنس: «أن اسم مراكش بالبربرية مروكش، ومعناها قصر الحجر»، لأن مباني المدينة بنيت بالحجر[٢] ومن الأسباب التي دعت يوسف الي ان تكون قاعدته في قلب بلاد المصامدة أن تلك القبائل كانت أشد قبائل المغرب قوة وأكثرهم جمعًا، وتؤلف معظم جيوشه، كما أن جبل درن من جبال أطلس كان يحيمها، وقد غدت مراكش في وقت غير طويل من أعظم المدن المغربية، ولعبت في تاريخ المغرب أعظم دور.

وقضى يوسف بن تاشفين أعوامًا أخرى في إتمام فتح بلاد المغرب، حتى سيطر على معظم نواحيه، وهكذا استغرق الأمير يوسف بن تاشفين زهاء عشرين عامًا في تثبيت أركان دولته، حتى تمكن خلالها من إتمام فتح بلاد المغرب الأقصى، فلو لم يتم للمرابطين استكمال فتح بلاد المغرب على يد يوسف بن تاشفين لتفرق شملهم وذهبت ريحهم، ولما قامت لهم قائمة، ومن ناحية أخرى كان لاستيلاء المرابطين على المغرب وتوحيدهم له، فضله في صيانته من قبائل عرب بني هلال من ناحية الشرق ومن الهجمات الصليبية في الشمال.

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٥٦، الحميري: الروض المعطار، ص ٥٤٠، مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ٢٥، حسن أحمد محمد: قيام دولة المرابطين، ص ٢٠١.

(2) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب، ص ١٦٤.

كما نجح خلال تلك الفترة من الإستيلاء على النصف الغربي من المغرب الأوسط وتوحيده مع المغرب الأقصى، كما قام أيضًا بضرب السكة وتقسيم بلاد المغرب إلى عمالات جعل عليها رجالاً أكفاء فضلاً عن تنظيمه للجيوش وإنشائه للأسطول.

ولذا يعتبر يوسف بن تاشفين هو المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين التي حفظت الإسلام من أطماع النصارى حيث كان الوجود الإسلامي في الأندلس يترنح تحت ضرباتهم، كما أمدت هذه الدولة الإسلام بدماء جديدة، حيث قامت على عنصر بشري غير عربي وهو عنصر البربر.

وهكذا بدأت قبائل المرابطين تطرق أبواب المغرب الأقصى، حاملة المذهب المالكي في وقت اشتدت فيه حاجة العالم الإسلامي في المغرب إلى دماء جديدة، وقوى فتية تلم الشعث، وتوحد الجهود المبعثرة، وتعود بالمجتمع الإسلامي إلى عهد السلف الصالح، ولا غرو فإن مؤسس هذه الدولة يعتبر بحق من أكابر بناة دولة الإسلام على مر العصور، لما تميز به من إيمان عميق بالإسلام وفضله ورسالته، وشعوره بأنه ينبغي أن يخدم هذا الدين ويجاهد في سبيله ويعمل على حماية عالمه من الأخطار، هذا فضلاً عن نظرته الواسعة إلى العالم الإسلامي على أنه عالم واحد مترابط.

دور المرابطين في الاندلس:

صار المغرب يتمتع بوحدة سياسية ودينية قوية في ظل دولة المرابطين وزعيمها يوسف بن تاشفين، في الوقت الذي كان الأندلس يعاني من التفكك السياسي والاجتماعي تحت حكم ملوك الطوائف، فقد تمزقت وحدة الأندلس الي دويلات صغيرة صقلبية وعربية وبربرية، وتبع ذلك انهيار قوة الاسلام العسكرية الامر الذي يسر أمام قوي النصرانية وبصفة خاصة قشتالة مهمة التهام هذه الدويلات

واخضاعها الواحدة تلو الاخري، في الوقت الذي دخل أمراء الطوائف في حروب طويلة بعضهم مع بعض، وكل منهم يريد ان يوسع ناحيته علي حساب الاخرين مستعينا في ذلك بقوات النصاري يدفعلهم إتاوة، حاسبا بذلك انه يقيم ملكا لنفسه علي حساب اخوانه المسلمين، وما لبث أن سقطت طليطلة في يد الفونسو السادس ملك قشتالة في سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م[1]، واهتز الاندلس لسقوط طليطلة، وشعر الاندلسيون أن أمر الأندلس كله الي ضياع ، وبادر أمراء الطوائف الي استرضاء الفونسو، ورضوا علي أنفسهم دفع الجزية وهنا فكر ملوك الطوائف في الاستجاد بالمرابطين اخوانهم في الدين بعد أن أصيح وضع الأندلس في الميزان وقد عبر الشاعر الاندلسي ابن العسال عن هذا الوضع أصدق تعبير بقوله:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فمـا المقـام بهـا الا مـن الغلـط

ونحـن بين عـدو لايفارقنـا كيف الحياة مع الحيات في سفط[2]

وتوجه وفد يمثل أهل الأندلس الي مراكش يحملون صريخ أهل الأندلس الي، يوسف بن تاشفين ورغبتهم في عبوره الي الأندلس لتخليص المسلمين من الخطر النصراني المحدق بهم.

تأهب يوسف بن تاشفين للعبور الي الأندلس وتا قت نفسه للجهاد ،وأخذ يعمل علي استنفار جنوده ،وعساكره وانتقل الي مدينة سبتة المواجهة الي عدوة الاندلس، ومنها أخذ في تجويز عساكرها الي الجزيرة الخضراء بعد ان أمر المعتمد بن عباد ابنه الراضي يزيد با خلا ئها لقوات المرابطين والارتحال عنها الي رندة، ثم عبر يوسف بن تاشفين بحر الزقاق ونزل بالجزيرة الخضراء، حيث خرج اليه اهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات، وقام يوسف بتحصين

---

(1) مؤلف مجهول : الحلل الموشية، ص٢٧، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٧

(2) المقري : نفخ الطيب، ج٦، ص٨٤

هذه المدينة وترميم أسوارها وأبراجها ،كما اختار فرقة من جيشه واسكنهم بها، وبعدها اتجه نحو مدينة اشبيلية، حيث استقبله اميرها المعتمد بن عباد بالحفاوة والتكريم وقدم اليهم الكثير من الهدايا والتحف، وفي هذه الاثناء بعث يوسف بن تاشفين برسله الي جميع رؤساء الاندلس للحاق به لخوض معركة الجهاد ضد النصاري، فلبي دعوته عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة واخوه تميم صاحب مالقة، كما بعث المعتمد بن صمادح بفرقة من الفرسان بقيادة ابنه معز الدولة، هذا فضلا عن المتطوعة الذين هرعوا يلبون نداء الجهاد من سائر أنحاء الاندلس

ويبدو ان اهل الاندلس قد غمرتهم الفرحة بمقدم هؤلاء المرابطين،ويعبر عن ذلك عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة الذي عايش هذه الأحداث كشاهد عيان بقوله:" وظننا ان اقباله الي الأندلس منة الله عظمت لدينا، ولاسيما خاصة من اجل القرابة وللذي شاع من خبرهم واقبالهم علي طلب الآخرة ، وحكمهم بالحق .... والعجب في تلك السفرة من حسن النيات واخلاص الضمائر كأ نما القلوب انما جمعت علي ذلك"(١)

وبعد ان قضي يوسف بن تاشفين بضعة ايام في اشبيلية اتجه بقواته نحو مدينة بطليوس، ولحقت به قوات اهل الاندلس ايضا ونزلوا جميعا بظاهر تلك المدينة حيث كان في استقبالهم صاحبها المتوكل بن الأفطس الذى أوسعهم ببره وكرمه ،يقول ابن بلقين: "ولقينا امير المسلمين في طريقه الي بطليوس ورأ ينا من اكرامه لنا مازادنا ذلك فيه رغبة لو استطعنا ان نمنحه لحومنا فضلا عن اموالنا ،ولقينا المتوكل بن الافطس محتفلا بعسكره، كل يرغب في الجهاد ،قد اعمل جهده ووطن علي الموت نفسه"(٢)

(1) راجع: عبدالله بن بلقين : التبيان(مذكرات الامير عبد الله) ،تحقيق ليفي بروفنسال ،القاهرة ١٩٥٥ ،ص١٠١ -١٠٤ ، وكذلك:حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين ، ص٢٦٩ -٢٧٥

(2) نفس المصدر ، ص ١٠٥

ثم قام الامير يوسف بتنظيم الجيوش الاسلامية في معسكرين كبيرين للقوات الاندلسية والتي نظمت علي شكل خميس قبل القتال حيث كان المعتمد بن عباد في قلب المقدمة، وكان المتوكل بن الآفطس في ميمنتها واهل شرق الاندلس في ميسرتها وسائر اهل الاندلس في الساقة ، أما قوات المرابطين فكانت تحتل المؤخرة بقيادة داوود بن عائشة ،ثم الجيش الاحتياطي بقيادة يوسف بن تاشفين، وكانت كلها علي شكل كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء.

وفي تلك الاثناء وصلت الانباء بمقدم المرابطين الي الاندلس علي جناح السرعة للفونسو السادس ملك قشتالة وكان محاصرا لمدينة سرقسطة ، وازاء ذلك اضطر الي رفع الحصار ، وهم بحشد القوي النصرانية حيث تحالف مع سانشو راميرس Sancho Ramirez ملك اراغون وكان يومئذ محاصرا لمدينة طرطوشة كما استدعي قائده البرهانس Alvahanez من بلنسيةوانضما بقواتهماالي الفونسو السادس، كما انضمت اليه اعداد جمة من جليقية وليون وأشتوريش هذا فضلا عن فرق الفرسان المتطوعة من ايطاليا وجنوب فرنسا ، ونزلت هذه القوات مجتمعة قبالة جيش المسلمين حيث لا يفصل بينهماسوي أحد فروع وادي آ نه، وكان الفونسو قد عزم علي ان يكون لقاؤه بالمسلمين في اراضيهم وذلك حماية لبلاده اذاما مني بالهزيمة .

هذا ونجد ان الروايةالاسلامية قد اختلفت في تقدير عدد الجيش النصراني فيقدره صاحب روض القرطاس[1] بمئة وثمانية الاف فارس ومئتي الف راجل، ويقدره صاحب الحلل الموشية بثمانين الف فارس وابن الكردبوس بستين الفا .[2]

---

(1) ابن ابي زرع: الأ نيس المطرب بروض القرطاس،ص١٤٥

(2) مؤلف مجهول: الحلل الموشية،ص٥٦ ، ابن الكردبوس:تاريخ الأندلس،ص٩٤

أما الجيش الاسلامي فيقدره صاحب الحلل الموشية بثمانية واربعين الفا ، بينما يقدره صاحب المعجب بعشرين الفا ، وعلي اية حال فانه يمكن ان نستخلص من هذه الروايات المختلفة ان جيش المسلمين كان اقل عددا من جيش النصاري.

بقي الجيشان في حالة تأهب استعد ادا للقتال لمدة ثلاثة ايام ، وكانت الرسل تختلف بينهما ، وفي خلال تلك الأثناءارسل الأمير يوسف بن تاشفين كتابا الي الفونسو السادس عملا بأحكام السنة يعرض عليه فيه: الدخول في الاسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ، وجاء فيه ايضا :"..وقد بلغنا يا أذفنش انك دعوت الي الاجتماع بك وتمنيت ان يكون لك فلك تعبر البحر عليها الينا فقد اجتزناه اليك وجمع الله في هذه العرص بيننا وبينك وستري عاقبة دعائك .

لما وصل الخطاب الي الفونسو امتلأ غضبا وحقدا ، ثم كتب الي يوسف بن تاشفين بأن يكون اللقاء يوم الاثنين حيث ذكر أن غدا يوم الجمعة وهو عيد كم ، وبعده السبت عيد اليهود وهم كثيرون في محلتنا ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فوافقه يوسف علي ذلك بيد ان المعتمد بن عباد ،كان مدركاً لمكايد الروم، فأشار علي يوسف بالتأهب والاستعداد خشية ان يشن العدو هجوما مفاجئا علي جيش المسلمين قبل اليوم المحدد للقتال،وفعلا زحف الفونسو السادس بقواته وفاجأ الجيش الاسلامي بالهجوم في يوم الجمعة ١٢من رجب سنة٤٧٩هـ/٢٣من شهر اكتوبر سنة١٠٨٦م(١)، حيث دارت رحي تلك المعركة في فحص الزلاقةSagrajas علي أحد نهيرات وادي آنه، الذي يسمي حاليا بنهر جيريروعلي بعد نحو اثني عشر كيلومترا الي الشمال الشرقي من مدينة بطليوس، حيث اشتبكت مقدمة القشتاليين والارغونيين

---

(1) حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين،ص٢٨١ ،احمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ،ص٩٨

بقيادة البرهانس مع مقدمة الاندلسيين بقيادة المعتمد بن عباد، وكان اشتباكا عنيفا أدي الي تقهقر الأندلسيين، ولاذ بعضهم بالفرار الي نواحي بطليوس قبل وصول النجدة من المرابطين، وبقي المعتمد بن عباد مع فرسانه في مواجهة النصاري،وأ ظهر شجاعة فائقة في القتال حتي أثخن بالجراح، بيد أن يوسف بن تاشفين ما كاد يعلم بتراجع أ هل الاندلس حتي ارسل فرقة من القوات المرابطية بقيادة داود بن عائشة لمؤازرتهم ، فاستطاع ان يخفف من عنف هجمة النصاري علي المعتمد، ثم بعث يوسف قائده سير بن ابي بكر لنجدة القوات الأندلسية والمرابطين وسار هو في أثرهم بجيشه من لمتونة وقبائل المرابطين من صنهاجة حيث قصد معسكر النصاري فأضرمه نارا، ثم شن هجوما مفاجئا علي جيوش الفونسو واثخن فيهم قتلا، عند ذلك اضطرت قوات الفونسو الي التراجع لانقاذ معسكرهم ، وماكاد أهل الاندلس يعلمون بما حدث حتي انقلبوا من الفرار الي الهجوم واطبقوا علي النصاري من الخلف فاصبح هؤلاء بين شقي الرحي، واصطدمت قوات يوسف بقوات الفونسو في معركة ضارية كسرت فيها شوكة القشتاليين وتمكن الفونسو بعد خسائر فادحة من الرجوع الي محلته،ثم استأنف القتال حيث كان يوسف علي فرسه يحرض المسلمين علي الثبات ويقوي نفوسهم علي الجهاد ،كما كان لطبوله دوي هائل أزعج جنود الفونسو واجفل خيولهم واهتزت له الارض، ويذكر كذلك ان ظهور الابل لاول مرة في الاندلس أذهل النصاري

وقاتل المرابطون في صفوف متراصة،وعندما حمي وطيس المعركة دفع يوسف بن تاشفين بفرقة من حرسه السودان وقوامها اربعة آلاف مقاتل وكانوا مسلحين بمزاريق الزان وسيوف الهند ودرق اللمط، فانقضت

كالصاعقه علي قوات النصاري، وتمكن احدهم من طعن الفونسو السادس في فخذه طعنة بالغة لازمه أثرها بقية عمره.[1]

علي اية حال انتهت المعركة بهزيمة ساحقة للقوات النصرانية حيث يحكي ان موضع المعركة كان علي اتساعه، ما كان فيه موضع قدم الا علي ميت او دم، وتمكن الفونسو بعد اصابته من الفرار في دون الخمسمائة من فرسانه معظمهم جرحي واعتصموا بتل قريب من محلتهم بعد ان أباد القتل والاسر من سواهم .

وكان المعتمد بن عباد قد نصح يوسف بمطاردة فلول النصاري والاجهاز عليهم، بيد ان يوسف اعتذر عن ذلك، وقد عبر الحميري عن الخلاف في وجهتي نظر يوسف وابن عباد بقوله:" وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين فقالت شيعة ابن عباد: ان يوسف خاف ان يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع الاستغناء عنه، وقالت شيع يوسف: انما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العودة الي جزيرة الاندلس[2] وهنا يمكن القول انه لو كتب للمسلمين استثمار نصرهم في الزلاقة بمطاردة عدوهم واستئصال شأفته لكان بامكانهم القضاء علي مملكة قشتالة او علي الاقل استرجاع مدينة طليطلة عاصمة الفونسو السادس آنذاك، وهكذا انتهت موقعة الزلاقة بانتصار حاسم للمسلمين، ويرجع ذلك الي الخطة الجديدة التي اتخذها يوسف في قتاله للنصاري حيث جعل المرابطين صفوفا متراصة ملتحمة وثابتة كأنها بنيان مرصوص، وهذا اللون من القتال لم يشهده النصاري في المعارك التي خاضوا غمارها مع القوات الأندلسية، فعجزوا برغم تفوقهم في السلاح عن مناهضة هذه الصفوف .

---

(1) الحميري : الروض المعطار، ص٤٧٣

(2) حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين ،ص٢٧٧ -٢٧٨ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ،ص٣٠٩

هذا الي جانب جمال المرابطين وأصوات طبولهم الهائلة ،قد أحدثت اضطرابا في صفوف خيالة العدو التي صارت تجمح براكبيها في المعركة ، ويبدو أن عادة استخدام الطبول الضخمة أخذها المرابطون من زنوج أفريقيا ، وكذلك يبدو أن المرابطين استخدموا سلاحا جديدالم يعرفه الأسبان وهي الخناجر المقوسة التي كان المرابطون يطلقون عليها اسم الطاس او الاطاس.

ويضيف استاذنا الدكتور حسن احمد محمودسببا آخرا له وجاهته ، وهو الروح الجديدة التي كانت تضطرم بها نفوس المجاهدين من المرابطين من الحمية والتحمس للدين والتسابق الي الاستشهاد[1]

ويبدو أن كلا من الفونسو السادس وابن تاشفين قد اعتمدا علي عنصر المفاجأة في وقعة الزلاقة، فالفونسو كان قد باغت المسلمين بالهجوم قبل اليوم المحدد للقتال، أما يوسف بن تاشفين فقد عمدالي مفاجأة مضادة، اذ قامت قواته الاحتياطية بهجوم مفاجيء علي معسكر النصاري وأضرمت فيه النار، ومما يجدر ذكره ان السهام المرابطية لعبت دورا كبيرا في المعركة، وكانت الابل المحملة بها تطوف بين المقاتلة، وعندما نشب القتال ركز الرماة علي طعن الخيول ومن العجيب أن فكرة الاستكثار من السهام وتوزيعها علي المحاربين قد استخدمها صلاح الدين في موقعة حطين أيضا ، وهكذا نجحت هذه الحيلة في موقعتين متباعدتين، أما بالنسبة لخسائر الفريقين فا ن المصادر الاسلامية تجمع علي ان عدد القتلي من النصاري كان كبيرا، وان خسائر الجيش الاسلامي كانت أقل كما يصفه عبدالله بن بلقين :" ولو ان تلك الوقيعة تكون علي اعداد من وقوف الفئتين ومناطحتها في اللقاء ، لفقد من العسكرين الأكثر ......ولم يفقد من

---

(1) جسن احمد محمود: :قيام دولة المرابطين ،ص ٢٧٨

المسلمين الا الأقل.."[1]، ومن ناحية أخري نجد ان المصادر الأسبانية تعترف بأنه قد سقطت من النصاري جموع عظيمة، وان الانتصار الذي أحرزه المسلمون كان انتصارا كبيرا، ولكنها تري ان خسائر المسلمين لم تكن اقل بكثير من خسا ئر النصاري[2] ولاشك أن انتصار المسلمين في الزلاقة أنقذ الحكم الاسلامي في الاندلس من سقوط محقق، كما أنه في الوقت نفسه ثبت أقدام المرابطين فيها، وبذلك أصبح هذان القطران (المغرب والأندلس) يكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش، كما أدت هذه المعركة الي تألق نجم يوسف بن تاشفين وذيوع صيته في المغرب والأندلس ، وفي الوقت نفسه كان لانتصار المسلمين في الزلاقة وقع طيب في الأوساط الأندلسية والمغربية ،بل وفي العالم الاسلامي بأثره ،واعتبروه مماثلا لانتصارات المسلمين الأولي في اليرموك والقادسية، كما ان الأدباء والشعراء أشاروا اليه باسم يوم العروبة ، وجادت قرائحهم الشعرية بهذه المناسبة، يقول ابن جهور (ت٥٨٥هـ) وهو أحد أدباء وفقهاء اشبيلية :

لم تعلم العجم اذ جاءت مصممة   يوم العروبة ان اليوم للعرب [3]

لم يتمتع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين طويلا بثمرة هذه الانتصارات فقد أصابته العلة في سنة٤٩٨هـ/١١٠٤م، فلم يزل مرضه يشتدحتي توفي في مستهل سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، ودفن في قبر بسيط في حاضرة ملكه.

وهكذا حمل يوسف بن تاشفين لواء الجهاد واستطاع أن يصنع وحدة امتدت من السودان الغربي الي الاندلس ،حتي خطب له علي الفي منبر

---

(1) عبد الله بن بلقين : التبيان،ص١١٦

(2) Huici Miranda :La Batalla de Zallaka , Hesperis,1953

-Dozy, Histoire,vol.,111,p.129

(3) ابن بسام الذخيرة ،ج١،القسم الرابع،ص ٢٤٤

،وكان دائم التفقد لعماله ورعيته، محبا للفقهاء،والعلماء ، مقربا لهم ، وأجري عليهم الارزاق،وكان يشجع بناء المساجد ويأمر بتشييدها في جميع البلاد، اذ كان يدرك أهميتها ليست كبيوت عبادة فحسب بل كمدارس لتعليم القرآن والشريعة وأصول الدين، وساس هذا الملك العريض الذي لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله ،بحكمة وسياسة دلت علي ملكات ادارية وتنظيمية كبيرة وكان أساس تنظيمه كله العدل، كما كانت له شخصية مهيبة فرضت نفسها علي رجال القبائل الصنهاجية، ومن هنا يمكن القول أن يوسف بن تاشفين هو المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين فهو الذي وطد أركانها واعطاها كيانا دوليا ثابتا .

علي بن يوسف بن تاشفين :

لما توفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، خلفه ابنه علي بن يوسف، ولم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره، وكانت أمه أسبانية الأصل، ورغم ذلك اجتمعت عليه الدولة المرابطية(١)، يقول أبن أبي زرع: «.. وملك من البلاد ما لم يملكه والده، لأنه وجد البلاد هادئة، والأموال وافرة، والملك قد توطأ والأمور قد استقامت»(٢)، يصفه المراكشي بقوله: «حسن السيرة جيد الطوية، نزيه النفس بعيدًا عن الظلم، كان إلى

---

(1) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٦١، ٧١، ٩٠، ٩٧، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٥٧، ١٦٥، وراجع: هويثي ميراندا: علي بن يوسف وأعماله في الأندلس، مجلة تطوان، سنة ١٩٥٨، ١٩٥٩، العدد: ٣، ٤، ص ١٥٥.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٥٧.

أن يعد في الزهاد المتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين، واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين»[١].

سار علي بن يوسف في صدر ولايته على سنة أبيه في نشر الإسلام، والجهاد في سبيل الله وحماية البلاد، وضبط الثغور، وموالاة الجهاد، واستمر تطور الدولة المرابطية في عهده، حيث اتسعت مدينة مراكش، وابتنى لها سورًا عظيمًا في سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، وأدخل توسعة على جامع أبيه في تلمسان، كما أجرى زيادة على جامع القرويين بفاس، واستعمل الروم حراسًا له، وازدهرت الأحوال الاقتصادية في دولته، وأصبح الدنيار المرابطي له طابع العالمية في التبادل التجاري في منطقة البحر المتوسط لجودته[٢]، كما يدل كذلك على ارتفاع قيمة هذه العملة كثرة المعاملات والتداول، حتى لقد قيل أن الدينار المرابطي وصل إلى القسطنطينية[٣]، ويرجع ذلك إلى أن دولة المرابطين سيطرت على كل الطرق المؤدية إلى السودان الغربي، حيث يستخرج الذهب، الأمر الذي انعكس على الكميات الكبيرة من الدنانير الذهبية التي سكها المرابطون ابتداء من عهد أبي بكر بن عمر أول أمراء المرابطين الذي ضرب سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م، بسجلماسة دينارًا باسم الخليفة العباسي[٤].

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٧١.

(2) Goitein, S.D.,: A Mediterranean Society, Vol. I, P. 235.

(3) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٤٠٣.

(4) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس، العدد (١ -٢)، ١٩٥٨، ص ٤٩، وراجع حسن خضيري: أهم مراكز تجارة الصحراء المغربية، ص ٤٢ -٤٣.

على أن فترة حكم الأمير علي بن يوسف تعتبر شاهدًا على التأثيرات الأندلسية الحضارية في دولته حيث تدفق أهل الأندلس على مراكش وغيرها من الحواضر المغربية، وكان كتابه جميعهم أندلسيون، وقد أمدنا المراكشي بمعلومات هامة في هذا الشأن فقال: «ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته، يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته على ذلك حتى اجتمع له منهم، ما لم يجتمع لملك ..»[١].

لم يقف الامر عند هذا الحد بل ان سائر الأعلام في الحياة الفكرية كانوا من الأندلسيين، مثل ابن خفاجة (ت ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨) الشاعر، وابن بسام (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) الأديب، وابن قزمان (ت ٥٥٤ هـ/ ١١٦٠م) إمام الزجالين، وابن زهر الوزير الطبيب (ت ٥٥٧هـ/ ١١٦١م)، الذي يعد بحق أشهر أطباء الأندلس، وأكبر الأطباء بعد جالينوس[٢]، وامتد تأثير الأندلسيين إلى الفنون والعمارة، وإليهم يعود الفضل في ابتناء عمائر كثيرة في تلمسان والجزائر ومراكش.

سقوط الدولة المرابطية:

ولما كانت دولة المرابطين أساسها ديني، وأمراؤها الثلاثة ذو زهد وعبادة، فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء، ليضفوا على الدولة الصبغة التي يؤثرونها، فارتفع شأن هؤلاء أكثر من قبل، فكان علي بن يوسف «لا يقطع أمرًا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولي أحدًا من قضاته، كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرًا، ولا يبت حكمه في صغير من

---

(1) المراكشي: المعجب، ص ١٦٤.

(2) حسن خضيري: بنو زهر ودورهم في ازدهار الطب في الأندلس في القرنين الخامس والسادس للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد: ٤٢ يناير ٢٠٠٣، ص ١٣ – ١٧.

الأمور ولا كبير إلا بحضور أربعة من الفقهاء، فبلغوا في أيامه مبلغًا عظيمًا، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس»[1].

ونال الفقهاء من تلك الأسباب ثروات ضخمة، ومكاسب كبيرة، أثارت حفائظ الشعب، وزينوا للأمير البطش فيمن يخوض في علم الكلام، ولما دخلت كتب الغزالي إلى بلاد المغرب أمر الأمير علي بن يوسف في سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٥م، بإحراقها وبخاصة كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، وتقدم بالوعيد الشديد بعد سفك الدم، ومصادرة المال لمن وجد عنده شيء منها، وقد اشتد في تنفيذ ذلك[2].

من ناحية أخرى فإن رجال الدولة المرابطية، قد فارقوا حياة البادية، وتمرسوا بحياة الحضر، وبدأت تزول عنهم خشونتهم التي اشتهروا بها، واتخذ بعضهم أسلوب حياة معاصريهم من الأندلسيين وتأثروا بترفهم، مما أفقدهم بعض خصائصهم الأصلية وفضائلهم، ويبدو أن نشأة علي بن يوسف الأندلسية، كان لها جل الأثر على حياته، فهو لم يكن صحراويًا، كما كان أبوه من قبل ولم يولد في الصحراء، وإنما ولد على ضفاف البحر المتوسط في مدينة سبتة، من أم أسبانية كما سبق أن أسلفنا، وتلقى ثقافة أندلسية بحتة منذ نعومة أظافره، أضف إلى ذلك أن النساء في مجتمع لمتونة كانت لهن منزلة حرصن على أن يحتفظن بها في بلاط المرابطين، وأتاحت لهن حرية الحياة النسبية، التي لم يفقدنها على الإطلاق عند رحيلهن عن الصحراء، التدخل في شئون الدولة، والتمتع بالسلطة، وصارت كلمتهن مسموعة، يقول المراكشي: «.. واستولى النساء على الأموال، وأسندت إليهن

---

(1) المراكشي المعجب، ص ١٧١.

(2) نفس المصدر، ص ١٧٢.

الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة، ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل، وصاحب خمور وماخور»(١).

كذلك فإن الجهاد الذي طال أمده في الأندلس ارهق هؤلاء المحاربين من المرابطين، ونظرًا لآن المرابطين سبق لهم وأن تعاملوا مع أهل الأندلس بجفاء، فإنهم لم يحظوا منهم بالمعاونة الكافية في هذا الجهاد، بل إن الأندلسيين ثاروا ضدهم عدة مرات، وبلغ الأمر من الأندلسيين أن اتحدوا مع نصارى الشمال ضد إخوانهم في الدين المرابطين، ولما كانت دولة المرابطين قائمة على قاعدة الجهاد، فكانت تكاليف الحرب تأتي على معظم دخل الدولة، علاوة على أن أمراء المرابطين لم يكونوا مثل أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين في تعففه عن أموال الناس، ووصل الأمر إلى استبداد بعض المرابطين في وظائفهم، وكان يخشى محاسبتهم(٢).

وهكذا انهارت القاعدة التي قامت عليها دولة المرابطين، وهي البعث الديني والجهاد، وابتعدت المسافة بين فئتي الإدارة العليا، ويمثلها أمير المسلمين الصالح الزاهد وحوله الفقهاء، والفئة الثانية، ويمثلها الولاة، وهم ولاة ضعاف أو مستبدون، تتصرف النساء في شؤون ولايتهم، وكان معنى ذلك أن أية عاصفة قوية تهب على الدولة سوف تعصف بها وتقضي عليها، وهذا ما حدث بالفعل عند ظهور دعوة الموحدين(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الجهاد لابد له من مال ورجال، وكان المرابطون في عهد إقبالهم يلتزمون بالضرائب الشرعية، ويعرضون عن

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٧٧، ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

(2) ابن عبدون، محمد بن أحمد التجهيني (ت القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي): رسالة في الحسبة، نشر ليفي بروفنسال ١٩٥٥، ص ٥، وراجع عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام، ص ١٣٦.

(3) عصمت دندش: المرجع السابق، ص ١٣٦، ١٣٧.

سواها، لكنهم بعد أن طال الأمد بحروبهم، وتحولوا في هذه الحروب إلى الدفاع، فقد تقطعت الغنائم، فانصرفوا إلى النوائب والمغارم، يفرضونها على رعاياهم في المغرب والأندلس، وتعسفوا في جبايتها، مما أثار حنق الأهالي عليهم وشرعوا ينصرفون عنهم ويقلبون لهم ظهر المجن، يقول ابن عبدون: «إن الرئيس العادل الساعي إلى الخير، المرتبط بالناموس أصبح يلتمس فلا يوجد[١]»، هذا فضلاً أن المرابطين بدأوا يعانون من قلة أعداد فرسانهم بسبب هلاك العديد منهم في الحروب، التي لم تنقطع طيلة عهد هذه الدولة، ثم إن الأندلسيين بدأوا ينصرفون عن الخدمة في الجيش، عندما تغيرت علاقتهم بالمرابطين، مما اضطر علي بن يوسف إلى التوسع في استقدام الروم والأغزاز، ولما كان هؤلاء أجانب، لا يهمهم إلا ما يرضي سيدهم ويرضيهم، ومن هنا كانت توجهاتهم إلى التعامل مع أهل البلاد بما لا يرضيهم، وتفننوا في نهب أموالهم، وفي خضم هذه الأحداث ظهرت دعوة الموحدين، وكان من الطبيعي أن ينشغل أمير المسلمين علي بن يوسف في مجابهة هذه الدعوة، فتشتت جهوده بين جهاد الممالك النصرانية في الأندلس وجهاد الموحدين، وأثقل بيت المال بالنفقات، ولم يزل أمير المسلمين على بن يوسف يوالي الحروب على أصحاب المهدي من كل جانب، ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب، ويأمرهم بملازمة السكنة، حيث كانت لهم الطاعة من أهل الجبال، ويقيمون المدة الطويلة، في الحرب معهم والقتال، وينفق عليهم بيوت الأموال، رجاء دفع دائهم العضال، فدامت أكثر مدته في حروب معهم[٢]، لعل هذه العوامل مجتمعة عجلت بسقوط دولة المرابطين على أيدي خصومهم الموحدين.

---

(1) ابن عبدون: رسالة في الحسبة، ص ٥.

(2) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ٨٢، عصمت دندش: المرجع السابق، ص ١٣٧.

وصفوة القول أن المغرب الأقصى أصبح يتمتع بوحدة سياسية ودينية قوية في ظل دولة المرابطين، ونجح المرابطون في القضاء على الحركات المتطرفة والهدامة، وإن انتسبت بعضها إلى الإسلام، ودعموا قواعد المذهب المالكي الذي قامت عليه دولتهم في محاولة بعث القوى الإسلامية واستنهاضها، والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى عهد السلف الصالح، بحيث صار هذا المذهب هو مذهب سكان المغرب الأقصى جميعهم وسكان الصحراء، ولقيت دعوة المرابطين الترحيب أينما حلت، واستنجد بها الفقهاء والعلماء لتخليص البلاد من المفاسد والمظالم، وتوسعت هذه الدولة في مبدأ الجهاد، وأعادت إلى الأذهان صورة الدولة الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين، وسطر أبطال المرابطين أروع صفحات الجهاد في ساحات الوغى في الأندلس، وأخروا ضياعها ولو إلى حين بعد أن تمزقت إلى عشرين دولة أو نحوها من دول الطوائف، وأحدق بها النصارى من كل وجهة، وأضحت مدنها تتساقط تباعًا في أيديهم، وقد هلك في هذا الجهاد بعض من قادة المرابطين في معارك أخرى، كما يضاف إلى رصيد حسنات هذه الدولة، ما قاموا به من جهاد في بلاد السودان، حتى اضحت أقدامها راسخة، وصارت هذه البلاد امتدادًا حضاريًا إلى جانب كونها امتدادًا سياسيًا للمغرب الأقصى، وزادت أهمية الدور الذي اضطلع به دعاة المرابطين في تعليم الناس قواعد الإسلام، مما أدى إلى تحول كثير من أهالي البلاد المفتوحة إلى الإسلام، ولعل امتداد الاسلام وتعميقه في نفوس المغاربة كان بمثابة خطوة هامة وأساسية في تعريب المغرب الأقصى، ولم تعد اللغة العربية غريبة في هذه الأصقاع، ولم تلبث أن صارت اللغة الأم، كما نتج عن امتزاج التقاليد الإسلامية التي نقلها المرابطون إلى بلاد السودان بالتقاليد الزنجية المحلية، أن ظهرت تقاليد

إسلامية زنجية[١]، وخطا المغرب على أيدي المرابطين خطوات واسعة نحو الوعي بشخصيته ومسئوليته نحو عقيدته الإسلامية، وظهرت لأول مرة فكرة توحيد المغرب في دولة واحدة على يد المرابطين، كما تعد السيطرة على طرق التجارة البعيدة انتصارًا للدولة المرابطية، فقد تمكنت من استغلال دور الوسيط التجاري الذي أصبحت تلعبه، الشيء الذي مكنها من جنى فائض وظف في حركة توحيد المغرب الإسلامية[٢].

---

(1) عصمت دندش: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(2) إبراهيم القادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي، ص ٧٥ – ٧٦.

دولة الموحدين
«٥٤٠ - ٦٦٨ هـ/ ١١٤٥ - ١٢٢٣م»

نشأت دولة الموحدين شأنها في ذلك شأن دولة المرابطين، في أن كل منهما قام على أساس ديني، وإن اختلفا في المذاهب التي ينتمي إليها كل منهما، كما أن كل منهما قام بفضل جهود رجل واحد، وإن كانت دولة المرابطين قامت بجهود الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين، فإن دولة الموحدين قامت بجهود محمد بن تومرت، ولقد كان النجاح الذي أحرزه المرابطون في إقامة دولتهم، بمثابة الدافع لهم المصامدة في أن يقيموا لأنفسهم دولة تضاهي دولة المرابطين، خاصة وهم أغنى بلادًا وأعز نفرًا.

المهدي بن تومرت:

ومؤسس هذه الدولة هو الفقيه محمد بن عبد الله بن تومرت الهرغي المصمودي السوسي[١]، يتضح من أسمه أنه من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة الساكنة في بلاد السوس بجبال أطلس، ويذكر المراكشي أن قومه كانوا يعرفون بالشرفاء[٢].

ولد ابن تومرت بقرية إيجيليز ببلاد السوس، وتلقى في صباه تعليمًا تقليديًا بكُتَّاب القرية، ولما اشتد عوده، ارتحل في طلب العلم من منابعه بالمشرق، وطاف بعواصم الحجاز والشام والعراق ومصر، وقضى في رحلته سنين عِدَدًا، والتقى بالعديد من علماء المشرق ومن بينهم الإمام أبو حامد

---

(1) المراكشي: المعجب، ص ٢٤٥.

(2) نفس المصدر، ص ٢٤٥، انظر حسن خضيري: علاقات الفاطميين، ص ٨٨.

الغزالي[١]، وعند عودته من المشرق عرج على مدينة الإسكندرية، فأقام بها يختلف إلى مجلس الفقيه أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)، في عهد الخليفة الفاطمي الآمر، «وجرت له بها وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أفضت إلى أن نفاه متولي الإسكندرية عن البلاد»[٢].

على أن ابن تومرت تأثر بآراء المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، كما تأثر أيضًا بفكر الظاهرية، وابن حزم على وجه الخصوص، وهو فكر مناهض لفكر المالكية، ونادى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتوحيد الخالص، ومن هذا المنطلق أطلق على أصحابه الموحدين، «وكان المهدي بن تومرت أوحد عصره في علم الكلام، وعلوم الاعتقاد، وحافظًا للحديث والفقه، له لسان وفصاحة»[٣].

أخذ ابن تومرت يشيع بين الناس أنه الإمام المنتظر، المخبر به القائم في آخر الزمان الذي يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جورًا[٤]، يقول المراكشي[٥]: «وكان يبطن شيئًا من التشيع، ويدعي العصمة لنفسه، وأن كان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات»، والمعروف أن بعض فرق الشيعة تعتمد في أصولها على أراء المعتزلة، كما تذهب إلى أن صفات الله من ذاته، هذا فضلاً عن ادعاء ابن تومرت بالمهدي المنتظر، وعصمة الإمام، ورفع نسبه إلى الرسول ﷺ، يجعل دعوته تقترب من آراء الشيعة.

---

(1) يشكك الدكتور حسين مؤنس في التقاء المهدي بالإمام الغزالي، لأن الغزالي غادر بغداد سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، ثم توفي في طوس سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م، وأن ابن تومرت غادر بلده متجهًا إلى المشرق سنة ٥٠٦ هـ/ ١١١٢م. (معالم تاريخ المغرب ص ١٧٧ – ١٧٨).

(2) المراكشي: المعجب ص ٢٤٦، ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٧٠.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس، ص ١٠٧.

(4) المراكشي: المعجب، ص ١٠٨.

(5) نفس المصدر، ص ٢٥٥.

ومهما يكن من أمر فإن المهدي بن تومرت، أراد أن يضمن لدعوته النجاح فجعلها مزيجاً من هذه التيارات والأفكار الثقافية والفقهية التي كانت معروفة في المغرب[١]، كما صاغ أفكاره على تناقضها أحيانًا، فيما يوافق مصلحته وأهدافه السياسية ومراميه، وعلى هذا الأساس رأى الموحدون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أكثرهم إيمانًا ومعرفة، ولقبوا أنفسهم بأمراء المؤمنين، فعندما «أقر المهدي على الجيش عبد المؤمن بن علي، قال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم، فاستحق عبد المؤمن من يومئذ إمرة المؤمنين»[٢].

شاهد ابن تومرت في رحلتي الذهاب والعودة منكرات، حاول أن يغيرها بالقوة، وهو ما فعله في المهدية وتونس وبجاية، وأكسبه ذلك شهرة عند عامة الناس وخاصتهم، وبعد فترة ارتحل إلى تلمسان ثم فاس، حيث جعل مجلسه في أحد مساجدها، وبدأ طلبته ومريديه يهاجمون الحوانيت التي تبيع آلات الطرب ويكسرونها، وما لبث أن طرده والي فاس من المدينة، فمضى إلى حاضرة البلاد مراكش، وفي مراكش ناظر الفقهاء فغلبهم، وعوَّل الأمير المرابطي علي بن يوسف ابن تاشفين على حبسه سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م، بيد أنه اكتفى بطرده من المدينة فغادرها على أغمات، ثم إلى قريته بالسوس، حيث دخلت دعوته طورًا جديدًا، وباتت تهدد الدولة المرابطية، وركز ابن تومرت دعوته على التوحيد، وشن حملة ظالمة على المرابطين، ورماهم بالتجسيم، وأخذ على فقهائهم عدة مسائل من بينها قولهم بالقياس والإجماع، كما أطلق علي المرابطين الزراجنة حيث شبههم بطائر أسود البطن، أبيض الريش يقال له الزرجان، لأنهم بيض الثياب سود القلوب[٣].

---

(1) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١١٠.

(2) المراكشي: المعجب، ص ٢٦٠.

(3) ابن القطان: نظم الجمان، ص ٨٥.

واصل ابن تومرت مسيرته إلى بلاد السوس، فوصل إلى جبل ايجليز من بلاد هرغة موطن قومه وعشيرته، ولما استوثق من قبيلته، وأنه أصبح في منعة، قام خطيبًا في أصحابه وأعلن أنه المهدي المنتظر الذي بشر به الرسول ﷺ، وبعد أن فرغ من خطبته، جلس في ظل شجرة خروب ليتلقى بيعة أصحابه، فهرع إليه عشرة من أخلص أصحابه، وبايعوه على أنه المهدي المنتظر والمعصوم، وقد أطلق على هؤلاء العشرة اسم أهل الجماعة[١]، وما لبث أن بايعه بعدهم خمسون رجلاً، فسموا أهل خمسين وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدي، ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين، وهم الطبقة الثالثة، وأصبحت هذه الطبقات الثلاث تمثل النواة الأولى لدولة الموحدين، أما بقية أصحاب المهدي فانقسموا إلى عشر طبقات تضم طلاب العلم والحفاظ وهم صغار الطلبة، وأهل الدار وهم أقارب المهدي وعشيرته وقبيلته وأهل تينمل وغيرهم من القبائل والجند وأخيرًا الغرات وهم الأحداث الصغار[٢].

بعد أن اطمأن ابن تومرت إلى اكتمال تنظيمه، وكفل له القدرة على العمل، بدأ في مواجهة دولة المرابطون مواجهة مباشرة، وخاض معهم عدة معارك تكبد فيها المرابطين هزائم متتالية، وتوالت انتصارات الموحدين، وكان من نتيجتها أن وجه محمد بن تومرت رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى طاعته، وينذرهم فيها بهلاكهم إذا لم يستجيبوا، وقد أورد صاحب الحلل الموشية نص هذه الرسالة بقوله: «.. وكفا بنا هذا إليكم اعذار وانذار، وقد أعذر من أنذر»[٣]، ويعدد لنا البيذق المعارك التي دارت رحاها بين المرابطين والموحدين، ويذكر أنها بلغت ثمان غزوات متوالية[٤]،

(1) ابن القطان: نظم الجمان، ص ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ١٢٣.

(2) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ٧٩، محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين، ص ١٧١ — ١٧٢

(3) نفس المصدر: ص ٨١.

(4) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، ص ٧٤ — ٧٨.

الأمر الذي أتاح للموحدين أن يبسطوا سيطرتهم المطلقة على بلاد السوس، على أن أكبر المعارك التي خاضها الموحدون ضد أعدائهم من المرابطين، هي التي وضع خطتها محمد بن تومرت سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، حيث أفضت إلى الدخول في مراكش، بيد أن المرابطين استعادوها في السنة التالية[1].

تأهب محمد بن تومرت للمعركة الفاصلة، وجمع أنصاره وعبأ قواته وجعل قائديه المعتمد أبا محمد البشير وعبد المؤمن بن علي في مقدمة جيوشه، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمرابطين في البداية، إلا أن الموحدين لم يتسنى لهم دخول مراكش، مما جعلهم يحشدون قواتهم لمعركة أخرى، استبسلوا فيها وهزموا المرابطين، وزحفوا نحو مراكش، ورابطوا أمام أسوارها وأبوابها واستمروا في حصارها، ورغم ذلك كله فإن الموحدين لم يستطيعوا أن يضعوا نهاية للمرابطين الذين استنفروا سائر أمراء القبائل المغربية الموالية لهم، فوافقهم بالعساكر والحشود، وكان من نتيجة ذلك أن وقعت بين الطرفين أكبر معركة هي معركة البحيرة، واسفرت هذه المعركة عن هزيمة الموحدين، وقتل منهم عدد غير قليل، ولم ينج من عساكرهم إلا أربعمائة بين فارس وراجل، وسقط بين القتلى المعتمد أبا محمد البشير أكبر قادتهم، وقتل معه معظم الرؤساء والقادة، ومنهم الأصحاب العشرة لمحمد بن تومرت[2].

عبد المؤمن بن علي :

توفي محمد بن تومرت في سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م بعد شهور قليلة من موقعة البحيرة، وكتم أصحابه خبر وفاته ثلاث سنوات، وخلفه في رئاسة الموحدين

---

(1) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ٨٤ – ٨٥، عنان: عصر المرابطين، ص ١٨٨.

(2) ابن القطان: نظم الجمان ص ١٩٩ – ١٢٠، ابن أبي زرع: الأنيس، ص ١١٤.

عبد المؤمن بن علي الكومي[1]، ومما يجدر ذكره أن توليه أمر الموحدين في هذه الفترة الحرجة، كان يمثل مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين المرابطين والموحدين، وبداية تحول في تاريخ الموحدين، فلم تمنع هزيمة البحيرة ولا موت المهدي أن يواصل الموحدون نضالهم ضد المرابطين، واستطاع عبد المؤمن بن علي أن ينظر شئون الموحدين ويحشدهم، ويستنفرهم لجهاد المرابطين، وخلال السنوات العشرة التالية، دارت بعض المعارك بين الموحدين و الأمير علي بن يوسف لتشكل بداية النهاية لدولة المرابطين، حيث دب الخلاف في صفوف المرابطين، وفي نهاية سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، لم يكن ثمة شك في انهيار دولة المرابطين وسلطانهم في المغربين الأوسط والشمالي حيث بسط الموحدون نفوذهم على سائر القواعد الجنوبية للمرابطين، فيما عدا مراكش وبعض الثغور الشمالية، وبات واضحًا أن الضربات التي تلقتها دولة المرابطين فتت في عضدها و أضعفتها، وبددت قواها خلال تلك المعارك، وما لبثت أن سقطت مكناسة، واتخذ بذلك عبد المؤمن بن علي طريقه إلى مراكش عاصمة المرابطين، وانضمت إليه قبائلهم، وتمكن الموحدون من السيطرة على جبل إيجليز الذي يشرف على مراكش، وبذلك أحكموا الحصار حول مراكش، وعند أول لقاء بين الفريقين دارت الدائرة على جيش المرابطين، وتمكن جند الموحدين من تسلق أسوار مراكش، واقتحموها، وعندها سقط آخر معقل للمرابطين، وزالت دولتهم سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، وانتهى حكم أسرتهم بمقتل الأمير المرابطي اسحاق بن علي بن تاشفين آخر أمرائهم على يد الموحدين[2]، واستقرت الحال لعبد المؤمن بن علي واتخذها حاضرة له، وأدخل الموحدون

---

(1) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٩٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص ٥٣.

(2) ابن عزارى: البيان، حـ٤، ص ١٠٨، ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص ٢٣٢.

عليها اصلاحات كثيرة، وبنوا فيها مسجدهم الجامع، وأتموا جلب المياه إليها، وأنشأوا العديد من السقايات.

وفي سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، استقبل عبد المؤمن بن علي وفدًا من أهل اشبيلية رفعوا إليه البيعة، مكتوبة بخطوطهم، فاستحسن خليفة الموحدين موقفهم، وقبل طاعتهم، وكان لهذه البيعة أثر بالغ في نفوس الموحدين، انعكس على اشبيلية وأهلها، فقد آثر الموحدون اتخاذ اشبيلية حاضرة للأندلس في عهدهم دون سواها، وكان قبل ذلك أذعنت له سبتة بالطاعة، ودارت في فلك دولة الموحدين، ولما افتتح عبد المؤمن المغرب الأوسط أدخله في دولة الموحدين، بعد أن قضى على دولة بني حماد فيه، ثم قام بمحاربة قبائل بني هلال الذين وقفوا في وجهه، وتمكن الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة، وبدلاً من أن يقوم عبد المؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها، نجده ينقل معه ألفًا من كل قبيل منهم وينزلهم بالمغرب الأقصى(١)، كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزيل العطاء(٢)، ويبدو أنه قام بهذا العمل ليبعد شر هذه القبائل عن إفريقية والمغرب الأوسط، ويجعلها في متناول يده، كما أن جلبه لتلك الآلاف منهم وإنزالهم بالقرب منه، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوى بهم، ويجعلهم عصبة له ضد ثورات المصامدة المحتملة(٣).

لما اطمأن عبد المؤمن إلى سلامة الخطوات التي اتخذها في سبيل أن تكون له السيادة الكاملة في الدولة، وتأكد له ولاء أغلب الطبقات في النظام الجديد، وضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال وسليم التي

---

(1) ابن ابي زرع: الأنيس، ص ١٣٠.

(2) البيذق: اخبار المهدي، ص ١١٦، وراجع: مراجع عقيلة الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص ٥٩.

(3) مراجع عقيلة: المرجع السابق، ص ٦٠.

أنزلها في أحواز مراكش، أقدم على خطوة خطيرة ما فتئ يستعد لها ويكرس الجهود ويمهد الطريق أمامها، ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه، وبالفعل في سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م أعلن عبد المؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في طاعتهم من بني هلال وسليم وصنهاجة، توليته لابنه محمد وليًا لعهده، وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد [١]، وبعد أن تمت بيعة الموحدين لابن عبد المؤمن، أبي عبد الله محمد وليًا لعهده، قام عبد المؤمن بتعيين أبنائه ولاة على أغلب ولايات الدولة[٢].

عول عبد المؤمن على تكريس جهوده في السنوات التالية لمد سيطرته إلى بلاد الأندلس، وشرع في الإعداد للمشروع العسكري الضخم الذي كان ينوي تنفيذه، بدخول بلاد الأندلس في جيش كثيف للقضاء على محمد بن سعد بن مردنيش في شرق الأندلس، والقضاء على الممالك والإمارات الأسبانية فيها، وقد استعد لهذه الغزوة استعدادًا عظيمًا، وقام عبد المؤمن قبل الشروع في غزوته الكبرة بزيارة تينملل، وبعد عودته خرج من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل سنة ٥٥٠هـ/ ١١٦٣م، وكان تعداد الجيش مائة ألف راجل ومائة ألف فارس[٣]، وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده عبد المؤمن تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من اسبانيا، الجيش الأول يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال، والثاني إلى ليون والثالث إلى الفونسو الثامن ملك قشتالة، والرابع يسير إلى

---

(1) ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص ٤٩١ – ٤٩٢، وراجع: ليفي بروفسنال: رسائل موحدية، ص ٤٥.

(2) السلاوي: الاستقصا، جـ٢، ص ١٢٢، ١٢٤، مراجع عقيلة: سقوط دولة الموحدين: ص ٦٠ -٦٢.

(3) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٢١٣ -٢١٥.

برشلونه[١]، بيد أن مرض الخليفة عبد المؤمن المفاجئ، وتريث الموحدين في انتظار شفائه، ثم وفاته سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م قضى على هذا المشروع[٢].

لما توفي عبد المؤمن خلفه ابنه أبو يعقوب يوسف، وقد واجهته المتاعب الناشئة عن حكم دولة كبيرة، ولعل أهما الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين، وبصفة خاصة ثورة محمد بن مردنيش في الأندلس،هذه الثورة التي ظلت مشبوبة في شرق الأندلس هزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى في الشمال ثم امراء الأندلس والمغاربة، وعلى الرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، إلا أن ابن مردنيش استطاع أن يقف بصلابة وجسارة فترة طويلة أمام قوى الموحدين، وأن يستولي على الكثير من القواعد الاستراتيجية التي كانت في حوزتهم، وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة[٣]، حقيقة لقد شغل الموحدون بحروبهم مع ابن مردنيش، وركزوا جل قواهم للقضاء عليه، مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب أن يشقوا عصا الطاعة، فقد استنزفت حروبهم الطويلة مع ابن مردنيش طاقاتهم ورجالهم، وليس من سبيل المبالغة القول بأنها كانت بمثابة المسمار الذي دق في نعش الدولة الموحدية وأضعفها منذ قيامها.

ويبدو أن الموحدين بعد ربع قرن من الزمان تقريبًا من دخولهم الأندلس، لم يستطيعوا السيطرة على مقاليد حكمهم في المغرب والأندلس، لعل ذلك مرده إلى مجموعة من الأسباب: منها تحالف الممالك النصرانية في شمال اسبانيا ضدهم، ونقض القشتاليين للهدنة القائمة بينهم التي أبرمت سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م، إبان عبور الموحدين إلى الأندلس، ومحاصرتهم للمدن

---

(1) مراجع عقيلة: سقوط دولة الموحدين، ص ٧٨.

(2) ابن عذارى: البيان، جـ٤، ص ١٠٨ -١٠٩.

(3) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤٠٥ -٤٠٦، مراجع عقيلة: سقوط دولة الموحدين، ص ٩١.

والحصون في بلاد قشتالة، لذلك تراخت قبضتهم في المحافظة على كيان دولتهم، فاندلعت ضدهم ثورات خطيرة في الأندلس والمغرب هددت نفوذهم وزعزعت سلطتهم الدينية والسياسية[١]، وعلى الرغم من أن الموحدين استطاعوا أن يخمدوا هذه الثورات وينقذوا حكمهم إلا أن موقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م ، بينهم وبين جيوش الممالك النصرانية في الشمال جاءت لتضع حدًا لدولة الموحدين ليس في الأندلس فحسب بل في المغرب الإسلامي، فكانت هذه المعركة بمثابة بداية النهاية للمد الإسلامي في الأندلس، فلم تمض سنوات قليلة على هذه المعركة، حتي انفرط عقد الأندلس، حيث تساقطت قواعد الأندلس الكبيرة الواحدة تلو الأخرى في أيدي الممالك النصرانية، وانحسرت دولة المسلمين في الأندلس في دولة صغيرة في جنوب شبه الجزيرة، وقد كان لهذه المعركة تداعياتها السيئة في المغرب اذ تقترب من آثارها الفادحة في الأندلس، وبوفاة آخر أمراء الموحدين محمد الناصر سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٤م، ينتهي دور الموحدين في الأندلس بعد سقوط اشبيلية بأيدي الأسبان، وإن كانت دولتهم استمرت في المغرب حتى سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، وهي السنة التي قتل فيها آخر حاكم موحدي نصب من قِبَل بنو مرين في مراكش، وبدأت مرحلة جديدة بولادة الدولة المرينية في بلاد المغرب الإسلامي[٢].

---

(1) المقري: نفح الطيب، جـ١، ص ٤٢٠.

(2) الناصري السلاوي: الاستقصا، جـ٣، ص ٢٤ -٢٧، مراجع عقيلة: سقوط دولة الموحدين، ص ٢٧٤ -٢٧٥.

سقوط دولة الموحدين :

تضافرت مجموعة من العوامل أعانت على سقوط دولة الموحدين، وان استغرق هذا السقوط سنوات عديدة، لعل أهمها: تناحر بني عبد المؤمن حول كرسي الخلافة، فكان أول من شق عصا الطاعة أفراد البيت الحاكم، ولعل أوضح العوامل وأخطرها هو الضعف الذي لحق بالجيش الموحدي، فقد كان الجيش بمثابة القوة العسكرية التي تمول خزينة الدولة وتضمن سلامة وأمن واستقرار البلاد، بيد أن القوة العسكرية لم تعد في زمن الموحدين تتسم بوفرة الجنود وتماسك نظامهم ووفائهم لبني عبد المؤمن، وتشبسهم بالعقيدة التومرتية، ومما تجدر الإشارة إليه أن الموحدين استقدموا أعدادًا كبيرة من الهلالية إلى المغرب الأقصى، بهدف الاعتزاز بهم، ومشاركتهم الجهاد في الأندلس، واصطفوهم كحماة وجباة للدولة ونفس الشيء فعلوه مع بني مرين، فقاموا بواجبهم خير قيام عندما كانت الدولة ذات شوكة وسطوة فلما ضعفت الدولة تهافتوا على الإرث، بصفتهم جنودًا وقوادًا وشركاء في هذه الدولة، وتراوحت مواقف قبائلهم بين الموحدين وخصومهم وهم في الأحوال جميعها كانوا لا ينظرون إلا إلى مصالحهم وحدها، ولا يهتمون كثيرًا بما هو أبعد منها[1]، فقد تنازع الهلالية وبنو مرين على السلطة ودخلوا إلى حلبة الصراع بكيفية سافرة، عندما أصبح الحكم شاغرًا بالفعل، وعندما سقطت حرمة الدعوة التومرتية، وهذا التطور الخطير جاء على يد أحد أفراد بني عبد المؤمن من جراء تناقضات السياسة الموحدية نفسها.

---

(1) عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، جـ٢، ص ١٧٩.

كما ان إفريقية أو جزء منها كان قد انفصل عن الخلافة الموحدية، وربما السبب يكمن في استمرار مقاومة يحيى بن غانية، وبذلك خرجت ولاية إفريقية واستقلت عن جسم الدولة ليس ذلك فحسب، بل إن الحفصيين عملوا على مد نفوذهم إلى المغرب الأوسط، ورنوا بأبصا رهم إلى المغرب الأقصى، ومن ثم بعد أن أخذت دولة الموحدين تسرع الخطى نحو السقوط وبدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة، كثر عليها الثوار واتتزى الطامعون على ولاياتها وأمصارها، وأخذ نجم بني حفص في الصعود، وظهر اسم أبي زكريا الحفصي كأمير قوي، وباني لدولة جديدة تتسع أمامها رحاب المستقبل، و أخذ المنشقون على دولة الموحدين في تقديم طاعتهم للحفصيين، فدخل في طاعتهم بنو مرين بالمغرب الأقصى، وبنو عبد الواد بالمغرب الأوسط، كما دخل في طاعة أبي زكريا شرق الأندلس، وإشبيلية وشريش وجزيرة طريف، هذا بالإضافة إلى سجلماسة وسبتة وقصر عبد الكريم، كما دخل في طاعتهم محمد بن الأحمر صاحب جيان وقرطبة وغرب الأندلس، وهكذا تمكن الحفصيون من إقامة دولتهم بزعامة أبي زكريا الحفصي، وكانت ما تزال دولة الموحدين تتردد بقايا أنفاس الحياة فيها، وبذلك كان بنو حفص عاملاً رئيسيًا من العوامل التي فتت في عضد الدولة، وفي الوقت نفسه عاملاً رئيسيًا من عوامل سقوط دولة الموحدين(١).

ولعل العامل الاقتصادي إضافة إلى ما سبق كان له جل الأثر في سقوط الدولة، ولا يمكن اغفال هذا العامل، فمن المعروف أن التجارة الصحراوية، ذات المنافع الكثيرة والمنتوعة تناقصت في أواخر عهد الدولة إلى حد النضوب، أو ربما تحولت إلى جهة أخرى غير المغرب(٢)، إلى جانب ذلك، فإن

---

(1) ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص ٥٩٤، ٦١٠، السلاوي: الاستقصا، جـ٢، ص ٢٥٢ -٢٥٤.

(2) عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، جـ٢، ص ١٨١ -١٨٢.

الأساس الفكري الذي قامت عليه هذه الدولة، ما لبث أن انهار بعد عهد الخليفة الناصر، فقد تردد خلفاؤها المتأخرون بين الشك في مهدوية ابن تومرت، وبين الغاء هذه المهدوية وإرجاعها تارة أخرى مما كان لها آثار مدمرة على قبائل مصمودة وغيرها من قبائل الموحدين، وأعطتها المبرر لأن تثور على الدول أكثر من مرة، لعل كل هذه العوامل مجتمعة عجلت بسقوط دولة الموحدين.

وعلى الرغم من هذه العوامل السلبية، فإن عظمة دولة الموحدين أمر حقيقي لا يمكن انكاره أو تجاهله، ويصدق القول: لولا الموحدون لما ذكر المغرب في سجل الأمجاد كقوة مستقلة فاعلة، ففي ظل هذه الدولة،تم توحيد كل بلاد المغرب في دولة واحدة ولأول مرة في تاريخ المغرب يتسمى بربر بألقاب الخلافة، وعلى هذا فقد اعتبروا أنفسهم الورثة الحقيقيون للخلافة الإسلامية الجامعة، وأنه لم يعد للعباسيين ولا لغيرهم حق فيها، وفي ظل هذه الدولة عرف المغرب الأقصى ازدهارًا ثقافيًا حقيقيًا متحليًّا بأبهى حلل الأداب العربية، ونافست مراكش العواصم العربية مثل بغداد والقاهرة وقرطبة، وزارها وسكنها ودفن فيها مفكرون وأطباء هذا فضلاً على الفقهاء والأدباء الشعراء المعروفين والتي تحفل بهم كتب التراجم، ولا نزاع في أن دولة الموحدين تعتبر من عظيمات الدول في تاريخ الإسلام التي بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى، وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمه بالفعل من طرابلس إلى المحيط الأطلسي، ومن ساحل البحر المتوسط إلى مشارف إفريقيا المدارية، هذا بالإضافة إلى ملكهم في الأندلس.

الفصل السابع

مراكز الثقافة في المغرب

* المساجد الجامعة
* جامع القيروان
* جامع تلمسان
* جامع القرويين بفاس
* الرباطات
* المكتبات

مراكز الثقافة في المغرب

المساجد الجامعة

كان التعليم في أول مرة بطرابلس الغرب بجامع فاتحها عمرو بن العاص، وهو ما يعرف إلى الآن بمسجد الناقة، الذي شيده عمرو بن العاص سنة ٢٣هـ/٦٤٣م[١]، وكان جامعًا صغيراً يقع في قلب المدينة، فطرابلس تعتبر الفسطاط العربي الأمامي، أو القلعة الأولى التي فتحت المغرب[٢].

على أن موقع طرابلس يفسر لنا دورها الثقافي من خلال مراكزها الثقافة، فهي تتصل بمصر، فثقافتها مصرية من هذا المنطلق، وإذا أضفنا أن ثقافتها مصرية تمتد إلى جذورها في أعماق التاريخ منذ العصر الحجري، ولا تزال النزعة المتمصرة قائمة إلى الآن[٣]، واستمر التعليم في جامع الناقة أو جامع عمرو بطرابلس قاصرًا على حفظ القرآن الكريم واللغة العربية، حتى بني الأغالبة الجامع الكبير في القرن الثالث الهجري، وتحلق العلماء فيه للتدريس، وكان يغلب عليه المذهب الحنفي، وبقيام الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م، امتدت يد العناية إلى هذا الجامع وعملت الدولة على توسعته، وأحدثت به التعليم الشيعي، وصار التعليم يتناسب مع مذهب الدولة الجديدة، يقول البكري عند ذكر طرابلس: «ومبنى جامعها أحسن مبنى».

وفي عهد الدولة الزيرية نضج التعليم بالجامع الكبير بطرابلس، وتكاثرت حلقاته وتعددت فنون تعليمه، فلم تقتصر على العلوم الإسلامية البحتة، بل

---

(1) البكري: المغرب /٨، الحميري: الروض المعطار / ٣٨٩، ٣٩٠.

(2) محمد بن تاويت: الأدب المغربي / ٦٢.

(3) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٨م/١١٥، ١١٦.

اشتملت على العلوم الرياضية على اختلافها[١]، ونشطت الحركة الفكرية بفضل موقع طرابلس فيما بين القاهرة وبين القيروان والأندلس، أي على طريق الرحلة، فقد كان العلماء والأدباء من أعلام الفكر في ذلك الوقت يرتحلون في طلب العلم ما بين المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي، وكانوا يعرجون على الجامع الكبير بطرابلس، حتى أن التجاني[٢] عند كلامه عن الفقيه الإمام أبي إسحاق ابراهيم بن إسماعيل بن احمد بن عبد الله الأجدابي الطرابلسي يقول: «وكان الفقيه أبو اسحق هذا من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم كلامًا وفقهًا ونحوًا ولغة وعروضًا ونظمًا.... إلى أن يقول: «ولم تكن له رحلة عن بلد طرابلس إلى غيرها، وقد سئل أنّى لك هذا العلم ولم ترتحل، فقال اكتسبته من بابي هوارة وزناتة، وهم بابان من أبواب البلد، ويشير أنه استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس فيدخل من هذين البابين من المشارقة والمغاربة ، وكان له اعتناء بلقاء الوفود والقيام بضيافتهم[٣].

وقد ذكر لنا الدباغ الكثير من العلماء الذين ترجم لهم، وتلقوا تعليمهم في طرابلس من أمثال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الحبلي قاضي برقة، وأبو عبد الله محمد بن حسن الزويلي السرتي، وأبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الإجدابي[٤].

وذكر لنا ابن بشكوال الكثير من هؤلاء العلماء نذكر منهم إبراهيم بن أحمد بن جعفر الأطرابلسي البرقي[٥].

---

(1) عثمان الكعكاك: مراكز الثقافة / ١١٨.

(2) التجاني: رحلة التجاني/ ٢٦٢.

(3) التجاني: رحلة التجاني / ٢٦٤.

(4) الدباغ: معالم الإيمان ٤٩/٣ ، ١٠٥، ١٠٦.

(5) ابن بشكوال: الصلة ١ /١٠٠.

ويذكر ابن خلكان[1] عند رحيل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر ومروره ببرقة أن شاعره ابن هانئ الأندلسي قد وجد مقتولاً بعد ليلة ماجنة قضاها عربدة وسكرًا مع بعض ندماء برقة، وإذا علمنا أن ابن هانيء هذا كان من أكبر شعراء البلاط الفاطمي لتأكد لدينا أن قبوله الدعوة من لدن الندماء البرقاويين، لابد وان تكون بعد تأكده من أنهم كانوا من طبقته الاجتماعية، وخاصة من أرباب الفكر والقلم، إذ من غير المعقول لشاعر كبيرمثله، أن يرافق ويسامر من هم دونه.

وهكذا كان لموقع طرابلس وانفتاحها على علوم الفسطاط والقاهرة، أن أزدهرت فيها الثقافة وأصبحت تعج بالأدباء والعلماء والشعراء.

جامع القيروان

وأما جامع عقبة بن نافع الفهري بالقيروان، أو جامع القيروان الذي اسسه سنة ٥١هـ/٦٧١م[٢]، فقد جعله ثكنة ومدرسة ومسجدًا، واستمر هذا المركز الثقافي يؤدي رسالته من لدن إنشائه حتى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م حيث انتقل التعليم إلى جامع الزيتونة[٣].

لقد أدخل الولاة والأمراء الأغالبة على جامع عقبة تغييرات أساسية، من ذلك أن حسان بن النعمان هدمه من أساسه وبناه بناءًا جديدًا، ثم جاء زيادة الله الأول الأغلبي فشرع في تجديد جامع عقبة سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م، بيد أنه توفى دون أن يتم عمله فواصل البناء بعده أبو إبراهيم أحمد[٤]، وكان للمسجد

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٤، ص٤٢٢

(2) البلاذري: فتوح البلدان (بيروت ١٩٧٥) /٣٢٠.

(3) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب /١٣.

(4) البكري المغرب/٢٢ -٢٤، الحميري: الروض المعطار /٤٨٦، ٤٨٧.

بالقيروان نفس الدور الذي اضطلع به مسجد عمرو بن العاص في مصر، ومسجد القيروان أول مساجد المغرب الإسلامي، وكان لهذا المسجد دورًا كبيرًا في تفقيه المسلمين في أمور دينهم فقهية وتشريعية، مما كان له أكبر الأثر في انتشار الإسلام بين أهل البلاد.

واستمر جامع عقبة يواصل رسالته الثقافية بجانب رسالته الدينية، فكانت تدرس فيه العلوم الدينية من تفسير وحديث في حلقات بجانب رسالته الدينية، وكان أصحاب الملل والنحل يجتمعون فيه، ويتظاهرون في مذاهبهم، ودامت هذه الحال إلى أواسط القرن الثالث الهجري، عندما تولى سحنون قضاء إفريقية سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م، فمنع وقتئذ التدريس بجامع عقبة على من لم يكونوا على مذهب السنة[١]، وكان المذهب السائد هو المذهب المالكي، وصار جامع القيروان كعبة العلم بالديار المغربية والأندلسية وصقلية، فقد كان به جناحان للتعليم، جناح للرجال وجناح للنساء، فكان سحنون يدرس بجناح الرجال وكانت ابنته تدرس بجناح النساء وكذلك يحيى بن عمر بن عمر، وابنته[٢]، هذا ما يتعلق بالعلوم الدينية، وأما الفنون الأخرى كاللغة والأدب، والطب والرياضيات والفلسفة فقد ساعد على انتشارها بالقيروان رواة ثقات، قدموا القيروان واستوطنوها فأخذ عنهم الناس ما كانوا يحملونه فمن جملة هؤلاء: أبو مالك ابان بن الصمصامة، حفيد الطرماح الأكبر، والمسهر التميمي اللذان وفدا في أواسط المائة الثانية وبثا بافريقية ما كانا يرويانه من الأدب واللغة، ونقل الطب اسحاق بن عمران، فاقتبس منه القوم علم الطب والتشريح والصيدلة[٣]، كما ازدهرت بالقيروان علوم الفلك والرياضيات بتشجيع الأمراء الأغالبة، وحرصهم على استقدام العلماء المختصين في تلك

---

(1) أبو العرب: طبقات علماء إفريقية /١٠٢ ، المالكي: رياض النفوس ٢٠١/١، الدباغ: معالم الإيمان ٥٥/٢.

(2) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة /٢١

(3) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة ٥٧/١.

العلوم من العراق ومصر[١]، وهكذا أصبحت مدينة القيروان دار ملك المغرب، ورأت من الفقهاء والعلماء والصالحين ما لم يكن مثله في قطر من الأرض[٢].

على أن انتصار المذهب الفاطمي، ودخول الفاطميين إلى رقادة وضع حدًا للحرية الفكرية في القيروان، وقضى الحكام الجدد على المذاهب الأخرى، وكانت المعركة بين المذهب الجديد وبين المدرسة المالكية استمرت أكثر من قرن ونصف من الزمان[٣]، وقد وقف المالكيون في وجه الفاطميين، وافتوا بتكفيرهم، لا تخطب لهم جمعة، بل اعتبروا الفاطميين زنادقة، ونادوا بقتلهم حيثما ثقفوا[٤]، وعمل الفاطميون على مصارعة خصومهم، ورفع لواء مذهبهم، عن طريق المناظرات، فعقدوا المجالس، وجلبوا أئمة المالكية بالقيروان، وأخذوا يناقشونهم الحجة، ويقارعونهم بالراي فما ازدادوا إلا تمسكًا برأيهم، وقد حفظ لنا الدباغ[٥] الكثير من هؤلاء الرجال من أمثال أبي سعيد بن محمد الحداد، وأبي بكر محمد بن محمد اللباد، وأبي الفضل عباس بن عيسى بن محمد بن عيسى الممس، والكثير والكثير من هؤلاء الفقهاء وحاول الفاطميون استخدام سياسة اللين واغداق المال والجاه، فلم يجد ذلك النداء إلى قلوب المالكية سبيلاً[٦].

وعلى الرغم من محاربة الفاطميين للمالكيين إلا أن جامع عقبة ظل مركزًا ثقافيًا يشع بالفكر والمعرفة، ومعقلاً لدراسة مذهب مالك، يستقطب النشاطات الفكرية من حوله، وأصبحت القيروان تعج بالأندلسيين في القرن

---

(1) ابن عذاري: البيان ٢٠٤/١.

(2) الحميري: الروض المعطار/٤٨٧.

(3) الحبيب الجنحاني: القيروان عبر العصور /١٦٣

(4) الدباغ: معالم الإيمان ٢٩/٣ ، ١٧٨.

(5) نفس المصدر: ٢٥ ، ٩٣، ١٩.

(6) نفس المصدر : ٩٢ ، ٩٣ ، انظر: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين /٩٥.

الثالث والرابع الهجريين وذكر ابن بشكوال[١] أن الأندلسيين حضروا للإستماع من أبي الحسن القابسي هذا الفقيه الذي تلقى علوم الحديث من فقهاء الإسكندرية ، وتتلمذ عليهم ردحا من الزمن[٢] ، ولعل هذا يؤكد أن الرحلة إلى الشرق ظلت مستمرة، وكان الطلبة المغاربة يفتخرون بالاستماع إلى علماء الشرق والتتلمذ عليهم، وكان عامة الناس يولون من تعلم بالشرق اهتمامًا كبيرا ، خصوصًا إذا جاءهم مرتديًا لباس أهل الشرق، ويتكلم بلهجتهم[٣].

وإلى جانب جامع عقبة كانت هناك المساجد العتيقة الأخرى كمسجد الأنصار وابن ميسرة والحبلى وسواها من بقية الثلاثمائة مسجد التي كانت يومئذ منتشرة بالقيروان[٤]، واستمر النشاط الثقافي في عهد أمراء بني زيري على الشكل الذي تركه عليه الفاطميون، حتى أعلن الامير الزيري المعز بن باديس انفصاله الروحي عن الخلافة الفاطمية في مصر، ودعا للخلفاء العباسيين على منابر إفريقية[٥]، وتطورت الحركة الأدبية والعلمية في عهد المعز بن باديس تطورا كبيرا ، لما عرف عنه من تشجيع أهل الادب والعلم فقد كانت القيروان في عهده، وجهة العلماء والأدباء تشد إليها الرحال من كل فج، لما يرونه من اقبال المعز على أهل العلم والأدب، وعنايته بهم[٦].

وكان المعز بن باديس لا يسمع بعالم جليل أو شاعر فصيح إلا ويدنيه من حضرته، ويضمه لخاصته حتى سار بذكره الركبان، ولم يكن أحد في

---

(1) ابن بشكوال: الصلة ١٥٧/١.

(2) الدباغ: معالم الإيمان ١٣٥/٣، انظر: جعفر ماجد : العلاقات الأدبية بين قرطبة والقيروان في القرنين الرابع والخامس، حوليات الجامعة التونسية، العدد ١٣ ، ١٩٧٦، ١٠٦، ١٠٧.

(3) إبراهيم العبيدي التوزري: تاريخ التربية بتونس ١٤٦/١، ١٤٧.

(4) الشاذلي عطا الله: دور القيروان في نشر العلم، مجلة القيروان، الدار التونسية للنشر، ١٩٥٨، /١١.

(5) ابن عذاري: البيان ٣٩٩/١.

(6) الحبيب الجنحاني: القيروان /١٦٥.

زمانه أطول يدًا بالمكارم، ولا أعني بلسان العرب ولا أحنى على أهل الأدب منه[١] وصار بلاطه كما وصفه ابن خلكان[٢] : "محط بني الآمال"، وفتحوا أمراء بنى زيري قصورهم للشعراء، وحبوهم بكرمهم ورعايتهم، وعقدوا لهم مجالس المناظرة، وجعلوا منهم السنة تلهج بمدحهم، وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء الحسن بن رشيق[٣]، ومحمد بن شرف[٤]، إلى جانب غيرهم ممن يزخر بنماذج من أشعارهم أنموذج ابن رشيق، مثل ابن الخازن، وغيرهم[٥]، وتبعًا لذلك تسابق الكثيرون إلى المعارف والأداب، وأبرزوا نتائج أفكارهم، طمعًا في عطايا الأمراء والأغنياء، ومن الجدير بالذكر أن الأمير المعز بن باديس كان له معرفة تامة بالفن، فكان يجيد الأغاني والتلحين، ويجيد التوقيع على العود والرباب، وحاجبه عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الذي يصفه المقري[٦] بقوله: «... واحد عصره في الغناء الرائق، والشعر الرقيق، واللفظ الأنيق.. وكان أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصنعته اللون».

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، القسم الرابع /١٦٤ ، ٦١٥.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان : ٥/٢٣٣.

(3) الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني، ولد في مدينة المسيلة بالجزائر سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م، حيث نشأ وتلقى ثقافته الأولى، ثم أنتقل إلى القيروان وفيها أتم ثقافته العالية، ولم يلبث أن أصبح أشعر شعراء عصره وقربه الأمير المعز بن باديس منه، وألحقه بديوانه، فاكتسب عنده المكانة الأولى، إلى أن زحف الأعراب على القيروان، فارتحل إلى صقلية وسكن مدينة، مازره، حيث توفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤، واشتهر بكثرة مؤلفاته التي تعد بحق ثروة عظيمة في ميادين اللغة والنقد والأدب منها: الأنموذج، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، العمدة، الشذور. عن الحسن بن رشيق راجع: الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة، القاهرة ١١٩٦٣، ٣/١ -١٤، الأنموذج، تحقيق محمد المطوي، وبشير البكوش، تونس ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م / ٤١٠، ٤٣٩، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع /٥٩٧ -٥٩٩ ، جعفر ماجد : العلاقات الأدبية /١٦٦.

(4) عن ابن شرف، انظر : ابن رشيق: الأنموذج /٣٩ ، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٥٩٨/٤ -٥٩٩.

(5) ابن رشيق: الأنموذج/٨١.

(6) المقري: نفح الطيب ٩٤/١.

وكان بشارة الزامر من حذاق زمرة المشرق، من هذا نرجح أن فن الأغاني والموسيقى أخذه المغاربة عن المشرقيين.

ومن المرجح أن العلماء والأدباء والشعراء المصريين كانوا ممن يتوافد على هذه المجالس، وعلى الرغم من القطيعة بين الدولة الزيرية والدولة الفاطمية في مصر، فإن ذلك لم يؤثر على رحلة العلماء والطلاب، يتضح ذلك جليًا مما تحفظه لنا كتب الطبقات.

إلى جانب هذه المجالس الأدبية، كانت هناك مجالس تعقد في الحوانيت أشار إليها الغبريني[١] بقوله: «وكثيرًا ما كانوا يجلسون بالحانوت الذي هو بطرف حارة المقدسي.. وكان الحانوت المذكور يسمى مدينة العلم، لاجتماع هؤلاء الثلاثة فيه الفقيه أبو علي المسيلي، والفقيه أبو محمد عبد الحق والفقيه أبو عبد الله القرشي ».

على أن سقوط القيروان بأيدي الهلاليين سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧م، وما ترتب عليه من هجوم النورمان على سواحل المغرب، واستيلاءهم على المهدية وجربة، وضع حدا لهذه النهضة الثقافية، وتفرق علماء القيروان في كل وجه وصوب فمنهم من قصد مصر، ومنهم من قصد صقلية والأندلس، وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب، حيث نزلوا فاس بجامع القرويين[٢]، وتعطلت الحركة العلمية والأدبية والفنية، واغتنم ملوك أوربا هذه الفرصة فجلبوا علماء العرب إلى بلاطاتهم، وأصبح بلاط روجار النورماني ملك صقلية يحوي أمثال الشريف الإدريسي الطبيب الجغرافي المشهور[٣]، وارتحل الحسين بن رشيق إلى صقلية حيث توفى بها سنة ٤٥٣هـ/١٠٦٧م، وارتحل محمد بن شرف إلى الأندلس حيث توفى بأشبيلية سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، واحتل شعر الغربة والحنين إلى القيروان

---

(1) الغبريني: عنوان الدراية:١٧.

(2) المراكشي: المعجب /٤٤١.

(3) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة /٢٧.

مكانة بارزة في شعر ابن شرف وابن رشيق[١]، وخبا ضوء حضارة القيروان الذي كان يشع من جامع عقبة، وغيره من مراكز الثقافة العديدة في إفريقية.

وعلى الرغم مما أحدثه الغزو الهلالي من تدهور لحق بمراكز الثقافة في القيروان، فإنه ساعد على انتشار اللغة العربية والإسلام في الريف والبوادي التونسية، وكان هذا الانتشار مستقلاً ومختلفاً عن الانتشار الذي كان منذ الفتح الإسلامي حيث المدن وأماكن التبادل التجاري ومراكز الثقافة الإسلامية، فقد انتشرت في إفريقية بعض الكلمات والصيغ الفعلية المميزة، ولهجات البدو وأشعارهم التي يغلب عليها طابع العامية، وقد نقل لنا ابن خلدون نماذج منها[٢]، وبرز شعراء من بني هلال في إفريقية نذكر منهم أبي عمران شاكر الهلالي[٣]، وانتشرت الاغاني البسيطة التي تولد عنها الشعر الملحون، كما انتشرت الرقصات القوية «الزقارة» بواسطة عرب بني هلال، وشاع استعمال الطبول الكبيرة التي أتوا بها[٤].

---

(1) ابن بسام : الذخيرة، المجلد الأول القسم الرابع/١٧٧، جعفر ماجد: العلاقات الادبية/١٨٨، محمد بن عامر: الدولة الصنهاجية /٨٢ ، ٨٤.

(2) ابن خلدون: العبر / المجلد السادس، القسم الأول /٣٣، أنظر جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي/٢٣٥. G.Marcais: Les Arabes en Berberie, p.40

(3) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ١ /١٦٣

(4) محمد بن عامر: الدولة الصنهاجية/٥٥.

جامع تلمسان

منذ أسس عقبة بن نافع جامعه الكبير توالى بناء المساجد في كل مكان من بلاد المغرب بحيث كان جامع تلمسان الذي بناه موسى بن نصير سنة ٨٩هـ/٧٠٧م على الحدود بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، يضاهي جامع القيروان[١]، واستمر هذا الجامع يقوم بدوره كمركز من مراكز الثقافة في المغرب الأوسط خلال القرون المتعاقبة، «ولم تزل تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وأهل الرأي على مذهب مالك»[٢].

وإلى جانب جامع تلمسان انتشرت المساجد في قلعة بني حماد وبجاية، وقد زاحمت بجاية معها القاهرة وبغداد وقرطبة، واجتمع فيها من رجال الدين والعلم والأدب ما لم يجتمع مثله أبدًا في المغرب الأوسط[٣]، وقد جدد المنصور بن علناس قصور بجاية، وجدد جامعها، وتأنق في اختطاط المباني، وتشييد المصانع، واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين[٤]،ومن بين هذه المساجد الجامع الكبير بمدينة قسنطينة الذي يرجع تاريخه إلى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م والجامع الكبير بالجزائر والذي نقش على منبره بالخط الكوفي، «سنة تسعين واربعمائه» [٥].

على أن دور القيروان إذا كان قد انتهى كعاصمة فكرية لبلاد المغرب بعد الغزوة الهلالية في منتصف القرن الخامس الهجري، فإن تأثيرها استمر بواسطة

---

(1) محمد بن تاويت: الأدب المغربي /٧٢.

(2) الحميري: الروض المعطار /١٣٥.

(3) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة /٧٩ ، محمد بن تاويت: الأدب المغربي/٧٢ ، ٧٣.

(4) ابن خلدون: العبر، المجلد السادس، القسم الثاني /٣٥٨.

(5) ابراهيم العدوي: بلاد الجزائر /٢٩٣.

المهاجرين من علمائها وأدبائها إلى نهاية هذا القرن إلى بجاية، التي ازدهرت بها الحركة العلمية والأدبية، وظهر فيها عدد من الأدباء والعلماء اسهموا بنصيب وافر في النهضة الثقافية التي عمت البلاد[١] ، وقد أنشاء الناصر بن علناس في بجاية «معهد سيدي النواتي» الذي كان يحتوي على ثلاثة آلاف طالب، وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية» وكان مسموحًا للفتيات بالتعليم في هذا المعهد، وخلال حكم العزيز الحمادي كان يحاضر في معهد سيدي النواتي علماء من الأندلس ومن الشرق[٢].

ساعد على ازدهار الحركة العلمية والأدبية في مراكز الثقافة الحمادية، العلاقات الطيبة بين الخلافة الفاطمية والدولة الحمادية، الأمر الذي ساعد على حركة انتقال الطلاب والعلماء وبالتالي إلى ولادة مجتمع ثقافي عظيم الأهمية، فقد كانت قاعة أدباء بجاية تضم مائة واربع من مشاهير الأدب والطب، ومن هنا جاءت تسميتها «بمكة الصغيرة»[٣].

ويقول الغبريني[٤] نقلاً عن الشيخ أبي علي المسيلي «أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيًا ما منهم من يعرفني، وإذا كان المفتون تسعين، فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء، وغيرهم ممن تقدم عصرهم، ممن لم يدركه... لقد كان الناس على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يراد».

ومما لا شك فيه أن هذا الثراء الفكري يرجع إلى تشجيع أمراء بني حماد، فقد كان الناصر بن علناس يستقدم الأدباء ويغدق صلاته عليهم، كذلك ابنه المنصور كان يكتب ويقرض الشعر، وقد وفد عليه الشاعر ابن حمديس

---

(1) عبد الرحيم عويس: دولة بني حماد / ٣٤٥.

(2) بورييه: بجاية، كتالوج سلسلة الفن والثقافة، نشر وزارة الأخبار الجزائرية / مدريد ١٩٧٠م، ٥٦ ، ٥٨.

(3) عبد القادر جغلول: مقدمات في تاريخ المغرب /٦٠.

(4) الغبريني: عنوان الدراية /٣٢.

ومدحه[١]، ونذكر من شعراء دولة بني حماد الشاعر على الزيتوني الذي كان شاعر المغرب الأوسط وأديبه والمعيه وأريبه، وهو صاحب توشيح[٢]، ويوسف بن المبارك الذي كان من موالي بني حماد، وله في مدائحهم من الشعر الكثير[٣]، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم، وقد ورد على الأسكندرية ومصر[٤]، ومن المحدثين علي بن منصور الطبني، وأبو بكر بن يحيى الوهراني[٥]، وعبد الله بن محمود وهو من المسيلة، وكانت له معرفة بالأصول والفروع[٦]،والفقيه أبو محمد عبد الله بن سلام وأصله من بجاية، ورحل إلى الإسكندرية ثم مصر والصعيد[٧]، وكذلك العالم النحوي ا بن طريف التاهرتي المتوفي سنة ٥٠٢هـ/١٠٨م[٨].

وإلى جانب هذه المراكز الثقافية، قامت المساجد في المدن الحمادية الأخرى مثل تاهرت التي كان يطلق عليها عراق المغرب، أو بلخ المغرب، وكان ينتشر بها مذهب الخوارج الإباضية[٩] وكذلك الجزائر وبونة، كما وجد في هذه المدن علماء أجلاء يقصدهم طلاب العلم من الأندلس ومن البلاد المغربية الأخرى لشهرتهم في ذلك الوقت نذكر منهم موسى بن حماد الصنهاجي الذي كان فقيهًا حافظًا للرأي عالمًا بالمسائل والأحكام، وكان من جلة القضاة في وقته، وله رواية

---

(1) رابح بونار: المغرب العربي/ ٢٨٢ ، ابراهيم العدوي: بلاد الجزائر/٢٩٣.

(2) العماد الأصفهاني: خريدة القصر ١٨١/١.

(3) العماد الأصفهاني/ خريدة القصر ١٨٣/١.

(4) نفس المصدر: ٤٢٤/١.

(5) رابح بونار: المغرب العربي/٢٥٩.

(6) ابن بشكوال: الصلة ٢٩٨/١.

(7) العماد الأصفهاني: خريدة القصر ٤٢٤/١.

(8) السيوطي: بغية الوعاه ٥١٣/١.

(9) محمد بن تاويت: الأدب المغربي /١٢٢.

عن أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الأزدي وأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي وغيره، وتوفي سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م بمراكش[1].

يتضح لنا مما سبق إلى أي حد كانت قصور بني حماد بمثابة مراكز ثقافية يؤمها العلماء والأدباء من كل حدب وصوب، وكيف استفادت دولة بني حماد مما لحق بالقيروان عقب نكبتها على يد بني هلال، وهجرة العلماء إليها، الأمر الذي انعكس على النهضة الثقافية، سواء، في مساجد الدولة أو في قصور الأمراء التي كانت بحق تحفة فنية رائعة لهذا العصر، فإن بناء القلعة وطابية الفنار، وقصر البحيرة يعطينا فكرة عما كانت عليه مباني بني زيري في صبرة (المنصورية)، ويتضح تأثير مصر في التخطيطات، والنسب الفسيحة، وفي الواجهات المزودة بالطنوف والمشاك، وأثبتت افريقية على أنها مقاطعة فنية للمشرق، متقبلة للطرز الوافدة من القاهرة، وظهر هذا جليًا أكثر مما كانت عليه في عهد الأغالبة[2]، ونفس الشيء في أدب بجاية الحمادية يتحدث عنه جوتيه وبيليه على أنه أدب وافد من المشرق أو من أسبانيا[3].

وهكذا أصبحت بلاد المغرب مركزًا فكريًا مستقلاً، فالظروف التاريخية كانت ملائمة لانتاج أدبي وازدهار فني كان لمصر دور بارز في إثراء هذه النهضة عن طريق مراكزها الثقافية وإفرازات علمائها وأدبائها في ذلك العصر.

---

(1) ابن بشكوال: الصلة ٦١٤/٢.

(2) جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق /٢١٦.

(3) عبد الحليم عويس: دولة بني حماد/٣٢٠.

جامع القرويين بفاس[١]

مدينة فاس قطب بلاد المغرب الأقصى، وإليها تشد الركائب، وتقصد القوافل[٢]، وتروي المصادر التاريخية، أن جامع القرويين أسس في عدوة القرويين غربي فاس على عهد الإمام يحيى بن محمد بن إدريس سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م، بعد أن ضاق جامع الأشياخ بوارديه، وأن بانيته هي السيدة فاطمة أم البنين، وهي من أسرة عربية فهرية قيراونية[٣].

اتخذ جامع القرويين صبغة دراسية جامعية إلى جانب صبغته الدينية الأساسية، فصار بعد ذلك مركز إشعاع ثقافي وروحي في المغرب الاقصى[٤]، يؤمه العلماء والأدباء، ويحج إليه الطلاب لا من المغرب ومصر فحسب، بل من أطراف أوربا، وكان يدرس فيه علوم التفسير والحديث والتوحيد، وأصول الفقه وبعض العلوم الرياضية[٥]، ويصف عبد الواحد المراكشي[٦] مدينة فاس بقوله: «هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم منه، اجتمع فيه علم القيروان وعلم قرطبة».

على أن خراب القيروان أدى إلى ازدهار فاس وجامع القرويين، فقد رحل كثير من العلماء والفضلاء من كل طبقة، وأكثرهم إلى مدينة فاس، حتى أطلق عليها

---

(1) عن جامع القرويين راجع: ابن أبي زرع: روض القرطاس ٣٢ ، ٣٤، الجزنائي: زهرة الآس/٢٣ -٣٥.
G. Marcais: Manuel D'art Musulman L'architecture. Paris. 1926 Vol., I,p.321.

(2) البكري : المغرب /١١١ ، ١١٢، الحميري: الروض المعطار / ٤٣٤.

(3) الجزنائي: زهرة الآس/٣٣ ، لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام /٢٣٦ ، ٢٣٧ حاشية (٤).

(4) الجزنائي: زهرة الآس/٣٠.

(5) محمد بن تاويت: الأدب المغربي/٧٥.

(6) المراكشي: المعجب /٤٤٣.

«بغداد المغرب»[١]، وفي عهد المرابطين والموحدين ازدهرت الحركة العلمية بالمدينة وازداد الدور الحضاري الذي تؤديه، فقد أصبحت كعبة العلماء، «ولم تزل مدينة فاس.. من حين أسست دار فقه وعلم وصلاح ودين»[٢] .

الجامع الكبير بمراكش

بني يوسف بن تاشفين جامعه الكبير بمراكش[٣]، ولا تزال آثاره ماثلة للعيان أمام مسجد الكتبيين، وجلب إليه علماء الأندلس للتدريس[٤]، يقول المراكشي[٥]: فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم».. واجتمع له ولابنه من أعيان وفرسان البلاغة، مال لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار».

وهكذا هيأ المرابطون المناخ الملائم لأزدهار العلوم والآداب فيصف صاحب الحلل الموشية[٦] يوسف بن تاشفين بقوله: «وكان يفضل الفقهاء، ويعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برايهم، ويقضي على نفسه بفتياهم».

كما أشتد تعلق على بن يوسف بأهل العلم حتى أصبح بلاطه بمدينة. مراكش لا يخلو من عالم أو فقيه أو أديب، وارتفع شأن هؤلاء الفقهاء فكان «لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء"[١]،

---

(1) المراكشي: المعجب/٤٤٣.

(2) الجزنائي: زهرة الآس/٣٠.

(3) الحميري: الروض المعطار/ ٥٤٠، انظر : حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين /٤٥١.

(4) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة /٤٧.

(5) المراكشي: المعجب /٢٢٧.

(6) مؤلف مجهول: الحلل الموشية/ ٨٢.

وكان يقلد العلماء، ويؤثر الفضلاء، وكان ذكيا فقيها، مكرما لأهل العلم يقلد الأمور الفقهاء[٢].

عملت دولة المرابطين على إحياء تقاليد الإسلام، ورفع لواء السنة واتسم الأمراء والولاة بالتقوى والصلاح، وأقبلوا على المساجد يعمرونها ويكثرون فيها[٣]، كما انفتح المغرب في عهد هذه الدولة على الأندلس، بعد أن تم توحيد المغرب والأندلس تحت صولجان هذه الدولة، واغترفوا من حضارة الأندلس وعلومها،و آدابها وفنونها، ونلمس في معالم المغرب خلال القرن الخامس الهجري الفن الأندلسي بثروته ودقته العجيبة وتفننه الباهر[٤]، على أننا لا ننكر أن الرعيل الأول من قادة المرابطين وأمرائهم لم يكونوا في الغالب ملمين بالثقافة العربية إلماما دقيقا، وعهدهم بالحياة في الصحراء قريب[٥].

وفي عهد الموحدين اتخذوامن مراكش عاصمة لهم فشهدت عهدًا ثقافيا جديدًا يختلف كثيرًا عن عهد المرابطين، إذ كانت الثقافة المرابطية في عمومها مستوردة من القيروان والأندلس، أما الثقافة الموحدية، التي وضع أساسها المهدي بن تومرت فقد طبعت بطابع مغربي[٦]، ولم تكتف الدولة الموحدية بتهيئة الجو للثقافة والعلم، ولكنها دفعت بالمغرب إلى نهضته الثقافية الشاملة، وذلك بالترحيب بالقادمين من الأندلس ومن المشرق، وقد عرف رجال هذه الدولة بتقريبهم للعلماء ورعايتهم للعلم، وليس أدل على

(1) المراكشي المعجب: ٢٣٥.

(2) مؤلف مجهول: الحل الموشية/ ٨٤.

(3) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين/ ٤٥١.

(4) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة/ ٤٦.

(5) حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين/ ٤٤١.

(6) علام: الدولة الموحدية / ٢٧٦.

نهضة المغرب العلمية في تلك الفترة من وفرة العلماء والمؤلفات في أغلب فروع المعرفة، تلك الوفرة التي لم يعرفها المغرب من قبل، والتي اتضحت معها الشخصية العلمية للمغرب واستقلت إلى حد كبير[١]. وساعد على ذلك شيوع الرحلة في طلب العلم، وقد استنها في الخلافة الموحدية ابن تومرت الذي رحل على المشرق وعرج على الإسكندرية ونهل من علم أساطينها، والتقى هناك بالطرطوشي[٢]، ويروى ابن القطان[٣] في هذا الصدد: «ونزل المهدي مدينة الإسكندرية، فرأى بها مناكر فغيرها، وأغلظ في أمرها، فقامت عليه العامة والغوغاء، وصاروا يقطعون عليه طريقه إلى مجلس أبوبكر الطرطوشي، فلما فقده الطرطوشي بحث عنه حتى أعلم بمكانه، فقصد إليه وهو في مسجد الأخضر على ساحل البحر، فترامى عليه وصافحه، وسأله عن سبب غيبته عن مجلسه، فعرفه بشأن أولئك الغوغاء، وأنه يريد الذهاب إلى المغرب، فودعه وانصرف».

ونخرج من هذا النص أن المهدي بن تومرت الذي تأثر في دعوته بآراء المعتزله في المشرق، وفكرة المهدوية والعصمة، كان ينشر فكره الموحدي في الإسكندرية ولم ينته هذا الفكر برحيله إلى المغرب بل ترك صدى كبيرًا في تفوس المصريين، فقد كان المصريون يترقبون مجيء الموحدين[٤].

عمل ابن تومرت في طريق عودته إلى بلاد المغرب على استغلال المساجد في نشر دعوته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كان ينام في مسجد

(1)محمد بن تاويت: الأدب المغربي/١٣١.

(2)المراكشي: المعجب/ ٢٤٦.

(3)ابن القطان: نظم الجمان/ ٣٨، ٣٩.

(4)ابن جبير: رحلة ابن جبير/ ٥٣/٧٠.

المدينة التي يمر بها، ويأتي الناس إليه لسماع دعوته[١]. وكان إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة، وأما خليفته عبد المؤمن بن علي، فيصفه المراكشي[٢] بقوله: «وكان عبد المؤمن مؤثرًا لأهل العلم، محبًا لهم محسنًا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده، والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم».

ازدهرت الحركة الثقافية في عهد عبد المؤمن بن علي بفضل تشجيعه للعلم والعلماء وغدا قصره مركزًا ثقافيا يعج بالعلماء فقد كان «عالمًا بمقادير العلماء... ووقف الحفاظ لحفظ كتاب المؤطأ[٣]، وكتاب أعز ما يطلب، وغير ذلك من تواليف المهدي، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر، فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف»[٤].

ومهما يكن من أمر فإن قصور الموحدين أصبحت بمثابة مراكز ثقافية لنشر العلم والمعرفة، وازدهرت الثقافة في عصرهم ولعل ذلك مرده إلى تشجيع الخلفاء وتنشيط الرحلة إلى الفسطاط والقاهرة والإسكندرية، فقد كان المشرق الإسلامي بصفة عامة ومصر بصفة خاصة منبعًا خصبًا للتأثير العلمي والفني[٥]، وكما تأثر المغرب الإسلامي في عصر الموحدين بالمشرق

---

(1) ابن القطان: نظم الجمان/ ٢٩، جورج مارسيه: بلاد المغرب / ٢٩٠، ٢٩١.

(2) المراكشي: المعجب/ ٢٥٠، ٢٦٩.

(3) ومن الطريف ان ا لمهدي بن تومرت وضع كتابًا اسماه موطأ المهدي، وهو عبارة عن الأحاديث النبوية التي وردت في موطأ مالك بعد حذف معظم الإسناد منها اللإختصار، ونشر موطأ المهدي بن تومرت في مطبعة فونتانه ا لشرقية بالجزائر سنة ١٩٠٧ان وتوجد بالخزانة العامة بالرباط نسختان خطيتان من هذا الكتاب تحت رقمي ٨٤٠ج، ١٢٢٢ج (انظر: أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب/ ١٠٩، حاشية رقم(٢)).

(4) مؤلف مجهول: الحلل والموشية/١٥٠.

(5) ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي/ ٣٨٥.

علميًا فقد تأثر كذلك فنيا فنجد في الفن الأندلسي للقرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أكثر من علامة لأثر القيروان والقاهرة، ويتضاعف هذا الاقتباس في عهد الموحدين، فمثلاً شكل حنية أو رسم سعفه تبنتها مراكش، إنها مستوحاة من نماذج في إفريقية، وبذلك يكون نوع من التوفيقية (الألفة)، يشرحها ظهور سلطة واحدة لكل المغرب ا لإسلامي(١)، فقد وضع الموحدون أمام أعينهم المباني الفاطمية أوالصنهاجية ذات الإلهام المشرقي(٢)، كما كان التأثير المغربي على المشرق واضحًا، وأبرز مثل للتأثيرات المغربية ارتباط كلمة الزليجي المغربية، وتقابل الفيفساء المشرقي بكلمة «زليزلي»العامية، وانتشار ذلك في مصر بوجه خاص باعتبارها أكثر الأقطار المشرقية ارتباطًا بالمغرب وتعرضًا لتأثيراته، يتجلى ذلك من قول المقري(٣)، : «ويصنع بالأندلس نوع من المفضض وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يعرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشاذروان وما يجري مجراه».



تعد الرباطات من أهم مراكز الثقافة في بلاد المغرب، لما كانت تقوم به من دور هام في هذا لمجال، ويرجع انشاء الرباط إلى الوالي هرثمة بن أعين الذي

(1) G. Marcais : Manuel dart muslman,I, p.424-425.

(2)جورج مارسية: بلاد المنغرب وعلاقتها/ ٣١٢.

(3) المقري: نفح الطيب ٢٠٢/١، راجع في ذلك: السيد عبد العزيز سالم: «بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية» صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد «المجلد الخامس، العدد ١، ٢ /١٩٥٧، / ٢٤٤، ٢٤٥، ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي / ٣٨٧.

أسس رباط المنستير سنة ١٨١هـ/٧٩٧م بطرابلس [١]، لتعرض سواحل البلاد لغارات الأسطول البيزنطي بعد فتح العرب لها، واضطر أهل المغرب إلى تحصين الثغور بالمقاتلة الذين أخذوا يرابطون فيها للدفاع عن المسلمين، والحيلولة بين المقاتلة البيزنطيين وبين النزول إلى البر[٢].

والرباط هو ثكنة تتكون من صحن ومن عشرات الغرف الإنفرادية حوله، ومن الطبقات التي تعلو جوانبه، وتنتهي بجامع كبير وصومعة مستديرة للآذان، وخصوصًا لمراقبة السواحل من غارات الروم، وإقامة العلامات النارية بالليل التي تتناقلها الأربطة أولاً بأول من أدنى رباط بسبتة في أقصى المغرب إلى الإسكندرية[٣] والرباط فوق ذلك كله مركز ثقافي يبث فيه المرابطون العلم في صدور النساء والرجال احتسابًا، هذا فضلاً عن أنه معهد لصناعة الحبر والرق والكاغد لتوزع على الطلبة بالمجان، ودار استنساخ للمصاحف، ومجامع الحديث وكتب الفقه، فالمؤلفون يحبسون تصانيفهم بخطوط ايديهم على الأربطة، لتكون منه النسخة الأم التي يرجع إلى نصها الصحيح، ويتولى المرابطون نسخ الكتب وتوزيعها على طلاب العلم بالمجان، وفي كل رباط مكتبة جدارية مفرغة في طاقات من الحائط، ولما كان عدد الأربطة الفا بالمغرب، فقد كانت هناك الف مكتبة[٤].

ومما يجدر ذكره أن الرباطات كان يؤمها العلماء والطلبة من كل حدب وصوب، فكان الإمام سحنون ويحيى بن عمر ومحمد بن سحنون والإمام

(1) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة بالمغرب/١٦.

(2) محمد بن تاويت: الأدب المغربي /٩٢، حس أحمد محمود: قيام دولة المرابطين/١٢٨.

(3) المراكشي: المعجب /٤٣٢، التوزري، تاريخ التربية بتونس ١٥٧/١.

(4) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة /١٧.

المازري وغيرهم من العلماء يقضون شهرًا، وأحمد بن الجزار القيرواني الذي كان يقرئ الطب ويعالج المرضى في أشهر معلومة من السنة في الرباط حيث يدرسون العلم احتسابًا، ومشاهد القبور التي وجدت بالأربطة لدليل واضح على مرابطة العلماء بها[١]، وكثيرًا ما ترد هذه العبارة في ترجمة الفقهاء والصلحاء «وكان فقيهًا صالحًا عابدًا ذا حج ورباط وسياحة»(٢).

وأما عن التعليم بالرباط فهو شرح لأصول التعليم بالكتاب، فهنالك تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف، وكتب الفقه وشعر المواعظ الذي يسمى «الرقائق»، وفي نفس الوقت الذي أسست فيه المجموعة الأولى من الأربطة في أواخر القرن الثاني الهجري ظهرت ظاهرة جديدة في ميدان العلم والثقافة، وهي الرحلة العلمية من الأندلس والمغرب إلى القيروان من ناحية، ومن القيروان إلى الفسطاط والمدينة ودمشق وبغداد من ناحية أخرى، فطالب العلم إذا ما اجتاز عامة المراحل التعليمية الموجودة بالقيروان يشد الرحال إلى المشرق بنية الحج الديني والحج العلمي، وهذا ما جعل الحج من الفرائض التي يحرص كل مغربي على أدائها(٣).

المكتبات

لما أسس الفاطميون مدينة المهدية، نقلوا إليها بيت الحكمة الذي كان شيده الأغالبة برقاده ولما انتقلوا إلى القاهرة حملوا ما تجمع عندهم من

---

(1) التوزري: تاريخ التربية بتونس / ١٦٠.

(2) الدباغ: معالم الإيمان ٣/٥٣.

(3) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة / ١٩

تلك النفائس العلمية، فمكتبة رقادة كانت هي النواة الأولى لمكتبة الفاطميين بالقاهرة(١).

ولم يقتصر الفاطميون على الاستحواذ على مكتبة بيت الحكمة برقادة، بل صرفوا جل عنايتهم إلى جلب الكتب واستنساخها وفي تأسيس المكتبات، فقد أسس المعز لدين الله الفاطمي مكتبة عظيمة بالمنصورية، وجلب إليها الكتب التي كانت بالمهدية، وكان يرسل وفودًا إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي لاقتناء المؤلفات على اختلاف أنواعها(٢)، بيد أن المكتبات لم تبلغ شأوًا عظيمًا إلا في عصر الدولة الزيرية، فكان المعز بن باديس يهادي العلماء بالكتب، وقد أهدى مرة أبابكر السوسي تسعمائة ألف مجلد من نفائس المصنفات أرسلها له على رؤوس الحمالين عقب مجلس علمي استحسن فيه الأمير آراء هذا الأديب (٣).وان كان هذا الرقم مبالغ فيه الا أنه يعطينا دلالة واضحة علي ازدهار المكتبات في ذلك العصر.

بالإضافة إلى انتشار المكتبات، كانت هناك حركة تحبيس الكتب واسعة النطاق، يدل على ذلك الكتب والمصاحف الكثيرة من مخطوطات ذلك العصر، والتي ما زالت إلى الآن بمكتبة القيروان العتيقة، وكما كان الأمراء من بني زيري، كانت أيضًا الأميرات يحبسن الكتب التي قد تنسخ بأيديهن أحيانًا، فالأميرة أم ملال عمة المعز وفاطمة حاضنة

---

(1) التوزري: تاريخ التربية بتونس / ١٥١.

(2) التوزري: تاريخ التربية بتونس / ١٥١

(3) حسن حسني عبد الوهاب: بساط العقيق/ ٦٢

كانت الخاصة من العلماء مولعين بجمع الكتب واستنساخها فيروي أن القاضي عيسى بن مسكين المتوفى سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٢ م كان جماعًا للكتب حكى عنه تلميذه الكاشي فقال: «أدخلني عيسى مدة قضائه برقادة بيتًا مملوءًا بالكتب، من جمعه وقال: كل هذه الكتب رواية لي وما فيها كلمة غريبة إلا وأنا أحفظ لها شاهدًا من كلام العرب»(١). ومن أكبر المكتبات وأجلها مكتبة آل الجزار الأطباء ولا سيما خزانة أحمد بن الجزار الحكيم المشهور يتجلى ذلك من قول ابن جلجل (٢): وجدت له بعد موته أربعة وعشرين ألف دينار ذهبًا وعشرين قنطارًا من الكتب بين طبية وغيرها».

كما عني أمراء بني حماد بجمع الكتب وكان بجامع المنارة بالقلعة مكتبة مليئة بالكتب المحمولة من أقطار المغرب، أو المنقولة من دروس أساتذة الجامع(٣)، وانتشرت المكتبات العامة والخاصة في عهد الموحدين، وقد ساعد على ذلك تشجيع الخلفاء على حركة التأليف وشراء الكتب، وهناك أماكن محددة لبيع الكتب، ففي مدينة مراكش وبجوار جامع الكتبيين وجد ما يقرب من ما ئتي متجر لبيع الكتب، كما وجد أيضًا بمدينة تلمسان سوقًا لبيع الكتب (٤).

وأما أدوات الكتابة فكانت متنوعة وكثيرة يصنع أغلبها بالقيروان، فكانوا يكتبون على جلود الخرفان المصقولة أو على البردي المصنوع من قصب خاص، وكان أجود ما يجلب من مدينة الاسكندرية(٥).

إلى جانب هذه المراكز الثقافية السالفة الذكر كان هناك العديد من المساجد والمكتبات في المدن المغربية، بيد أننا آثرنا أهمها بروزًا في تلك الفترة.

---

(1) ابن فرحون: الديباج المذهب/ ١٨٠

(2) ابن جلجل: طباقات الأطباء ٣٨/١

(3) عبد الحليم عويس: دولة بني حماد/ ٣٢٣.

(4) حسن علي حسن: الحياة الإدارية/ ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢.

(5) التورزي: تاريخ التربية/ ١٥٦.



أولاً: المصادر العربية:

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)

❖ الحلة السيراء، جزءان، نشر وتحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة ١٩٦٣.

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)

❖ الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٦٥.

- الإدريسي، الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م)

❖ صفة أرض السودان ومصر والأندلس، نشره دي غوية ودوزي، ليدن ١٨٦٦م.

❖ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزءان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٤م.

- البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسي (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)

❖ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره دي سلان، الجزائر ١٩١١م.

❖ كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندريه فيري، الدار العربية للكتاب تونس ١٩٩٢م.

- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)

❖ فتوح البلدان، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧.

- ابن بلقين، عبد الله بن بلقين :

❖ مذكرات الامير عبد الله المسماة بكتاب التبيان ، نشرها ليفي بروفنسال ،القاهرة، ١٩٥٥

- البيذق، أبو بكر علي الصنهاجي (ت في القرن السادس الهجري/ ١٢م)

❖ أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ليفي بروفنسال، باريس ١٩٢٨م.

- التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت حوالي ٧١٧هـ/ ١٣١٧م):

❖ رحلة التجاني، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م):

❖ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٥٦م

-ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسن الأندلسي المعروف بابن جلجل:

❖طبقات الأطباء والحكماء ،تحقيق فؤاد سيد، القاهرة ١٩٥٥.

- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٣م) :

❖ كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.

- أبو الحسن، علي بن يوسف الحكيم

❖ الدوحة، المشتبكة في ضوابط دار السكة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد السادس، العدد (١ -٢) ١٩٥٨م.

- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ/ ١٤٦١):

❖ كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، الطبقة الثانية، بيروت ١٩٨٠.

- ابن الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م):

❖ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية، نشره د. أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤.

- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م):

❖ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار ا لكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١

❖ مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون ،الاسكندرية(د.ت).

- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨١م):

❖ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢.

- الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري (ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)

❖ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٨م.

- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد:

❖ طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي، الجزائر ١٩٧٤.

- ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن القاسم الرعيني القيرواني (١١١٠هـ/ ١٦٩٨م) :

❖ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس ١٢٨٦هـ.

- ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الازدي (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) :

❖ العمدة، القاهرة ١٩٦٣.

- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله (ت ٧٢٦هـ/ ١٠٢٥م) :

❖ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، تعليق محمد الهاشمي الفيلالي، الرباط ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

- أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر:

❖ كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٥.

- السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)

❖ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد، الدار البيضاء ١٩٥٤.

- الشيخ، أبو ربيع سليمان الباروني:

❖ مختصر تاريخ الأباضية، تونس ١٩٣٨.

- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك (ت ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م) :

❖ تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثاني، تحقيق الأستاذ عبد الهادي التازي، بيروت ١٩٦٤.

- ابن الصغير:

❖ تاريخ الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر، بيروت ١٩٨٦.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م) :

❖ تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة،

-ابن عبدالحكم ، عبد الرحمن بن عبد الحكم « ت ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م»:

❖ فتوح مصر والمغرب، تحقيق الدكتور على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

—ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي :

❖ رسالة في القضاء والحسبة، نشرها ليفي بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، القاهرة ١٩٥٥.

❖ ابن عذاري المراكشي ، أبو العباس أحمد بن محمد، (كان حيا في سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م):

❖البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ١ تحقيق دوزي ، مكتبة صادر بيروت (١٨٤٧ -١٩٥٠م)، جـ٤ الخاص بتاريخ المرابطين، نشر وتحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٦٧

-ابو العرب تميم، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني(٣٢٣هـ/٩٤٤م):

❖ طبقات علماء افرقية وتونس،تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي،تونس١٩٦٨

-الغبريني، ابو العباس أحمد(ت٧١٤هـ/١٣١٥م):

❖ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، نشر محمد بن ابي شنب ،الجزائر ،١٣٢٨هـ/١٩١٠م

- القاضي نعمان، ابو حنيفة بن محمد بن حيون، المغربي (٣٦٣ هـ/٩٧٤م):

❖ رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، بيروت ١٩٧١م.

- ابن القطان، أبو الحسن على بن محمود الكتامي الفاسي (٦٨٢هـ/ ١٢٣٠م):

❖ جزء من كتاب نظم الجمان، تحقيق د. محمود على مكي، منشوارت كلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط، ، تطوان ١٩٦٤م.

- المالكي، أبو محمد عبد الله المالكي (ت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي):

❖ كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٤م.

- المراكشي، عبد الواحد بن على (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م):

❖ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٦٣م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٣هـ/ ١٣٣١م):

❖ نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٤، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٣ ،والجزء الخاص بالمغرب تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء ١٩٨٥.

- المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين (٣٤٦ هـ/٩٥٦م) :

❖ مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت ١٩٨٣م.

- المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م):

❖ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩م.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن على (٨٤٥هـ/١٤٤١م):

❖ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ، جـ١ تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨، جـ٢، جـ٣ تحقيق د. محمد حلمي محمد، القاهرة ١٩٧١، ١٩٧٣م.

❖ المقفى الكبير، تراجم مغربية ومشرقية، اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي، بيروت دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧.

- مؤلف مجهول، مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري:

❖ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، الدار البيضاء ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م):

❖ معجم البلدان، بيروت، دار صادر ١٩٨٤م.

-اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م):

❖البلدان، ليدن ١٨٩٢م.

ثانيًا: المراجع العربية الحديثة:

_ابتسام مرعي خلف الله(الدكتورة):

❖العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي،دار المعارف١٩٨٥

إبراهيم القادري بوتشيش (الدكتور):

❖تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، بيروت ١٩٩٤م.

-أحمد مختار العبادي (الدكتور):

❖دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ١٩٦٧.

❖في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت (د.ت).

-جورج مارسيه:

❖بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي، ترجمة محمد عبد الحميد هيكل، مراجعة الدكتور مصطفى أبو ضيف، الأسكندرية ١٩٩١م.

-جوليان أندريه:

❖تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، و البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٨.

-حسن أحمد محمود (الدكتور):

❖قيام دولة المرابطين. صفحة مجيدة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٧.

❖محنة الشيعة بإفريقية في القرن الخامس الهجري، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٢، ديسمبر ١٩٥٠

حسن حسني عبد الوهاب:

❖ورقات عن الحضارة العربية بافريقية، تونس١٩٦٤.

-حسن خضيري أحمد (الدكتور):

❖علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٦

❖قيام الدولة الزيدية في اليمن ،مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٦

❖الدعوة الزيدية في مصر" من منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي الي منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي" ، مجلة اتحاد المؤ رخين العرب بالقاهرةالمجلد الأول ،مارس١٩٩٦.

❖مدينة سبته وخططها في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي)، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب جامعة القاهرة، العدد ١٤، يناير ١٩٩٥.

❖مدينة بلرم وحياتها الفكرية في عصر السيادة الفاطمية، مجلة المؤرخ المصري، العدد ١٨، آداب القاهرة ٢٠٠١م.

❖أهم مراكز تجارة الصحراء المغربية ودورها في قيام الكيانات السياسية في القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادي عشر للميلاد، المؤتمر الدولي، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الدار البيضاء (١٤ – ١٥ أكتوبر ٢٠٠٢م).

❖بنو زهر ودورهم في ازدهار الطب في الأندلس في القرنين الخامس والسادس للهجرة / الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٤٢، يناير ٢٠٠٣م

❖حسين مؤنس (الدكتور) :

❖فتح العرب للمغرب، القاهرة ١٩٤٧.

❖معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٨٠.

❖تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، القاهرة ١٩٩١.

-دائرة المعارف الإسلامية.

-سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور):

❖تاريخ المغرب العربي، الأسكندرية ١٩٩٠.

-سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور):

❖تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦١.

-السيد عبد العزيز سالم (الدكتور):

❖المغرب الكبير (العصر الإسلامي)، الأسكندرية ١٩٦٦

❖تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت١٩٨٨

-عبد العزيز الثعالبي:

❖تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق الدكتور أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، مراجعة حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٧.

-عبد الله العروي (الدكتور):

❖مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٩

. -عبد الله علي علام(الدكتور):

❖الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة١٩٧١

عثمان الكعاك:

❖ مراكز الثقافة في المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٨

-عصمت عبد اللطيف دندش (الدكتورة):

❖دور المرابطين في نشر الإسلامي في غرب إفريقيا ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨.

-الفرد بل:

❖الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع ١٩٦٩.

-ليفي بروفنسال:

❖الإسلامي في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت).

-مارتينو ماريو مروينو:

❖المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٥.

- محمد بن تاويت و محمد الصادق عفيفي :

❖ الأدب المغربي ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٠

-محمد عبد الله عنان (الأستاذ):

❖عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٦٤.

-محمود إسماعيل عبد الرازق (الدكتور):

❖الخوارج في المغرب الإسلامي، دار العودة، بيروت ١٩٧٦.

❖المالكية والشيعة بإفريقية إبان قيام الدولة الفاطمية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث والعشرين ١٩٧٦.

-مراجع عقيلة الغناي (الدكتور):

❖سقوط دولة الموحدين، بنغازي ١٩٨١.

-موسى لقبال بن علاوة (الدكتور):

❖دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، بيروت (د.ت).
-ناعمي مصطفى (الدكتور):
❖الصحراء من خلال بلاد تكنة، الرباط ١٩٨٨.
-هويثي ميراندا:
❖علي بن يوسف وأعماله في الأندلس، مجلة تطوان سنة ١٩٥٨، ٩٥٩
العدد الثالث والرابع

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- Aadison,John: Ancient Africa, London, 1970.
- Bovill, E.W.,: The Golden trade of the Moors, Oxford Univesity Press, London, 1968.
- Dozy, R: Dictionnaire detaille name de vetements chez les Arabes, Amesterdam, 1845
- Encyclopeadia of Islam
- Fineley,Moses I, : Ancient Sicily to the Arab conquest, New York press,1968
- Freeman,Edward,A:"The Norman at Palermo" in Historical Essays(Third Series) New York,1892.
- Histoire de Musulmans d'Espagne, Leyde, 1932.
- E. Mercier: Histoire de l'Afrique Septentrioal, Paris, 1888.
- Goitein, S.D.: A Mediterranean Society, California Press, 1967.
- Gautier, E.F.: Le passe de l'Afrique du Nord: les Siecles.
- L'Islamisation de L'Afrique du Nord: les siecles obscures du Maghreb, Paris, 1927
- Hrbek,L.:"The emergence of the Fatimids" in M EL Fasi(editor),General History of Africa,.111:Africa from the seventh to the eleventh century,Heinemann,UUnesco,1981(pp.314-335)
- Hubiak, W. Al-Fustat: its fuondation and early development, Warszawa, 1982.

- Huici Miranda:La Batalla de Zallaka,Hesperis,1953
- Idris. H. R.,: La Berbrie Orientale sous les Zirides, X-XII Siecles, Paris, 1962.
- Marcais, G: Les Arabes en Berberie du XI du XIV siecles, Paris, 1913.
- Mas Latrie: Relations et Commerce de L'Afrique septentrionale, Paris, 1886.
- M. H. Sauvaire: Materiaux pour l'histoire de la numismatique et de la metrologie Musulamnes in J. Asiatique, 1873.
- Slauch, Nahum: L'ampire de Berghouata et les origines de Blad es siba, Reue de Monde Musulman, Tom X. 1910.
- Smith, D. Mack: A history of Sicily «Medieval Sicily» (800-1713) New York Press, 1968
- W. M. Watt: «The significance of Kharigism under the Abbasids» Recueil d'Articles Offert a George C. Anawiti et Louis Gardet par leur Collague et Amis-Louvin, 1977.
- Ronald, Oliver and Fage, J. D.: A short history of Africa, Great Britain, 1962.

Papers From

THE HISTORY OF ISLAMIC MAGHREB

Professor

Hassan Khidery Ahmed

Professor of Islamic History and A Head Department of History,Faculty of Arts,Qena, South Valley University

A Visiting Scholar at Pittsburgh

& The Ohio State University (U.S.A)

Professor at Faculty of Arts for girls at El Dammam